

سِلْسِلَةُ رَسَائِلِ رَاحَةِ الْأَرْوَاحِ

المجموعة الرابعة [16 - 20]

الرسالة السادسة عشرة

الكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ

فِي الْكِتَابِ الْعَظِيمِ

(يحتوي على تدبر الآيات القرآنية المتضمنة لألقاب لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

تأليف

راجي رحمة ربه ذي الْمُنَنِ

الدكتور: أحمد خضر حسنين الحسن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَقِيُومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ الَّذِي لَا فَوْزَ إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، وَلَا عِزَّ إِلَّا فِي التَّذَلُّ لِعَظَمَتِهِ، وَلَا غِنَى إِلَّا فِي الْإِفْتِقَارِ إِلَى رَحْمَتِهِ، وَلَا هُدًى إِلَّا فِي الْإِسْتِهْدَاءِ بِنُورِهِ، وَلَا حَيَاةَ إِلَّا فِي رِضَاهُ، وَلَا نَعِيمَ إِلَّا فِي قُرْبِهِ، وَلَا صَلَاحَ لِلْقَلْبِ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا فِي الْإِخْلَاصِ لَهُ وَتَوْحِيدِ حُبِّهِ، الَّذِي إِذَا أُطِيعَ شَكَرَ، وَإِذَا عُصِيَ تَابَ وَغَفَرَ، وَإِذَا دُعِيَ أَجَابَ، وَإِذَا عُومِلَ أَثَابَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَهِدَتْ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ جَمِيعُ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَقَرَّتْ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ جَمِيعُ مَصْنُوعَاتِهِ¹.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَقَائِدِ الْخَيْرِ وَرَسُولِ الرَّحْمَةِ اللَّهُمَّ ابعثه مقامًا محمودًا يَغِيْطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ².

وبعد: هذه الرسالة السادسة عشرة من **سلسلة رسائل راحة الأرواح**، استهلها بهذه المقدمة قائلا: إن أفضل ما عمّر به المسلم وقته هو أن يتدبر كلام الله تعالى امتثالاً لقوله تعالى : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) سورة ص (29).

قال القرطبي رحمه الله تعالى : (وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن).

1- نقلا عن مقدمة زاد المعاد في هدي خير العباد - لابن القيم.

2- هذه الصيغة من الصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صححه العلامة علاء الدين مغلطاي في شرح سنن ابن ماجه (509/3) حيث قال : موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه وإسناده صحيح ، كما حسنه المنذري في الترغيب والترهيب (405/2) (نقلا عن موقع الدرر السنية - الموسوعة الحديثية).

ولا شك أن أوجب ما يتدبره القارئ من القرآن الآيات القرآنية التي تؤسس توحيد الله تعالى وتقوي الإيمان به.

ورحم الله تعالى أبا حامد الغزالي حيث يقول : أقصى غايات الاستقصاء : هو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حدّ الواجب.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : الرب تعالى يدعو عباده في القرآن الى معرفته من طريقين : **(أحدهما :** النظر في مفعولاته. **والثاني :** التفكير في آياته وتدبرها فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة :

فالنوع الأول : كقوله : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) البقرة (164) إلى آخرها وقوله تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) سورة آل عمران . وهو كثير في القرآن.

والثاني : كقوله : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) وقوله : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَكَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) سورة ص (29). وهو كثير أيضا³.

ومن هنا جاء هذا الكتاب ليعين المسلم على فهم تلك الآيات التي تقوي الإيمان وتزيده نورا وثباتا ورسوخا ومعرفة بالله تعالى معرفة ذوقية قلبية وليست فكرية عقلية فحسب.

³ - الفوائد - لابن القيم.

وقد يعتبر البعض تناولي لهذه الآيات يدخل في التفسير الموضوعي لـ (لا إله إلا الله) لما فيه من جمع للآيات الواردة فيها ولما يحتويه من تفسير لمعانيها المتنوعة وما ضرب لها من الأمثال في القرآن الكريم ، ولكني آثرت أن أسميه (الكلمة العظيمة في الكتاب العظيم)، لأن شأن التفسير الموضوعي أجل وأعظم من أن يخوض غماره من هو مثلي في ضعفه العلمي والفكري. ولكن أرجو أن يكون لهذه الفصول أثرها في واقعنا المعاصر.

المنهج الذي اتبعته في تناول الآيات يتضح فيما يلي:

1/ قسمت الآيات إلى قسمين :

القسم الأول: آيات تتحدث عن كلمة التوحيد بإعطائها لقباً أو وصفاً بعينه، كقوله تعالى (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 256] فوصفها بالعروة الوثقى.

وهذا القسم يحتوي على أربعة وعشرين فصلاً كل فصل يحتوي على لقب للكلمة العظيمة.

القسم الثاني: آيات ضربت لكلمة التوحيد الأمثال، كقوله تعالى (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) [الرعد: 14]. وهذا القسم يحتوي على فصلين فقط.

2/ قسمت كل فصل في القسم الأول إلى أربعة مباحث ، كالاتي :

المبحث الأول : سبب نزول الآية - إن وجد - وهو له دور كبير في فهم تفسير الآيات القرآنية كما لا يخفى .

المبحث الثاني : المعنى الإجمالي للآية الكريمة : كتبت تفسيراً إجمالياً للمعاني التي تشتمل عليها الآية وهو التفسير المباشر لها لإعطاء مفهوماً عاماً للقارئ الكريم حول موضوع الآية

، وربما اقتصر على محل الشاهد ولم أفسر الآية كاملة إذا كانت طويلة لكي لا نخرج موضوع الكتاب.

المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآية الكريمة ، لأنّ التدبر في القرآن الكريم هو الغاية الأسمى من نزوله قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ سورة ص: (29) **ومعنى التدبر** : التفكير والنظر في أدبار الأمور للاعطاء والاعتبار، **قال الخازن** رحمه الله تعالى: (أصل التدبر: النظر في عواقب الأمور، والتفكير في أدبارها، ثم استعمل في كل تفكير وتأمل، ويقال: تدبرت الشيء أي: نظرت في عاقبته، ومعنى تدبر القرآن تأمل معانيه، والتفكير في حكمه، وتبصر ما فيه من الآيات).

المبحث الرابع : اخترت عنوانا يناسب موضوع الآية، فمثلا كتبت عن الإخلاص عند الآية التي ورد فيها تلقيب **لا إله إلا الله بالإخلاص** . وهذا المحور ليس مطردا في جميعها. وفي الختام أسأل الله أن ينفعني به وسائر المسلمين والمسلمات وأن يبارك فيه وفي كل من قرأه وانتفع به ثم سعى في نشره أو تدريسه . **وأختم مقدمتي بما ختم به الحريري ملحته بقوله :**

فَانْظُرْ إِلَيْهَا نَظَرَ الْمُسْتَحْسِنِ وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِهَا وَحَسِّنِ

وَإِنْ تَجَدَّ عَيْبًا فَسُدَّ الْحَلَلَا فَجَلَّ مَنْ لَا فِيهِ عَيْبٌ وَعَلَا

كتبه أخوكم ومحكم / أحمد خضر حسنين الحسن

في يوم الثلاثاء 28 / محرم / 1445 - الموافق: 15 / 8 / 2023

تمهيد

فضائل الكلمة العظيمة في السنة المطهرة

لما كان موضوع الكتاب هو البحث في معاني الكلمة العظيمة في القرآن كان المناسب أن أذكر شيئا من فضائلها من أحاديث خير الأنام عليه الصلاة والسلام ، والمتتبع لفضائلها سيجد أنها كثيرة جدا ولكن بحسبي أن أكتفي ببعضها بما يسمح به المقام ، فأقول متوكلا على الملك العلام⁴:

1/ الكلمة العظيمة هي أفضل قول قاله الأنبياء : عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ) رواه الإمام مالك في موطنه والترمذي في سننه.

2/ لا إله إلا الله سبب لمغفرة الذنوب : جاء في مسند الإمام أحمد بسنده عن يعلَى بْنِ شَدَّادٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، حَاضِرٌ يُصَدِّقُهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟) يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ. فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَمَرَ بِغُلْقِ الْبَابِ، وَقَالَ: (ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ، وَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا سَاعَةً، ثُمَّ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ، اللَّهُمَّ بَعَثْنِي بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهَا الْجَنَّةَ، وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) ثُمَّ قَالَ: (أَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ).

3/ لا إله إلا الله أفضل الحسنات ومأخوذ للسيئات : روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي . قَالَ: (إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً

4- باختصار من رسالتي (تَحْقِيقُ التَّقْوَى فِي الاسْتِمْسَالِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) وهي منشورة في موقع صيد الفوائد ضمن سلسلة رسائل راحة الأرواح – الرسالة السادسة – ص (32-36).

فَاتَّبِعْهَا حَسَنَةً تَمَحُّهَا). قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنَ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ : (هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ).

4/ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَثْقَلَ عَمَلٍ يَوْضَعُ فِي الْمِيزَانِ : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ : يَا مُوسَى : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ : قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصِّنِي بِهِ، قَالَ : يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)⁵.

5/ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِهَا يُعْصَمُ دَمُ الْعَبْدِ وَمَالُهُ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ مَالَهُ وَدَمَهُ وَحَسَابَهُ عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

6/ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِهَا يَدْخُلُ الْعَبْدُ الْجَنَّةَ دَارَ السَّلَامِ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهَمَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍ فِيهِمَا فَيُحْبَبُ عَنِ الْجَنَّةِ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

7/ مَنْ فَضَّائِلُهَا أَنَّهُ مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ : فَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

5- رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي فَتْحِ الْبَارِي (211/11).

8/ لا إله إلا الله من قالها بإخلاص حصلت له شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم : ففي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أحق الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصة من قلبه).

9/ لا إله إلا الله سبب في ترجيح كفة الحسنات : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ تِسْعِينَ سِجِّلًا ، كُلُّ سِجِّلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ! فَيَقُولُ : أَفَلَاكَ عُذْرٌ ؟ قَالَ : لَا يَا رَبِّ ! فَيَقُولُ : بَلَى ؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ : احْضُرْ وَرَنَّاكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجَّلَاتِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجَّلَاتُ فِي كِفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السِّجَّلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ) رواه أحمد والترمذي وغيرهما، بإسناد صالح

قال العلماء في بيانه : هذا الحديث ليس قاعدة مطردة لكل الناس: فهذا الرجل داخل تحت مشيئة الله ورحمته، وإلا فكم من أهل الكبائر من يعذب في النار على قدر جرمه، ثم يُخرج منها، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحيحة الكثيرة ومنها الحديث المشهور في آخر من يخرج من النار.

فلا يغتر مقصر أو مفرط أو تائه عن الله - تعالى - بأنه يقول كلمة التوحيد، ثم بعد ذلك لا يضره ما فعل، كما هي أفعال وممارسات كثير من المسلمين في تركهم الصلاة والجمع والجماعات، وفعل المنكرات التي تهتر لها الجبال.

10/ لا إله إلا الله سبب لتفريج الكربات: عن ابن عباس رضي الله عنهما : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) رواه البخاري.

11/ لا إله إلا الله أعلى شعب الإيمان : روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ).

ومعنى الحديث : الإيمان الكامل درجات، ويشتمل على أعمال وأفعال وأصناف من الصالحات يصل عددها إلى بضع وسبعين أو بضع وستين جزءاً.

(فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أي: أعلى درجات الإيمان وأفضلها، بل وأصل الإيمان هو توحيد الله عز وجل، والاعتراف بكونه الإله الواحد المدبر للكون المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، والعمل بمقتضى ذلك الإيمان.

12/ لا إله إلا الله تحرم النار على من قالها صادقاً مخلصاً : في الصحيحين من حديث عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

وأختم بما قاله ابن عبيدة رحمه الله : ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أفضل من أن عرفه لا إله إلا الله، وإنَّ لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا ولأجلها أعدت دار الثواب، ودار العقاب ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد.

وأختم بكلام غاية في الروعة والجمال للعلامة ابن القيم عن كلمة الإيمان ما يلي :

(كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن: إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا

شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإمّا أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإمّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإمّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبي من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم)⁶.

وقال أيضا: (التَّوْحِيدُ مَفْرَعُ أَعْدَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَأَمَّا أَعْدَاؤُهُ فَيُنْجِيهِمْ مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا وَشِدَائِهَا) (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) [العنكبوت: 65] وَأَمَّا أَوْلِيَائُهُ فَيُنْجِيهِمْ بِهِ مِنْ كَرَبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشِدَائِهَا؛ وَلِذَلِكَ فَرَعَ إِلَيْهِ يُونُسَ فَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَفَرَعَ إِلَيْهِ أَتْبَاعَ الرِّسْلِ فَنَجَّاهُمْ بِهِ مِمَّا عَذَبَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي الدُّنْيَا وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَمَّا فَرَعَ إِلَيْهِ فَرَعُونَ عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْهَلَاكِ وَإِدْرَاكِ الْغَرَقِ لَهُ لَمْ يَنْفَعَهُ لَأَنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمَعَايِنَةِ لَا يَقْبَلُ، هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، فَمَا دَفَعَتْ شِدَائِدَ الدُّنْيَا بِمِثْلِ التَّوْحِيدِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ دَعَاءُ الْكَرْبِ بِالتَّوْحِيدِ وَدَعْوَةُ ذِي النُّونِ الَّتِي مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَجَ اللَّهُ كَرْبَهُ بِالتَّوْحِيدِ. فَلَا يَلْقَى فِي الْكَرْبِ الْعِظَامَ إِلَّا الشَّرْكَ وَلَا يَنْجِي مِنْهَا إِلَّا التَّوْحِيدُ، فَهُوَ مَفْرَعُ الْخَلِيقَةِ وَمَلْجَأُهَا وَحَصْنُهَا وَغِيَاثُهَا. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ⁷.

6- مدارج السالكين - (450 /3).

7- الفوائد - ص (53) .

القسم الأول

آيات القرآن المبينة لأسماء وألقاب الكلمة العظيمة

مدخل : في بيان ورود لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ في القرآن الكريم بلفظها وبمعناها.

الفصل الأول : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي كلمة التقوى.

الفصل الثاني : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي كلمة الاستقامة.

الفصل الثالث : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي القول الثابت.

الفصل الرابع : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي الكلمة العليا.

الفصل الخامس : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي كلمة الإحسان.

الفصل السادس : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي الكلمة الحسنة.

الفصل السابع : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي كلمة التزكية.

الفصل الثامن : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي كلمة الفلاح .

الفصل التاسع : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي العمل الصالح.

الفصل العاشر : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي الكلم الطيب والقول الطيب.

الفصل الحادي عشر : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي الكلمة الباقية.

الفصل الثاني عشر : لا إله إلا الله هي كلمة العدل.

الفصل الثالث عشر : لا إله إلا الله هي القول السديد.

الفصل الرابع عشر : لا إله إلا الله هي العهد المأخوذ لقبول الشفاعة.

الفصل الخامس عشر : لا إله إلا الله هي الكلمة المرضية عند الله تعالى.

الفصل السادس عشر : لا إله إلا الله هي كلمة السواء.

الفصل السابع عشر : لا إله إلا الله هي كلمة النجاة.

الفصل الثامن عشر : لا إله إلا الله هي المثل الأعلى.

الفصل التاسع عشر : لا إله إلا الله هي كلمة الصدق.

الفصل العشرون : لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد.

الفصل الحادي والعشرون : لا إله إلا الله هي كلمة الإخلاص.

الفصل الثاني والعشرون : لا إله إلا الله هي شهادة الحق.

الفصل الثالث والعشرون : لا إله إلا الله هي القول الصواب.

الفصل الرابع والعشرون : لا إله إلا الله هي العروة الوثقى.

مدخل

في بيان ورود لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ في القرآن الكريم بلفظها ومعناها:

لقد وردت كلمة الإيمان (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) في القرآن الكريم بلفظها ومعناها:

أما بلفظها : فقد وردت في سبعة وثلاثين موضعاً⁸.

-
- 8- وهي قوله تعالى : {وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} البقرة الآية : 163
- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة الآية : 255
- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} آل عمران الآية : 2
- {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران الآية : 6
- {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} آل عمران الآية : 18
- {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} آل عمران الآية : 18
- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} النساء الآية : 87
- {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} الأنعام الآية : 102
- {اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} الأنعام الآية : 106
- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} الأعراف الآية : 158
- {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة الآية : 31
- {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} التوبة الآية : 129
- {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يونس الآية : 90
- {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} هود الآية : 14
- {قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} الرعد الآية : 30
- {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} النحل الآية : 2
- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} طه الآية : 8
- {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} طه الآية : 14
- {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} طه الآية : 98
- {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء الآية : 25
- {فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} الأنبياء الآية : 87
- {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} المؤمنون الآية : 116
- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} النمل الآية : 26
- {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} القصص الآية : 70

وأما بمعناها : فقد وردت في آيات قرآنية كثيرة ، ونحن نقتبس هنا ما أشار إليه الإمام البيهقي رحمه الله في كتابه الأسماء والصفات حيث قال رحمه الله (باب ما جاء في فضل الكلمة الباقية في عقب إبراهيم عليه السلام وهي كلمة التقوى ودعوة الحق لا إله إلا الله) .. إلخ فقد أثبت فيه عددا من الكلمات الواردة في بعض الآيات التي فسرها أكابر الصحابة والتابعون بأن المراد منها **لا إله إلا الله** مع أن القارئ لها لأول وهلة قد يظن أن لها معنى آخر ، وهذه ما أسماها البيهقي ألقابا ، وقد نقلت كلامه رحمه الله تعالى في مواضعه ، مع إضافتين : **الأولى :** زيادة ألقاب آخر مع تفسيرها بالرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة .

الثانية : وضع أسماء وإن شئت قل ألقابا تُفهم من تلك الآيات تأسيسا بالبيهقي رحمه الله تعالى - مع شيء من الزيادات - فمثلا **لا إله إلا الله** يمكن أن نسميها بـ بالقول الطيب والقول الثابت ؛ والآن إليك تفصيل ذلك بعون الله وتوفيقه في المباحث التالية :

- {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} القصص الآية : 88
 - {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِي تُؤْفِكُونَ} فاطر الآية : 3
 - {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} الصافات الآية : 35
 - {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} الزمر

الآية : 6

- {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} غافر الآية : 3
 - {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِي تُؤْفِكُونَ} غافر الآية : 62
 - {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} غافر الآية : 65
 - {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} الدخان الآية : 8
 - {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} سورة محمد

الآية : 19

- {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} الحشر 22
 - {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} الحشر (23).

- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} التغابن الآية : 13
 - {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} المزمل الآية : 9
 - {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ} المائدة الآية : 73

الفصل الأول

لا إله إلا الله هي كلمة التقوى

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد ، وهو قوله تعالى : (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) [الفتح: 26] .

وحديثنا حول الآية سيكون في ثلاثة مباحث : سبب نزولها ، والمعنى الإجمالي لها ، والوقفات التدريبية في الآية الكريمة.

المبحث الأول

سبب نزول الآية الكريمة (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى)

قال الطبري رحمه الله تعالى : (نزلت حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين يدي رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمشركون: بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب فيه: محمد رسول الله ، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامه ذلك) وذلك في قصة صلح الحديبية وهي قصة طويلة مسطورة في كتب التفسير والسيرة.

المبحث الثاني

المعنى الإجمالي للآية الكرمة

قوله تعالى: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ):

سبب هذه الحمية : أنهم أنفوا من كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) وأنفوا من دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لئلا يقول الناس: (دخلوا مكة قاهرين لقريش) وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تنزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي.

قوله تعالى: (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ):

فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمة الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللائمين.

وقيل : فأنزل الله سكينته أي الطمأنينة والوقار ؛ على رسوله وعلى المؤمنين.

وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية.

قوله تعالى: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى):

كلمة التقوى هي لا إله إلا الله⁹، كما ورد عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا

⁹ - قال الماوردي : وألزمهم كلمة التقوى فيها أربعة أوجه:

أحدها: قول لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ، وهو يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: الإخلاص ، قاله مجاهد .

الثالث: قول بسم الله الرحمن الرحيم ، قاله الزهري.

من قلبه إلا حرم على النار فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : أنا أحدثكم ما هي كلمة الإخلاص التي ألزمها الله سبحانه محمدا وأصحابه وهي كلمة التقوى التي أخلص عليها نبي الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمه أبا طالب عند الموت شهادة أن لا إله إلا الله¹⁰ . ومعنى **أَلَا**ص: أرادها عليها وأرادها منه.

وأرجح الأقوال في هذه الكلمة ما روي مرفوعا وذهب إليه الجم الغفير ، ولعل ما ذكر في الأخبار السابقة من باب الاكتفاء ، والمراد لا إله إلا الله محمد رسول الله .

قوله تعالى: (وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۖ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) :

وكان المؤمنون في علم الله تعالى أحق بها أي بكلمة التقوى ، وأفعل لزيادة الحقية في نفسها أي متصفين بمزيد استحقاق لها.

والمعنى : أحق بها من كفار مكة لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقيل : أحق بها من اليهود والنصارى .

وقيل : أحق بها من جميع الأمم، لأنهم خير أمة أخرجت للناس .

قوله تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) : أي وسبق في علم الله ذلك في عموم ما أحاط به علم الله من الأشياء مجرى تكوينه على نحو علمه .

الرابع: قولهم سمعنا وأطعنا بعد خوضهم.

¹⁰ - أخرجه الترمذي وعبد الله بن أحمد والدارقطني وغيرهم عن أبي بن كعب مرفوعا وكما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة وسلمة بن الأكوع كذلك وأخرجه أحمد وابن حبان والحاكم رواه البخاري معلقا .

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال ابن عاشور : في قوله تعالى : (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) وفي هذه الآية من النكت المعنوية مقابلة " جعل " بـ **أنزل** في قوله : **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ** وقوله **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ** فدل على شرف السكينة على الحمية لأن الإنزال تحييل للرفعة ، وإضافة الحمية إلى الجاهلية ، وإضافة السكينة إلى اسم ذاته .

وعطف على إنزال الله سكينته (**أَلَزَمَهُمْ كَلِمَةُ اتَّقُوا**) ، أي جعل كلمة التقوى لازمة لهم لا يفارقونها ، أي قرن بينهم وبين كلمة التقوى ليكون ذلك مقابل قوله : وصدوكم عن المسجد الحرام فإنه لما ربط صدهم المسلمين عن المسجد الحرام بالظرف في قوله : (**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**) ربطا يفيد التعليل كما قدمناه آنفا ، ربط ملازمة المسلمين كلمة التقوى بإنزال السكينة في قلوبهم ، ليكون إنزال السكينة في قلوبهم ، وهو أمر باطني ، مؤثرا فيهم عملا ظاهريا وهو ملازمتهم كلمة التقوى ، كما كانت حمية الجاهلية هي التي دفعت الذين كفروا إلى صد المسلمين عن المسجد الحرام .

الثانية : : قال ابن عاشور أيضا : وضمير النصب في **أَلَزَمَهُمْ** عائد إلى المؤمنين لأنهم هم الذين عوض الله غضبهم بالسكينة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مفارقا السكينة من قبل .

ومعنى إلزامه إياهم كلمة التقوى : أنه قدر لهم الثبات عليها ؛ قولا بلفظها وعملا بمدلولها ، إذ فائدة الكلام حصول معناه ، فإطلاق (**الكلمة**) هنا كإطلاقه في قوله تعالى : وجعلها كلمة باقية في عقبه يعني بها قول إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين.

الثالثة : إضافة **كلمة إلى التقوى** إضافة حقيقية؛ ومعنى **إضافتها**: أن كلمة الشهادة أصل التقوى فإن أساس التقوى اجتناب عبادة الأصنام ، ثم تتفرع على ذلك شعب التقوى كلها.

الرابعة : قال ابن عاشور : عن الحسن : أن كلمة التقوى الوفاء بالعهد ، فيكون الإلزام على هذا بمعنى الإيجاب ، أي أمرهم بأن يفوا بما عاهدوا عليه للمشركين ولا ينقضوا عهدهم ، فلذلك لم ينقض المسلمون العهد حتى كان المشركون هم الذين ابتدءوا بنقضه.

والواو في **(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا)** المعنى : أن نفوس المؤمنين كانت متهيئة لقبول كلمة التقوى والتزامها بما أرشدها الله إليه ؛ والمفضل عليه مقدر دل عليه ما تقدم ، أي أحق بها من الذين كفروا والذين جعل الله في قلوبهم الحمية لأن الله قدر لهم الاستعداد للإيمان دون الذين أصروا على الكفر .

وأهل الشيء مستحقه ، والمعنى أنهم كانوا أهل كلمة التقوى لأنها تناسب ضمائرهم وما انطوت عليه قلوبهم . وهذه الأهلية مثل الأحقية متفاوتة في الناس وكلما اهتدى أحد من المشركين إلى الإسلام دل اهتداؤه على أنه حصلت له هذه الأهلية للإسلام.

الخامسة : يقول الرازي رحمه الله تعالى في قوله تعالى : **(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)** : هنا ثلاث لطائف لفظية :

الأولى : قال في حق الكافر : **(جعل)** وقال في حق المؤمن : **(أنزل)** ولم يقل خلق ، ولا جعل سكينته ، إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى ، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزنة الرحمة ، معدة لعباده فأنزله .

الثانية : قال : الحمية ثم أضافها بقوله : **(حمية الجاهلية)** لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة ، وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحا ، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح

كالمضاف إلى الجاهلية . وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار ، فقال (سكينته) اكتفاء بحسن الإضافة .

الثالثة : قوله : (فأنزل) بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة ، تقول : أكرمني فأكرمته ، للمجازاة والمقابلة ، ولو قلت : أكرمني وأكرمته لا ينبئ عن ذلك ، وحينئذ يكون فيه لطيفة : وهي أن عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر إما أن يكون ضعيفا أو قويا ، فإن كان ضعيفا ينهزم وينقهر ، وإن كان قويا فيورث غضبه فيه غضبا ، وهذا سبب قيام الفتن والقتال ، فقال في نفس الحركة عند حركتهم : ما أقدمنا وما انهزمنا.

السادسة : قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى : (وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) ، لا إله إلا الله، لأنها تهدب الأخلاق، وتُخرج ما في القلب من الأمراض والنفاق لأن النفي: تنزيه وتخلية، والإثبات: نور وتخلية، فلا يزال النفي يخرج من القلب ما فيه هي الظلمة والمساوي، حتى يتطهر ويتصف بكمال المحاسن.

قال في نواذر الأصول، لما تكلم على **وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**: هو **لا إله إلا الله**، وجه تسميتها بذلك: أنه اتقى بها ونفى ما أحدث من الشرك، حمية للتوحيد وعصبيةً وغيرةً، اقتضاها نور التوحيد والمحبة، فنفى القلب كل رب ادعى العباد ربوبيته، وولّيت قلوبهم إليه، فابتدأ هذا القلب- الذي وصفنا- بالنفي لأرباب الأرض، ثم سما عالياً حتى انتهى إلى الرب الأعلى، فوقف عنده، وتذلل وخشع له، واطمأن وولّه إليه.

وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) أي: إن هذه أرباب متفرقون، والرب الله الواحد القهار، فهداه إلى الرب الأعلى، وقال: (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى). ثم قال: ألزم قلوبهم هذه الكلمة بنور المحبة، كما قال: (حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)، فبحلاوة الحب، وزينة البهاء، صارت الكلمة لازمة لقلوبهم.

السابعة : قال ابن عجيبة : قوله: (وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) فإنما صاروا كذلك لأن الله كان ولا شيء، فخلق المقادير، وخلق الخلق في ظلمة، ثم رشّ عليهم من نوره، فَمَنْ أصابه من ذلك النور اهتدى، وَمَنْ أخطأه ضلّ، فقد علم مَنْ يخطئه مَنْ يصيبه. ثم ذكر أحاديث، من ذلك: حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً¹¹: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ) .

الثامنة : قال ابن عجيبة : قال الجنيد رضي الله عنه في قوله: (وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا): مَنْ أدركه عناية السبق في الأزل جرى عليه عنوان المواصلة، وهو أحق بها، لِمَا سبق إليه من كرامة الأزل. هـ.

والحاصل: أنهم أحق بها بالسبق بالاصطفائية، وبقيت نعوتها وأنوارها في قلوبهم، دون الذين حجبهم الله عن رؤية نورها.

¹¹- أخرجه الترمذي واللفظ له، وأحمد وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

المبحث الرابع

حقيقة التقوى وشذرات من ثمراتها في الدنيا والآخرة وطائفة من صفات المتقين

لا يخفى عليك أخي القارئ الكريم أختي القارئة الكريمة أن الكلام على التقوى قد يستغرق مجلدات ؛ وليس ذلك على سبيل المبالغة بل بالفعل هناك رسائل علمية ومؤلفات كثيرة كتبها العلماء حول التقوى هذا عدا عن عشرات المقالات المنشورة في المواقع الإسلامية في الإنترنت ولكن ما يدرك كله لا يترك جله ومن هنا أحببت أن آتي على أهم ما ينبغي أن يعلمه المسلم عن التقوى مقتبسا ذلك من أروع المقالات التي كتبت عن التقوى ، فأقول مستعينا بالله راجيا منه القبول :

أولاً : حقيقة التقوى : لفظ **التقوى من حيث اللغة** يدل على دفع شيء عن شيء بغيره. تقول: وقته أقيه وقياً. **والوقاية:** حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. واتق الله: توقه، أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية.

أما شرعا : فقد قال بعض أهل العلم: حقيقة **(التقوى)** تنزيه القلب والجوارح عن الذنوب، ألا ترى إلى قوله تعالى: (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون { (النور:52)، ذكر (الطاعة) و(الخشية) ثم ذكر (التقوى)، فعلم بهذا أن حقيقة (التقوى) بمعنى غير (الطاعة) و(الخشية)، وهي الابتعاد عن المعاصي.

ثانياً : أهمية التقوى : تظهر في النقاط التالية :

1/ أن لفظ (التقوى) توارد في القرآن الكريم في ثمانية وخمسين ومائتي موضع، جاء في اثنين وثمانين ومائة موضع بصيغة الفعل، من ذلك قوله تعالى: (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) (البقرة:24)، وجاء بصيغة الاسم في ستة وسبعين موضعاً، من ذلك قوله سبحانه: (فإن خير الزاد التقوى) (البقرة:197).

2/ الأمر بالتقوى: أتى الأمر بالتقوى في القرآن الكريم في حوالي (81) موضعًا، وقد نَوَّعَ الله

عز وجل في الأمر بالتقوى على النحو التالي:

1- أمر بها الناس جميعًا: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 1]، وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: 1].

2- أمر بها المؤمنين: حيث ناداهم بوصف الإيمان؛ ليكون ترغيبًا لهم في تحقيقها والاتصاف بها، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1].

3- أمر بها نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم: وهذا من أكبر الأدلة على أهمية التقوى؛ حيث أمر بها أشرف خلقه، وأكرم أنبيائه؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: 1].

وقد بين العلماء أنه صلى الله عليه وسلم كان تقيا قبل نزول الآية فالأمر بالتقوى في حقه صلى الله عليه وسلم يعني الثبات عليها والاستمرارية في التخلق بها .

4- أمر بها الأمم السابقة على لسان أنبيائهم:

وعلى سبيل المثال نوح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إني لكم رسول أمين * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: 105 - 108].

وهود عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إني لكم رسول أمين * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: 123 - 126].

وهكذا إبراهيم وصالح وشعيب ولوط عليهم الصلاة والسلام وغيرهم كما هو واضح في القرآن الكريم.

ثالثًا: البشريات التي بشر الله بها المتقين في كتابه الكريم¹²:

- 1- الفلاح في الدنيا والآخرة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189].
- 2- **الله يكون معك بنصره وتأييده:** ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194]. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194].
- 3- **يعلمك الله ما لم تكن تعلم:** ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282].
- 4- **تكون من الشاكرين:** ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].
- 5- **تناالك رحمة الله عز وجل:** ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 156]. 6- **تكون من الأبرار:** ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ [البقرة: 189].
- 7- **تأمن من الخوف والفرع والحزن يوم القيامة:** ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 35].

¹² - مقتبس من مقال : التقوى والمتقون في القرآن الكريم - د. أنس محمد الغنام - شبكة الألوكة الشرعية.(بتصرف).

8- تنال الثواب الأوفى من الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 103].

9- تنال الأجر العظيم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172].

10- يكفر الله سيئاتك: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: 65]، ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 5].

11- يوسع عليك في الرزق: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96].

12- الله يحفظك من كيد الأعداء: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120].

13- الله يؤيدك بجند من عنده وقت الشدة: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125].

14- يجعل الله في قلبك نوراً تفرق به بين الحق والباطل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].

15- تكون من المحسنين: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

16- يجعل الله لك من ضيق مخرجًا، ويرزقك من حيث لا تحتسب: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2، 3].

17- ييسر الله لك أمورك، وَييسر عليك فعل الطاعة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 5 - 7].

18- تكون من الفائزين: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: 52].

19- يحفظ الله أولادك بعد مماتك: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9].

20- ستكون أكرم الناس عند الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

21- تنال محبة الله عز وجل: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 76]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4].

22- يتقبل الله أعمالك: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

23- الله يتولاك وينصرك ويرعاك: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: 19].

23- تُحشر يوم القيامة في أجمل منظر وأبهى مقام: ﴿يَوْمَ نُحْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85].

24- حسن العاقبة في الدنيا والآخرة: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]. ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: 49]. ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 35].

25- النجاة من عذاب النار: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مریم: 72]. ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: 61].

26- الفوز بالجنة وما فيها من نعيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 51، 52]. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: 17]. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 54، 55]. ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأَسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبا: 31 - 36].

رابعاً : صفات المتقين كما هي في الكتاب المبين ¹³:

أولاً: قال الله تعالى : ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 1 - 5] ، ففي هذه الآيات مجموعة مباركة من صفات المتقين، وهي:

1- الإيمان بالغيب.

2- إقام الصلاة.

3- الإنفاق الواجب والمستحب في جميع طرق الخير.

4- الإيمان بالقرآن والكتب المنزلة السابقة.

5- الإيقان والإيمان الكامل بالآخرة، واليقين هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك.

¹³ - صفات المتقين في ظلال القرآن الكريم (2/1) - لربيع شكير - الألوكة الشرعية.

وَمَنْ عَمِلَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، كَانَ عَلَى الْهُدَى الْعَظِيمِ، وَكَانَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ الْفَائِزِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ثَانِيًا: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]، ففي هذه الآية العظيمة بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مِنْ أَعْمَالِ الْمُتَّقِينَ، وَصِفَاتِهِمُ الْكَرِيمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ:

- 1- الْإِيمَانُ بِاللَّهِ - تَعَالَى.
- 2- الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.
- 3- الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ.
- 4- الْإِيمَانُ بِالْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ - تَعَالَى.
- 5- الْإِيمَانُ بِالْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
- 6- إِعْطَاءُ الْمَالِ لِلْأَقْرَبَاءِ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَالْمَسَافِرِينَ، وَالسَّائِلِينَ، وَإِعْتِاقُ الرِّقَابِ.
- 7- إِقَامُ الصَّلَاةِ.
- 8- إِيْتَاءُ الزَّكَاةِ.
- 9- الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ.
- 10- الصَّبْرُ فِي الْفَقْرِ، وَالْمَرَضِ، وَوَقْتُ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ.

11- الصدق في الأقوال، والأفعال، والأحوال.

ثالثاً : المتقون لهم صفات وأعمال أخرى نالوا بها السعادة في الدنيا والآخرة، ومن هذه الصفات ما يأتي: قال الله تعالى بعد أن بين أن الشهوات زُيِّت للناس: ﴿قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 15، 17]، وقد ظهرت أعمال مباركة، وصفات كريمة من صفات المتقين في هذه الآيات الثلاث.

وهي:

- 1- التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به.
- 2- طلبُ المغفرة من الله تعالى.
- 3- طلبهم من الله تعالى الوقاية من عذاب النار.
- 4- الصبر على طاعة الله وعن محارم الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.
- 5- الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال.
- 6- القنوت الذي هو دوام الطاعة مع الخشوع.
- 7- الإنفاق في سبيل الخيرات على الفقراء وأهل الحاجات.
- 8- الاستغفار، خصوصاً وقت الأسحار؛ لأنهم مَثُّوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

ثالثاً : المتقون لهم صفات وأعمال أخرى نالوا بها السبق إلى رضوان الله تعالى :

قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: 133 - 136]، وهذه الصفات على النحو الآتي:

1- الإنفاق: في العسر واليسر، والشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض.

2- كظم الغيظ وعدم إظهاره، والصبر على مقابلة المسيء إليهم، فلا ينتقمون منه.

3- العفو عن كل من أساء إليهم بقول أو فعل.

4- ذكر الله وما توعد به العاصين، ووعد به المتقين، فيسألونه المغفرة لذنوبهم.

5- المبادرة للتوبة والاستغفار عند عمل السيئات الكبيرة والصغيرة.

6- عدم الإصرار على الذنوب والاستمرار عليها؛ بل تابوا عن قريب.

الفصل الثاني

لا إله إلا الله هي كلمة الاستقامة

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضعين:

قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) [فصلت: (30-31)]. قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأحقاف (13-14)].

وحدثنا حول الآية الأولى سيكون في ثلاثة مباحث : سبب نزولها ، والمعنى الإجمالي لها ، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة.

المبحث الأول

سبب نزول الآية الكريمة (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

قال القرطبي رحمه الله تعالى : قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) قال عطاء عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله ، والملائكة بناته ، وهؤلاء شفعائنا عند الله ، فلم يستقيموا.

وقال أبو بكر رضي الله عنه : ربنا الله وحده لا شريك له ، ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، فاستقام . وفي بعض الروايات عن ابن عباس : هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه وقع في أنواع شديدة من البلاء والحنه ولم يتغير البتة عن دينه ، فكان هو الذي قال : (ربنا الله) وبقي مستقيماً عليه لم يتغير بسبب من الأسباب.

المبحث الثاني

المعنى الإجمالي للآية الكريمة

قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ) قالوه اعترافا بربوبيته تعالى وإقرارا بوحدانيته كما يشعر به الحصر الذي يفيد تعريف الطرفين.

وأراد أن من قال : **ربي الله تعالى** فقد اعترف أنه عز وجل مالكه ومدبر أمره ومربيه وأنه عبد مربوب بين يدي مولاه فالثبات على مقتضاه أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلبا وقالبا ولا يتخطاه وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات.

قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَقَامُوا): وردت فيها أقوال كثيرة عن الصحابة والتابعين وغيرهم؛ منها¹⁴:

الأول : قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه : (ثم استقاموا لم يشركوا بالله شيئا)؛ وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه : ما تقولون في هاتين الآيتين إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا و الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فقالوا : استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة ، فقال أبو بكر : لقد حملتموها على غير الحمل (قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فلم يلتفتوا إلى إله غيره ولم يلبسوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

¹⁴ - ومن الأقوال الواردة في الآية ما نقله القرطبي في تفسيره : **قال ابن زيد وقتادة** : استقاموا على الطاعة لله. الحسن : استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته .

وقال مجاهد وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا.

وقال سفيان الثوري : عملوا على وفاق ما قالوا . **وقال الربيع** : أعرضوا عما سوى الله .

وقال الفضيل بن عياض : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية . **وقيل** : استقاموا إسرارا كما استقاموا إقرارا. **وقيل** : استقاموا فعلا كما استقاموا قولاً .

قلت (القرطبي) : وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها : اعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا ، وداموا على ذلك.

الثاني : قول عمر رضي الله عنه: قال على المنبر وهو يخطب : إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فقال : استقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يرغبوا روغان الثعالب .

الثالث : قول عثمان رضي الله عنه : ثم أخلصوا العمل لله .

الرابع : قول علي رضي الله عنه : ثم أدوا الفرائض .

وقد لخص الرازي تلك الأقوال كلها في قولين : فقال : في الاستقامة قولان :

أحدهما : أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة .

الثاني : أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة .

ف (استقاموا) هنا يشمل معنى الوفاء بما كلفوا به وأول ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد ، أي لا يغيروا ولا يرجعوا عنه ؛ ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : (يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي رواية - غيرك . قال : قل آمنت بالله ثم استقم).

زاد الترمذي قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي ؟ فأخذ بلسان نفسه وقال : (هذا) .

قوله تعالى: (تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا) أي: بأن لا تخافوا . وفي وقت نزولها عليهم قولان :

أحدهما: عند الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد؛ فعلى هذا في معنى (لا تخافوا) قولان . **أحدهما:** لا تخافوا الموت، ولا تحزنوا على أولادكم، قاله مجاهد .

والثاني: لا تخافوا ما أمامكم، ولا تحزنوا على ما خلفكم، قاله عكرمة، والسدي .

والقول الثاني: تنزل عليهم إذا قاموا من القبور، قاله قتادة ؛ فيكون معنى (لا تخافوا) أنهم يبشرونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة .

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : وتنزل الملائكة على المؤمنين يحتمل أن يكون في وقت الحشر كما دل عليه قولهم التي كنتم توعدون ، وكما يقتضيه كلامهم لهم لأن ظاهر الخطاب أنه حقيقة ، فذلك مقابل قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) (فصلت - 19) ؛ فأولئك تلاقيهم الملائكة بالوزع ، والمؤمنون تنزل عليهم الملائكة بالأمن .

قوله تعالى : (وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً.

قوله تعالى: (نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) قال المفسرون: هذا قول الملائكة لهم، والمعنى: نحن الذين كنا نتولاكم في الدنيا، لأن الملائكة تتولى المؤمنين وتحبهم لما ترى من أعمالهم المرفوعة إلى السماء، وفي الآخرة أي: ونحن معكم في الآخرة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة .

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال الرازي : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) الكمالات على ثلاثة أقسام: **النفسانية والبدنية والخارجية وأشرفها المراتب النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية.**

وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين : العلم اليقيني والعمل الصالح ، فإن أهل التحقيق قالوا كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ) ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط ، كما قال : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) [البقرة : 143] .

الثانية : قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة ، فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا أن ذلك القول كان مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية .

الثالث : قال الرازي : (ثم استقاموا) فيه وجوه أخرى :

أولها : أن لا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه ، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل .

ثانيها : يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر ، وكذا في الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم ، فهذا هو المراد من قوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) .

الرابعة : (تنزل عليهم الملائكة) **قال الرازي :** اعلم أن الغاية القصوى في رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع ، ومعلوم أن دفع المضرة أولى بالرعاية من جلب المصلحة ، والمضرة إما أن تكون حاصلة في المستقبل أو في الحال أو في الماضي .

وإذا ثبت هذا فالمضار التي يتوقع حصولها في المستقبل أولى بالدفع من المضار الماضية ، وأيضا **الخوف** عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة في المستقبل ، **والغم** عبارة عن تألم القلب بسبب قوة نفع كان موجودا في الماضي ، وإذا كان كذلك فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم ، إذا عرفت هذا ، فنقول : إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم في أول الأمر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة ، ثم يخبرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا ، وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية .

الخامسة : **قال الرازي :** كون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات ، فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال ، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى ، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة ، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر ، والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : **(لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات)**¹⁵ .

فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوظء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس ، فهذا هو المراد من قوله : **(نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)** .

¹⁵ - قال العراقي في تخرج أحاديث الإحياء : "رواه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه" اهـ

السادسة : قال ابن عاشور : (تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) ذكر التنزل هنا للتنويه بشأن المؤمنين أن الملائكة ينزلون من علوياتهم لأجلهم فأما أعداء الله فهم يجدون الملائكة حضرا في المحشر يزعمونهم وليسوا ينزلون لأجلهم ، فثبت للمؤمنين بهذا كرامة ككرامة الأنبياء والمرسلين إذ ينزل الله عليهم الملائكة . والمعنى : أنه يتنزل على كل مؤمن ملكان هما الحافظان للذات كانا يكتبان أعماله في الدنيا . ولتضمن (تنزل) معنى القول وردت بعده أن التفسيرية . والتقدير : يقولون لا تخافوا ولا تحزنوا .

السابعة : قال الشعراوي : وتأمل هذا الإقرار من المؤمنين حين قالوا (رُبُّنَا اللَّهُ)[فصلت: 30] إقرار يجمع بين عطاء الربوبية والاعتراف به وعطاء الألوهية، فالرب هو نفسه الإله المعطي هو نفسه سبحانه المكلف، وَمَنْ قَبْلَ مِنْ رَبِّهِ عطاء الربوبية وأخذ نعمه إيجاباً من عدم وإمداداً من عُدْم لا يليق به أَنْ يترك تكاليفه، خاصة وهي تكاليف تسعد الإنسان في الدنيا والآخرة، ما جاءت لتضيق عليه أو تشق عليه.

فعطاء الربوبية موجود أيضاً في عطاء الألوهية، ومعلوم أن التكاليف جاءت فافعل ولا تفعل، وعليك أن تفعل في الأمر، وَأَنْ تنتهي عند النهي، وما يرد فيه نصّ فأنت فيه حُرٌّ وتفعل أو لا تفعل.

الثامنة : قال الشعراوي : تأمل هنا حرف العطف ثم، فهو يفيد في اللغة الترتيب والتراخي، ولم يقل سبحانه فاستقاموا لحكمة، وكأن الحق سبحانه أراد أَنْ يعطيك فرصة لتأمل فيها هذه العقيدة وتبحثها وتقتنع بها، أعطاك فرصة لتراجع هذه العقيدة في نفسك لتؤمن بها عن رضا، وتعمل بها عن اقتناع، لتقبل عليها في حب قد يصل بك إلى درجة العشق لهذه الاستقامة.

التاسعة : قال الشعراوي : معنى الاستقامة: أأخذ الشيء على قوامه، وهي تتطلب سيراً على خط مستقيم، الذي سَمَّاهُ الله الصراط المستقيم، فالله يريد منك أيها المؤمن أَنْ تجعل الوسيلة إلى الغاية من عمل التكليف مثل الصراط لا تميل عنه قيد شعرة، ولا تنحرف عن جادته.

فأنت حين تسير في شارع متسع يمكن في السير أن تذهب هنا مرة وهنا مرة، نعم يجوز لك ذلك، لكن لا تنس أنه يطيل عليك المسافة ويزيد المشقة.

لذلك سمى الله طريقه الموصل إلى جنته {الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6] وفي موضع آخر قال {سَوَاءَ السَّبِيلِ} [البقرة: 108] يعني: في وسطه دون انحراف.

فإذا كانت الغاية بعيدة احتاجت منك للوصول إليها إلى الإسراع في الحركة لتدرك ما تريد، فما بالك بمن كانت غايته الجنة؟ لا شك أنه يسرع إليها ولا يدخر في سبيل الوصول إليها وسعاً.

لذلك نقول: لا ينبغي للمؤمن أن يكره الموت لأنه سيوصله إلى غايته، إنما يكرهه إن كان عمله غير صالح، نعم يكره أن يلقي الله وهو على غير الصلاح. فعند ظهور النتيجة مثلاً ترى الطالب المجتهد يسرع إليها، لماذا؟ لأنه مطمئن إليها، أما الكسول فتراه بطيئاً غير مهتم.

لذلك ربنا تبارك وتعالى يعلمنا: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) [آل عمران: 133].

وقال في وصف المؤمنين: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) [الأنبياء: 90] والمعنى: إياك أن تشغلك دنياك، أو تقيد حركتك إلى الآخرة، بل سارع اجز في اتجاهها، لأنك لا تعرف كم تقطع من الطريق قبل أن يدركك الموت.

العاشرة: قال الشعراوي: ثم يُبين الحق سبحانه جزاء هؤلاء المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، ما جزاؤهم؟ (تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا) [فصلت: 30] نعم ملائكة الله في السماء هذه المخلوقات النورانية التي لا عمل لها إلا تسبيح الله، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فحيث تنزل بالمؤمن شدة أو يصيبه مكروه تنزل عليه هذه الملائكة تُثَبِّته فيعود إلى ما يجب أن يعود إليه من الصبر. فيقول: لا كرب وأنت رب، أنا لي رب قوي قادر سيفرج همي ويُرِيل كربي.

المبحث الثالث

حول الاستقامة وثمراتها

الاستقامة مطلب عظيم، ومقصد جليل، ولا بد فيها من مجاهدة للنفس، واستعانة بالله تبارك وتعالى: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله).

ولا يخفى عليك أخي القارئ الكريم أن الحديث عنها طويل وذو شجون ولكن أكتفي هنا بالإشارة إلى ما يقال عنة الاستقامة في نقط أرى أنها أهم ما ينبغي أمن بعلم ، مستعينا بالله تعالى قائلا¹⁶:

أولاً : الاستقامة في اللغة مصدرُ فعلٍ (استقام): ومعناه انتصب واعتدل. والاستقامة، يقال في الطريق الذي على خط مستو ، فالاستقامة ضد الاعوجاج والالتواء. ويقال استقام له الأمر، إذا انتظم وسار على نحو معتدل مستقر. ويوصف الشيء بأنه قائم ومُقام. ويقال: هذا أقوم: أي أكثر استقامة.

وأما المعنى الشرعي للاستقامة: فمطابق لمعناها اللغوي، غير أنه مستعمل بكثرة في الصفات المعنوية والحُلُقِيَّة. وأول استقامة في الشرع، هي استقامة الدين ومنهجه وطريقه. وهذا هو معنى قوله تعالى في سورة الفاتحة: (اهدنا الصراط المستقيم) .

قال الطبري : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن (الصراط المستقيم) هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه .

والإنسان يكون مستقيماً بقدر ما تتطابق صفاته وتصرفاته مع المنهج المستقيم والصراط المستقيم.

¹⁶ - مقتبسة بتصريف من أربع مقالات : الاستقامة عنوان الفلاح -حسام العيسوي إبراهيم ومقال : الاستقامة: وسائلها وثمراتها - د. محمود بن أحمد الدوسري ، ومقال : مفهوم الاستقامة والواقع المعاصر - سيد مبارك - شبكة الألوكة. ومقال : الاستقامة في الإسلام - للدكتور أحمد الربسوني .

قال الراغب : (واستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم).

ثانياً : للاستقامة قاعدتان عليهما قيامها، فلا قيام للاستقامة إلا عليهما، **ألا وهما: استقامة القلب، واستقامة اللسان**، وتأملوا هذا رعاكم الله فيما رواه الإمام أحمد بسند ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **"لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"**، فهاتان عباد الله قاعدتان للاستقامة لا بد منها: استقامة القلب، واستقامة اللسان.

أما استقامة القلب عباد الله فبعمارتها بالإيمان بالله، والخوف منه، ورجائه تبارك وتعالى، وحسن التوكل عليه والثقة به، ومحبه جل وعلا، ومحبة ما يحبه من الأعمال والأقوال، والعناية بإصلاح القلب تزكية ونقاء وصلاحاً، وإذا استقام القلب على هذه الحال تبعته الجوارح كلها في الاستقامة، كما قال عليه الصلاة والسلام: **(ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)**، فوجب على كل مسلم عباد الله أن يعنى بقلبه إصلاحاً له، وتنقية له، واجتهاداً في تركيته وتطهيره، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10].

قال الحسن رحمه الله : ما نظرت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت على قدمي، حتى أنظر على طاعة أو على معصية، فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت.

وقال محمد بن الفضل: ما خطوت منذ أربعين سنة خطوة لغير الله - عز وجل.

الأمر الثاني: استقامة اللسان، وذلك بصيannته وحفظه عن كل أمر يسخط الله، وشغله بكل نافع مفيد، وبكل قول سديد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70].

وإذا استقام اللسان تبعته الجوارح لأنها فرع عنه ونتيجة من نتائجه، ولهذا صح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإذا استقامت استقمنا، وإذا اعوججت اعوججنا".

ثالثاً : الاستقامة تكون بحسب المعرفة:

فمن كملت معرفته بالله، عظم عنده أمره ونهيه، فإذا سمع قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 112]، علم أنه مُطالب باستقامةٍ تليق بمعرفته، وعظمة سيده، وجلال مولاه، وتكون بمعرفة طريقه، وهو الصِّراط المستقيم، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: **خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: (هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ)، ثُمَّ خَطَّ خَطوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَقَالَ: (وَهَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلُ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)، ثُمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153].**

رابعاً : الاستقامة تقتضي مقاومة الهوى:

والهوى هو: ميل النفس إلى الشهوة، وسمي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية، ومقاومة الهوى؛ أي: مُغالبتة، ومُحاربتة، والخلوص من وساوس النفس، وإغواء الشيطان.

ومقاومة الهوى هي الاستقامة، وقد بين الله تبارك وتعالى جزاء ذلك في كتابه، فقال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40 - 41]، وقال سبحانه : ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 135]؛ أي: فلا يحملنكم الهوى والعصية على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أئمة حال.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل؛ فأما اتباع الهوى، فيصد عن الحق، وأما طول الأمل، فينسي الآخرة.

يقول أبو بكر الوراق: أصلُ غلبة الهوى مقارفة الشهوات، فإذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم القلب، ضاق الصّدر، وإذا ضاق الصدر، ساء الخلق، وإذا ساء الخلق، أبغضه الخلق، وإذا أبغضه الخلق أبغضهم، وإذا أبغضهم جفاهم، وإذا جفاهم، صار شيطاناً - والعياذ بالله.

استقامة الأمور باستقامة الباطن: يقول ابن الجوزي رضي الله عنه: ومن صفا نظره، وتهدّب لفظه، نفع وعظه، ومن كدر كُدّر عليه، والحالة العالية في هذا إقبال القلب على الله - عز وجل - والتوكل عليه، والنظر إليه، والتفات القلب عن الخلق، فإن احتجت فاسأله، وإن ضعفت فارغب إليه، ومتى ساكنت الأسباب، انقطعت عنه، ومتى استقام باطنك، استقامت لك الأمور.

خامساً : ثمرات كثيرة في الدنيا والآخرة، ومنها:

1- الثبات على الدين: فإن من استقام ثبت، ومن ثبت نبت، ومن نبت أثمر، ولما قال سُفيان الثَّقَفِيُّ رضي الله عنه: يا رَسُولَ الله! حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ له: «قُلْ رَبِّيَ الله، ثُمَّ اسْتَقِم» صحيح - رواه ابن ماجه.

2- الحياة الطيبة: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]؛ وقال سبحانه: ﴿وَأَلَّوْا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]. والمقصود: أنهم لو استقاموا على طريقتهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، بالإيمان والعمل الصالح؛ لأحييناهم في هذه الدنيا حياة طيبة.

3- البشري عند الموت: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

4- يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ [استقامَ على عدله] وشابٌّ نشأ في عبادة ربه [استقامَ على عبادة ربه] ورجلٌ قلبه معلقٌ في المساجد [استقامَ على المحافظة على صلاة الجماعة] ورجلانٍ تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه [استقاما على الحب في الله] ورجلٌ طلبته امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقالت: إني أخافُ الله [استقامَ على الخوف من الله] ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالكُ ما تُنفقُ يمينُهُ [استقامَ على الإخلاص لله، والبعد عن الرياء] ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ [استقامَ على الإخلاص لله]» رواه البخاري.

5- دُخُولُ الْجَنَّةِ: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الأحقاف: 13، 14].

سادسا : الأمور التي تعين العبد على تحصيل الاستقامة :

الأمر الأول: أن يخلصَ النيةَ لله، ويبدأ بتركِ المؤثراتِ، وترويض النفس بالبديلِ الحلالِ فترةً من الزمن، فلو كانت المعصيةُ إدمانه للمخدراتِ وأراد الاستقامةَ فليقلع عنها فوراً، ولكن لا يهملُ علاجَ نفسه، ويأخذ بأسبابِ ذلك ولا يتوكل على الله، بل يتوكلُ عليه ويأخذ بأسبابِ النجاةِ، ونقول نفسَ الكلامِ في غير ذلك من المعاصي.

الأمر الثاني: أن يروضَ نفسه على الطاعةِ في البيئة التي يعيشُ فيها، ولا يبتس من رحمة الله أبداً، وتلك والله وسيلةٌ لا يدركها إلا مَنْ أنار الله بصيرته، ولا يقدرُ على القيام بها إلا أصحاب عزيمةٍ لا تليئُ أمام الصَّعابِ.

فليس استقامة المرء مع الانطواء والانعزال عن دنيا الناس هو الصَّواب، بل فهم خاطئ وبلاء عظيم، فلا تنفك حياة المرء عن واقعِه بأيِّ حالٍ من الأحوال، وبمنظرة إلى الواقع الذي نعيشُ فيه هذه الأيام لا غملكُ إلا أن نقول: لا حولَ ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإليه راجعون.

الأمر الثالث : الدعاء، فهو مفتاح كل خير وسعادة ورفعة في الدنيا والآخرة، فعليك بالإلحاح على الله جل وعلا وكثرة سؤاله، أن يثبتك على دينه القويم، وأن يهديك صراطه المستقيم، وقد كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

الأمر الرابع: العناية بالعلم النافع، فالعلم نور لصاحبه وضياء، ولن يتحقَّق لعبدٍ استقامة إلاَّ بعلم نافع، يستضيء به ويعرف به طريق الاستقامة، فإن من لا علم عنده لا يميز الخبيث من الطيب، ولا يفرق بين الصالح والنافع، إذ لا يفرق بين ذلك إلاَّ بالعلم.

الأمر الخامس : تخير الجلساء واختيار الرفقاء، وقد قال في هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل".

الأمر السادس : أن يتذكر العبد دائما وأبداً أنه سيقف يوماً بين يدي الله، وأن الله جل وعلا سيحاسبه على ما قدم في هذه الحياة، فمن عمل خيراً أثيب عليه، ومن عمل شراً عوقب عليه ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8].

الفصل الثالث

لا إله إلا الله هي القول الثابت

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد:

وهو قوله تعالى : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) [إبراهيم: 27].

وحدثنا حول الآية سيكون في ثلاثة مباحث: المعنى الإجمالي لها، والأحاديث الواردة في معناها ، والوقفات التدريبية في الآية الكريمة.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

قوله تعالى : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ): يثبتهم على الحق بالقول الثابت ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : (هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) .

قوله تعالى : (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) : فيه أقوال :

الأول : أن الحياة الدنيا : زمان الحياة على وجه الأرض ، والآخرة : زمان المساءلة في القبر ، وإلى هذا المعنى ذهب البراء بن عازب ، وفيه أحاديث تعضده .

والثاني : أن الحياة الدنيا : زمن السؤال في القبر ، والآخرة : السؤال في القيامة ، وإلى هذا المعنى ذهب طاووس ، وقتادة .

الثالث : معنى ، يثبت الله يديمهم الله على القول الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

يثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصرا كالذي نصرا

الرابع : يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت .

قال المفسرون : هذه الآية وردت في فتنة القبر ، وسؤال الملكين ، وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال ، وتثبيته إياه على الحق .

قوله تعالى : (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ): يعني : المشركين ، يضلهم عن هذه الكلمة،

وقيل : يعني أن الكفار إذا سئلوا في قبورهم قالوا : لا ندري . وإنما قال ذلك لأن الله أضله .

وقيل : معنى إضلال الظالمين؛ أنهم إذا ساروا في طريق الضلالة أوغلوا فيه ولا يردهم سبحانه وتعالى عنه بل يتركهم سبحانه يسرون فيه إلى نهايته، ووصفهم بالظالمين فيه إشارة إلى أنهم يبدأون بالسير في طريق الظلم الذي يشمل الظلم في الاعتقاد بالإشراك، والظلم للنفس بارتضاء طريق الشر، والظلم للناس في معاملاتهم، وفتنة الناس في دينهم وإيذائهم في اعتقادهم. كذا قال الشيخ محمد أبو زهرة.

قوله تعالى : (وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) : من هداية المؤمن وإضلال الكافر ، أو من تلقين المؤمنين الصواب وإضلال الكافرين. ولا اعتراض عليه في فعله البتة .

المبحث الثاني

الأحاديث الواردة في معنى الآية الكريمة : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

أورد العلماء في تفسيرهم لهذه الآية عددا من الأحاديث المتعلقة بسؤال القبر ، منها:

1/ عن البراء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر البخاري عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهٖ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)) [إبراهيم: 27].
رواه مسلم والنسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم.

2/ وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) : (نزلت في عذاب القبر) . زاد مسلم : (يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد، فذلك قوله سبحانه وتعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)). ورواه النسائي موقوفا على البراء رضي الله عنه.

3/ وعن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟) رواه أبو داود.

وفي رواية له: قال: (ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: مَنْ رَبُّكَ ؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك ؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ قال: فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان: وما يدريك ؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنتُ به وصدَّقْتُ).

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال أبو زهرة رحمه الله تعالى: قال سبحانه: (بالقول الثابت) ولقد قرر العلماء أن صاحب النفس مطمئنة الراضية بحكم الله المنفذة لتكليفه يلقي الله فيها بالإخلاص، والإخلاص لله يجعل النفس تشرق بنور الله، فتدرك فتؤمن فتقول الحق وتعمل به، ويكون من بعد ذلك السلوك الاجتماعي المستقيم بأمر الله ونهيه، فمعنى بالقول الثابت القول الذي يقوم على دعائم الحق، ولا يتزلزل لباطل، ويصح أن نقول إن الثبات صفة لصاحب القول، وأضيفت إلى القول؛ لأنه لا يثبت القول إلا بثبات صاحبه الذي لا تزلزله عواث الهوى ولا أوهام الشيطان.

وما أحكم ما قاله الزمخشري إذ يقول رضي الله عنه: (القول الثابت) هو الذي يثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه، وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه.

الثانية : قال الزمخشري رحمه الله تعالى:

تشبثهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم لن يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم.

وتشبثهم في الآخرة : أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأَشهاد عن معتقدهم ودينهم، لم يتلعثموا ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر.

الثالثة : قال أبو زهرة رحمه الله تعالى: إن القول الثابت كما يشمل الصبر في العقيدة يدخل في عموم الثبات على الحق في نصيحة الحاكم، والامتناع عن قول الباطل مداهنة له، ويقول للحاكم الظالم: اتق الله، ويكررها كلما اقتضت الحال قولها في غير موارد، إلا إذا كانت الحكمة أن يداور لأجل إيصال الحق إلى قلب الحاكم، وتسويغه في نفسه، فللقول سياسة، وللعلم سياسة، ومنها تسويغ الحق ليهضم معناه، وخصوصا في أزمان الفساد كالزمن الذي نعيش فيه.

الرابعة : قال الرازي رحمه الله تعالى: اعلم أنه تعالى لما بين أن صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتا ، وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ، ذكر أن ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم ، وثبات ثوابه عليهم .

والمقصود : بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى ، فقوله : (يثبت الله) أي على الثواب والكرامة ، وقوله : (بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا.

الخامسة : قال الرازي رحمه الله تعالى: والمراد في الباء في قوله : (بالقول الثابت) هو أن الله تعالى إنما يثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول ، ولهذا الكلام تقرير عقلي وهو أنه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب أقوى ، فكلما كانت مواظبة العبد على **ذكر لا إله إلا الله** وعلى التأمل في حقائقها ودقائقها أكمل وأتم كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل ؛ **قال ابن عباس** رضي الله عنهما : من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبتته الله عليها في قبره ويلقنه إياها .

السادسة : قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) والتثبيت يختلف في أعراف الناس باختلاف المثبت؛ فحين يُخلَّلُ عمود في جدار البيت؛ فصاحب البيت يأتي بالمهندس الذي يقوم بعمل دعائم لتثبيت هذا العمود؛ ويتبادل الناس الإعجاب بقدرات هذا المهندس، ويتحاكى الناس بقدرات هذا المهندس على التثبيت للأعمدة التي كادت أن تنهار، وهذا ما يحدث في عُرف البشر؛ فما بآلنا بما يمكن أن يفعله خالق البشر؟

السابعة : قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى : (يُثَبِّتُ اللَّهُ) يُرَدِّدُكَ إِلَى المَثَبِ الذي لَنْ يطرأ على تثبيته أدنى خلل. وكلمة " التثبيت " دَلَّتْنَا على أن الإنسان ابنٌ أغيارٍ؛ وقد تحدثُ

له أشياء غَيْر مطابقة لما يريد في الحياة؛ لذلك فالمؤمن يجب ألاَّ يَحْزَن؛ لأن له رباً لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار.

والقول الثابت؛ لأنه من الحق الذي لا يتغير؛ وهذا القول مُوجَّه للمؤمنين الذين يواجههم قَوْم أشرار اختاروا أن يكونوا على غير منهج الله. وهذا القول يوضح للمؤمنين ضرورة أن يهدأوا؛ وأن يجعلوا أنفسهم في معية الله دائماً، وأن يعلموا أن الظالم لو عَلِم ما أعدَّه الله للمظلوم من ثواب وحسن جزاء لَصَنَّ الظالم بظلمه على المظلوم ولَقَالَ: ولماذا أجعل الله في جانبه؟ والذين اضطهدوا في دينهم؛ وقام الكفار بتعذيبهم؛ لم يُفْتَنُوا في الدين؛ فكلما قَسَا عليهم الكفار ضَرْباً وتعذيباً كلما تذكروا حنان الحق فتحملوا ما يذيقهم الكافرون من عذاب.

الثامنة : قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى : إذا كان الحق سبحانه يُثَبِّت الذين آمنوا في الدنيا بالقول الثابت الحق فتشبهه لهم في الآخرة هو حياة بدون أسباب.

ونجده سبحانه لم يَقُلْ هنا: الحياة الآخرة، بل قال: (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) ذلك أن الارتقاءات الطُّمُوحِيَّة في الحياة تكون مناسبة للمجهود المبذول فيها، ولكن الأمر في الآخرة يختلف تماماً؛ لأن الحق سبحانه هو الذي يُجَازِي على قَدَر طلاقته مشيئته، وهو يُثَبِّتُهُمْ بداية من سؤال القبر ونهاية إلى أن يَلْقُوا الثواب على حُسْن ما فعلوا من خير في سبيل الله.

المبحث الرابع

صور من ثبات السابقين على الدين والوسائل الموصلة إليه¹⁷

أولاً : صور من ثبات السابقين على الدين:

الثَّباتُ هو دواءُ الفتنِ وعلاجُها، الثَّباتُ هو الانتصارُ، والانتصارُ هو الثَّباتُ. الثَّباتُ فوزٌ عظيمٌ، ونصرٌ كبيرٌ حين تعلو النفوسُ على الخوفِ والجبنِ والترددِ، وتتسامى على نوازعِ النفسِ والشهوةِ وإرجافِ المرجفينِ.

1/ ثبت النبي عليه الصلاة والسلام في أداء الرسالة وتبليغ الدين ثلاثاً وعشرين عاماً تعرّض فيها للأذى والأخطار والتَّهم وسماع الألقاب السيئة. وكذلك أنبياء الله عليهم السلام ثبتوا على تبليغ الرسالة إلى أقوامهم.

2/ ثبت أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم أيما ثباتٍ، حتى ضربه المشركون بالنعال حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وخاطر بنفسه في مكة والغار وفي طريق الهجرة وبعدها حتى توفاه الله.

3/ ثبت ياسر بن عامر بن مالك وزوجته سمية بنت خياط وولده عمار بن ياسر، فما أثناهم العذاب عن ثنيهم في الرجوع عن الإسلام.

وثبت من قبله من مؤمني الأمم السابقة بعد إيمانهم كسحرة فرعون حين قالوا: (آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) [طه:70].

فهذَّدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب على جذوع النخل فكان ردهم ثابتاً (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي

¹⁷ - ملخص من مقالين : وسائل الثبات - إسماعيل القاسم - وسائل الثبات على الدين - صالح بن عبد الله بن حميد - كلاهما من موقع ملتقى الخطباء - بتصرف.

هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) [طه: 72-73].

4/ قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَد - رحمه الله -، قِيلَ لَهُ أَيَّامَ مِحْنَةِ خَلْقِ الْقُرْآنِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! أَلَا تَرَى الْحَقَّ كَيْفَ ظَهَرَ عَلَيْهِ الْبَاطِلُ؟! فَأَجَابَ: "كَلَّا، إِنْ ظَهَرَ الْبَاطِلُ عَلَى الْحَقِّ أَنْ تَنْتَقِلَ الْقُلُوبُ مِنَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، وَقُلُوبُنَا بَعْدُ -أَي: لَا تَزَالُ- لَازِمَةً الْحَقِّ".

ثَانِيًا : الفتن متعددة ومتنوعة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ عَرَضَ الْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِثَتْ فِيهِ نُكُثَةُ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِثَتْ فِيهِ نُكُثَةُ بَيَاضٍ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ أَيْضَ مِثْلِ الصَّفَا، لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدَ مُرْبَدًّا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ" (رواه مسلم).

فَيَتَلَى اللَّهُ الْعِبَادَ بِمَا شَاءَ، فَقَدْ يَكُونُ الْإِبْتِلَاءُ بِسَبَبِ تَقْلِبَاتٍ فِي الْكُونِ. قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بَنُوهُ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكِبِ" (متفق عليه).

وَكَانَ مِنْ دَعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا مُقْلِبَ الْقُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ".
فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِي إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ) أخرجه الترمذي والنسائي.

ثالثاً : وسائل الثبات كثيرة وعديدة:

فمن ثبته الله في أموره عُصَمَ من الوقوع في الموبقات، ولم يصدر منه أمرٌ على خلاف ما يرضاه الله، فيلزم المسلم الدوام على الدين والاستقامة والثبات عند الاحتضار أو السؤال في القبر.

1/ معرفة الله بأسمائه وصفاته، فهي مُعِينَةٌ على الثبات على لزوم الصراط المستقيم، ولا يكون ذلك إلا بالعلم من منهل الكتاب والسنة وسلف هذه الأمة، قال شيخ الاسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه به أكمل".

2/ أداء الصلاة؛ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة: 153]. قال ابن كثير -رحمه الله-: "فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر. ولذا قال الله -عز وجل- فيها: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) [العنكبوت: 45]".

3/ تلاوة كلام الله تعالى: وتدبره مُثَبِّتٌ لقلب المسلم من الزيغ؛ قال -سبحانه-: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان: 32]، وقال -تعالى- مخاطباً نبيه -عليه السلام-: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل: 102]. فَيُثَبِّتُ الله الذين آمنوا على إيمانهم ويزدادون يقيناً بما فيه من الحجج والآيات.

4/ التمسك بشرع الله المستقيم وهدى نبيه صلى الله عليه وسلم القويم، قال تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ

مَا يَشَاءُ) [إبراهيم: 27]. وهذا ما أمرنا باتباعه وعلى ما سار عليه الصحابة -رضي الله عنهم- ولذا قال -تعالى-: (فَبِهْدَاهُمُ اقْتَدِهْ) [الأنعام: 90].

5/ التأمل في قصص الأنبياء وما جرى لهم من أحداث؛ قال تعالى: (وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِ فَؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) [هود: 120]؛ ليزيدك يقيناً وطمأنينةً، وثباتاً بما تسمع من أخبارهم، وما جرى لهم مع قومهم، وما لقوا من الأذى منهم، فتتسلى بهم، وتثبت على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار، وأن العاقبة دوماً للمتقين.

قال البغوي -رحمه الله-: "وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أمهم نقصها عليك لثبّت به فؤادك، ليزيدك يقيناً ونقوي قلبك".

6/ لزوم الدعاء بالثبات، فهو سلاح المؤمن، يدعوه ربه ويسأله الثبات، كقوله -تعالى-: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) [آل عمران: 108].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب) رواه النسائي.

7/ لزوم ذكر الله فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره، وكانت له طمأنينة في القلب وراحة في النفس، والذكر من الوسائل المعينة على الثبات الحسي والمعنوي حتى عند تلاحم الصفوف قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الأنفال: 45].

8/ صحبة الأخيار؛ فهي سبب للثبات، فقد وصى العالم الرجل أن ينطلق إلى أرض قوم يعبدون الله بها بدل أرض السوء قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِئَةً نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بَهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَاَنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ. قَالَ فَتَادَهُ: فَقَالَ الْحَسَنُ ذَكَرْنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ) رواه مسلم.

9/ الأسرة الصالحة وحسن اختيار الزوجة؛ فقد وصى بها النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "فاظفر بذات الدين تربت يداك"؛ فهي تُعين الزوج على أمور دينه، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء" (رواه أبو داود).

10/ التفكير في نعيم الآخرة الباقي الكامل بزهرة الدنيا القليلة الناقصة؛ فالآخرة خير وأبقى وأكمل وأدوم.

الفصل الرابع

لا إله إلا الله هي الكلمة العليا

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد ، وهو قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [التوبة: 40].

لما كانت المباحث المتعلقة بهذه الآية كثيرة وطويلة لم أفعل كما فعلت في المباحث السابقة - لكي لا أطيل على القارئ الكريم والقارئة الكريمة - بل اقتصرت على تفسير موضع الشاهد منها ، وهو قوله تعالى : (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) وهو موضوع الكتاب.

وذلك من خلال ثلاثة مباحث : المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة. ثم بيان أن الكلمة العليا تعلو على القلوب والجوارح، كالتالي:

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

قوله تعالى : (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) هي لا إله إلا الله، و (كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى) وهي الشرك بالله .

قال ابن عاشور : والكلمة : أصلها اللفظة من الكلام ، ثم أطلقت على الأمر والشأن ونحو ذلك من كل ما يتحدث به الناس ويخبر المرء به عن نفسه من شأنه ، قال تعالى : (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الزخرف (28) أي أبقى التبريء من الأصنام والتوحيد لله

شأن عقبه وشعارهم) وقال تعالى (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) البقرة (124)
أي بأشياء من التكاليف كذبح ولده ، واختتانه .

ومنه قولهم : لا تفرق بين كلمة المسلمين ، أي بين أمرهم واتفاقهم ، وجمع الله كلمة المسلمين ، فكلمة الذين كفروا شأهم وكيدهم وما دبروه من أنواع المكر .

ومعنى السفلى الحقيرة لأن السفلى يكنى به عن الحقارة ، وعكسه قوله : **وكلمة الله هي العليا** فهي الدين وشأن رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

قوله تعالى : (وَاللَّهُ عَزِيزٌ) أي لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب، **(حَكِيمٌ)** يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر، اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي معنى الآية جاء الحديث : عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الرَّجُلِ: يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **(مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** متفق عليه.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : كلمة الله عليا على الدوام؛ قال: (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) قال تبارك وتعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) [التوبة: ٣٣]، فالظهور والعلو هنا ل: لا إله إلا الله.

الثانية : قال السعدي رحمه الله تعالى : وقوله وكلمة الله هي العليا أي كلماته القدسية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: وكان حقاً علينا نصر المؤمنين إنا لننصر رسلاً والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وإن جنودنا لهم الغالبون فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

الثالثة : قال الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى : فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن كلمة الكفار كانت في عُلوِّ كالزَّيد، ولكن: لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر؟ أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شيء عال فيجعله أسفل؛ ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمقابل وقال: (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)، فالنسق الأدائي في القرآن كان لا بد أن يتم على أساس؛ لذلك جاء القول: (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)؛ لأن كلمة الله دائماً وأبداً هي العليا، وليست كلمة الله علوياً جعلاً، فهي لم تكن في أي وقت من الأوقات إلا وهي العليا. ولهذا لم يعطفها بالنصب؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هي العليا دائماً وأبداً وأزلاً.

الرابعة : قال في تفسير المنار : (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) المراد بها كلمة التوحيد أو دينه تعالى المبني على أساس توحيده ، والنظر فيها من وجهين :

أحدهما : مضمون الكلمة في الواقع ، وهو وحدانيته تعالى ، وهذه حقيقة قطعية قامت عليها البراهين ، وكذا إن أريد بها هذا الدين عقائده وأحكامه وآدابه إذ يقال : إنه كلمة التكليف أو كلماته - فهذه من حيث كونها من متعلقات صفة الكلام الإلهية لها صفة العليا بيانا وبرهانا وحكمة ورحمة وفضلا ، ولا بد من تمامها صدقا في الأخبار . وعدلا في الأحكام ، كما قال تعالى: (وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الأنعام (115) .

الوجه الثاني : إقامة المكلفين لها بمعنيها ، وهي تختلف باختلاف أحوالهم في العلم والإيمان والأخلاق ، وما يترتب عليها من الأعمال ، فمن هذا الوجه قد تخفى علويتها على الناس في بعض الأحيان ، إذ ينظرون إليها في صفات المدعين لها ، وأعمالهم لا في ذاتها ، وقد يكون هؤلاء غير قائمين بها ، ولا مقيمين لها .

الخامسة : قال في تفسير المنار : ومن عجائب ما روي لنا من إدراك بعض الإفرنج لعلوية كتاب الله تعالى بسعة علمه وعقله أن عاهل الألمان الأخير قال لشيخ الإسلام في الحكومة العثمانية لما زار الآستانة في أثناء الحرب الكبرى : يجب عليكم - وأنتم دولة الخلافة الإسلامية - أن تفسروا هذا القرآن تفسيراً تظهر به علويته كما أدرك هذه العلوية الوليد بن المغيرة من كبراء مشركي قريش بذكائه ودقة فهمه وبلاغته ، إذ كان مما قاله فيه : وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته .

المبحث الثالث

الكلمة العليا تعلق على القلوب والجوارح

قال أحد الباحثين : لفظ الجلالة في كلمة الشهادة (الله) : هو اسم من أسمائه جلّ وعلا، وهو اسمه الأعظم عند قوم، وهو أكثر الأسماء تردداً في القرآن والسنة.

و(الله) هو أكثر الأسماء شهرة وتريداً على ألسنة المخلوقين كلهم بمختلف ألسنتهم.

و(الله) هو الاسم الدال على الذات العظيمة الجامعة لصفات الألوهية والربوبية. وهو اسم له وحده، لا يتعلق به أحد سواه، ولا يُطلق على غيره، ولا يدعيه أحد من خلقه.

و(الله) اسم للرب المعبود المحمود، الذي يمجده الخلق، ويسبحونه، ويمجدونه، وتسبح له السماوات السبع، والأرضون السبع، ومن فيهن، والليل والنهار، والإنس والجن، والبر والبحر، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: 44].

و(الله) هو الرب الذي تأهله القلوب، وتحن إليه النفوس، وتتطلع إليه الأشواق، وتحب وتأنس بذكره وقربه، وتشتاق إليه، وتفتقر إليه المخلوقات كلها في كل لحظة وومضة، وخطرة وفكرة، في أمور الخاصة والعامة، والكبيرة والصغيرة، والحاضرة والمستقبلية، فهو مبدئها ومعيدُها، ومُنشئها وبارئها، وهي تدين له سبحانه وتقر، وتفتقر إليه في كل شؤونها وأمرها، فما من مخلوق إلا ويشعر بأن الله تعالى طوقه منناً ونعماً، وأفاض عليه من آلائه وكرمه وإفضاله وإنعامه الشيء الكثير، فجدير إذاً أن يتوجه قلب الإنسان إلى الله تبارك وتعالى بالحب والتعظيم والحنين.

(الله) عظيم في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وجلاله، ومجده، لا تحيط به العقول، ولا تدركه الأفهام، ولا تصل إلى عظمتها الظنون، فالعقول تحار في عظمتها، وإن كانت تستطيع بما

مُنِحَتْ من الطَّوْقِ والقدرة أن تدرك جانباً من هذه العظمةِ يمنحُها محبةُ الله، والخوفُ منه،
والرجاءُ فيه، والتعبُّدُ له بكلِّ ما تستطيع.

قال الشاعر:

الله في الآفاق آيات لعلَّ أقلها
هو ما إليه هـدَاكَ
ولعل ما في النفس من آياته
عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناك
والكون مشحون بأسرار إذا
حاولت تفسيراً لها أعياناً¹⁸

¹⁸ - وإليك بقية القصيدة وهي قصيدة رائعة في تعظيم الله تعالى:

قل للطبيب تخطفته يد الردى	من يا طبيب بطيِّه أرداك
قل للمريض نجا وعوفي بعدما	عجزت فنون الطب من عافاك
قل للصحيح يموت لا من علة	من بالمنيا يا صحيح دهاك
قل للبصير وكان يحذر حفرة	فهوى بها من ذا الذي أهواك
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام	بلا اصطدام من يقود خطاك
قل للجنين يعيش معزولاً بلا	راعٍ ومرعى ما الذي يرعاك
قل للوليد بكى وأجهش بالبكاء	لدى الولادة ما الذي أبكاك
وإذا ترى الثعبان ينفث سُمّه	فاسأله من ذا بالسموم حشاك
واسأله كيف تعيش يا ثعبان	أو تحيا وهذا السم يملأ فاك
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت	شهداً وقل للشهد من حلاك
بل سائل اللبن المصفى كان بين	دمٍ وفريثٍ من الذي صفاك
وإذا رأيت الحي يخرج من حنايا ميت	فاسأله من يا حي قد أحياك
قل للنبات يجف بعد تعهدٍ	ورعايةٍ من بالجفافِ رماك
وإذا رأيت النبات في الصحراء	يربو وحده فاسأله من أرباك
وإذا رأيت البدر يسري ناشراً	أنواره فاسأله من أسراك
واسأل شعاع الشمس يدنو	وهي أبعد كل شيء ما الذي أدناك
قل للميرير من الثمار من الذي	بالمِر من دون الثمار غذاك
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى	فاسأله من يا نخل شق نواك
وإذا رأيت النار شب لهيبها	فاسأل لهيب النار من أوراك
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً	قمم السحاب فسله من أرساك
وإذا ترى صخراً تفجر بالمياه	فسله من بالماء شق صفاك
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال	سرى فسله من الذي أجراك

(الله) هو الإله المعبود، الذي يُخْلِصُ له المؤمنون قلوبهم، وعبادتهم، وصلاتهم، وحجَّهم، وأنساكهم، وحياتهم، وآخرتهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: 162-163].

روح لا إله إلا الله وسرُّها: إفراؤ الربِّ جلِّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه، وتبارك اسمُه، وتعالى جدُّه، ولا إله غيرُه؛ بالحبَّة، والإجلال، والتعظيم، والخوف، والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل، والإنابة، والرَّغبة، والرَّهبة، فلا يُحِبُّ سواه، بل كلُّ من كان يَحِبُّ غيره فإنما يَحِبُّه تبعاً لمحبتِه، ولأنَّه وسيلةٌ إلى زيادة محبته، ولا يُخَاف ولا يُرْجى سواه، ولا يُتَوَكَّلُ إلَّا عليه، ولا يُرْغَبُ إلَّا إليه، ولا يُرْهَبُ إلَّا منه، ولا يُخْلَفُ إلَّا باسمِه، ولا يُنْذَرُ إلَّا له، ولا يُتَابُ إلَّا إليه، ولا يُطَاعُ إلَّا بأمرِه، ولا يُخْتَسَبُ إلَّا له، ولا يُسْتَعَانُ في الشدائد إلَّا به، ولا يُلْتَجَأُ إلَّا إليه، ولا يُسَجَدُ إلَّا له، ولا يُذْبَحُ إلَّا له وباسمِه، يجتمع ذلك في حرفٍ واحدٍ؛ هو أن لا يُعْبَدَ بجميع أنواع العبادات إلَّا هو.

فهذا هو تحقيقُ شهادة **أن لا إله إلا الله**، ولهذا حرَّم الله على النارِ مَنْ شهد **أن لا إله إلا الله** حقيقةً، ومحالٌّ أن يدخل النارَ مَنْ تحقَّقَ بحقيقة هذه الشهادة، وقامَ بها كما قال تعالى:

طغى فسله من الذي أطفأك	وإذا رأيت البحر بالماء الأجاج
فاسأله من يا ليل حاك دجائك	وإذا رأيت الليل يغشى داجياً
فاسأله من يا صبح صاغ ضحكأك	وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحكاً
عجب عجاب لو ترى عينأك	ستجيب ما في الكون من آياته
حمداً وليس لواحد إلّاك	ربي لك الحمد العظيم لذاتك
لا تدري له ولكنه إدراك	يا مدرك الأبصار والأبصار
في كل شيء أستبين علاك	إن لم تكن عيني تراك فإنني
ما خاب يوماً من دعا ورجاك	يا مُنبِت الأزهار عاطرة الشذى
ما خاب يوماً من دعا ورجاك	يا مجري الأنهار عاذبة الندى
با لله جل جلاله أغراك	يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [سورة المعارج: 33]. فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره، وفي قلبه وقالبه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيوها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى؛ فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدرّي، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف؛ ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة؛ علماً وعملاً، ومعرفةً وحالاً.

وكَلَّمَا عَظُم نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ واشتدَّ، أحرَقَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا وَصَلَ إِلَى حَالٍ لَا يُصَادِفُ مَعَهَا شُبُهَةً وَلَا شَهْوَةً وَلَا ذَنْبًا، إِلَّا أَحْرَقَهُ، وَهَذَا حَالُ الصَّادِقِ فِي تَوْحِيدِهِ، الَّذِي لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا).

وقال ابن حجر الهيتمي في شرح حديث: (من لَقِيَني بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بي شَيْئًا، لَقِيَتْهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً) : (إنَّ الْإِيْمَانَ شَرْطٌ فِي مَغْفِرَةِ مَا عَدَا الشِّرْكَ؛ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ قَبُولُ الطَّاعَةِ وَغُفْرَانُ الْمَعْصِيَةِ، وَأَمَّا الشِّرْكَ فَلَا أَصْلَ يَنْبَنِي عَلَيْهِ ذَلِكَ: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) [الفرقان: 23] فَالسَّبَبُ الْأَعْظَمُ لِلْمَغْفِرَةِ هُوَ التَّوْحِيدُ، فَمَنْ فَقَدَهُ فَقَدَهَا، وَمَنْ أَتَى بِهِ وَلَوْ وَحْدَهُ بَأَن لَمْ يَكُنْ لَهُ عَمَلٌ خَيْرٌ غَيْرُهُ؛ فَقَدْ أَتَى بِأَعْظَمِ أَسْبَابِهَا، لَكِنَّهُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، وَعَلَى كُلِّ فَمَالِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَمَّا مَنْ كَمَلَ تَوْحِيدُهُ وَإِخْلَاصُهُ، وَقَامَ بِشَرَائِطِهِ وَأَحْكَامِهِ؛ فَإِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا لِتَحِلَّةِ الْقَسَمِ).

الفصل الخامس

لا إله إلا الله هي كلمة الإحسان

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد: وهو قوله تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) الرحمن (60) .

وحديثنا حول الآية سيكون في ثلاثة مباحث: المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة ، ثم بيان ثمرات الإحسان في الواقع ونماذج من التاريخ.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

الإحسان : في اللغة ضدّ الإساءة، وهو مصدر حُماسي من الفعل أَحْسَنَ، ويعني الإجادة والإتقان والإخلاص، وتتسع دائرته لتشمل الأعمال الدنيوية والدينية وتضمّ العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات.

للمفسرين فيها أقول كثيرة ، أقربها إلى موافقة السياق خمسة أقوال¹⁹:

أحدها: هل جزاء الطاعة إلا الثواب.

الثاني: هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة ، قاله ابن زيد.

¹⁹ - فائدة: قال الرازي: قوله تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) وفيه وجوه كثيرة حتى قيل : إن في القرآن ثلاث آيات في كل آية منها مائة قول .

الأولى : قوله تعالى : (فاذكروني أذكركم) [البقرة : 152] .

الثانية : قوله تعالى : (وإن عدتم عدنا) [الإسراء : 8] .

الثالثة : قوله تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ).

الثالث: هل جزاء من شهد أن لا إله إلا الله إلا الجنة ، قال ابن عباس : (ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة) .

الرابع: هل جزاء التوبة إلا المغفرة ، قاله جعفر بن محمد الصادق.

الخامس : هل جزاء إحسان الله عليكم إلا طاعتكم له. قاله الماوردي.

قال السعدي : قوله تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال الرازي : ترجع الأقوال - آفة الذكر - كلها إلى معنى واحد وهو جزاء كل من أحسن إلى غيره أن يُحسَّن هو إليه أيضاً ولنذكر تحقيق القول فيه ، فنقول : الإحسان يستعمل في ثلاث معان :

أحدها : إثبات الحسن وإيجاده قال تعالى : (فأحسن صوركم) [غافر : 64] وقال تعالى : (الذي أحسن كل شيء خلقه) [السجدة : 7] .

ثانيها : الإتيان بالحسن كالإطراف والإغراب للإتيان بالظريف والغريب قال تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) [الأنعام : 160] .

ثالثها : يقال : فلان لا يحسن الكتابة ولا يحسن الفاتحة أي لا يعلمهما ، والظاهر أن الأصل في الإحسان الوجهان الأولان ، والثالث مأخوذ منهما .

الثانية : قال الرازي : ثم فيه لطائف :

اللطيفة الأولى : هذه الآية تدل على أن العبد محكم في الآخرة كما قال تعالى : (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) وذلك لأننا بينا أن الإحسان هو الإتيان بما هو حسن عند من أتى بالإحسان ، لكن الله لما طلب منا العبادة طلب كما أراد ، فأتى به المؤمن كما طلب منه ، فصار محسناً فهذا يقتضي أن يحسن الله إلى عبده ويأتي بما هو حسن عنده ، وهو ما يطلبه كما يريد فكأنه قال : (هل جزاء الإحسان) أي هل جزاء من أتى بما طلبته منه على حسب إرادتي إلا أن يؤتى بما طلبه مني على حسب إرادته .

اللطفية الثانية : هذه الآية تدل على أن كل ما يفرضه الإنسان من أنواع الإحسان من الله تعالى فهو دون الإحسان الذي وعد الله تعالى به لأن الكريم إذا قال للفقير : افعل كذا ولك كذا دينارا ، وقال لغيره افعل كذا على أن أحسن إليك يكون رجاء من لم يعين له أجرا أكثر من رجاء من عين له ، هذا إذا كان الكريم في غاية الكرم ونهاية الغنى ، إذا ثبت هذا فالله تعالى قال : جزاء من أحسن إلي أن أحسن إليه بما يغبط به ، وأوصل إليه فوق ما يشتهي ، فالذي يعطي الله فوق ما يرجوه وذلك على وفق كرمه وإفضاله .

الثالثة: إن الإحسان دليل على النبل، واعتراف بالفضل، وعرفان بالجميل، وقيام بالواجب، واحترام للمنعم، ينبئ عن الصفاء، وينطق بالوفاء، ويترجم عن السخاء؛ بالإحسان يشتري الحب، ويخطب الودّ، ويكسب النفوس، ويهيمن على القلوب، وتستعبد الأفئدة .. الإحسان عطاء بلا حدود، وبذل بلا تردد، وإنعام دونما منّ، وإكرام لا يلحقه أذى.

الرابعة : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)، فالجزء دوما من جنس العمل، والحصاد من جنس البذرة، فاعمل ما شئت فكما تدين تدان!! بل الجزء دوما أفضل، لأنك إذا أعنت أخاك كان الله في عونك، وإذا كان الله في عونك كان الجزء أكبر من العمل، بل إن البون شاسع، والفرق كبير بين إحسان وإحسان، فماذا تساوي قطرة من إحسان منك، مع بحور الفضل وأنهار الإحسان وقنوات العطاء منه جل وعلا، بل إحسانك ما هو إلا من إحسانه إليك ولطفه بك أن هداك لذلك، فهو المحسن دوما الغفور الودود.

الخامسة : إن اليقين بهذه القاعدة (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) يمنح وقودا إيمانيا عجيبا لمن سلك سبيل الله تعالى، فإذا ما واجه عقبات أو منغصات أو اضطهاد أو ظلم أو استضعاف، يحثه هذا اليقين على الصبر والثبات، وثوقا بموعود الله الذي يمهّل ولا يهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

السادسة : كل أصول وفروع المعاشرة وآدابها، وكل قوانين التعامل ترجع إلى الإحسان، فهو يشمل محيط الحياة كلها في علاقة العبد بربه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه، وعلاقته بالبشرية جميعاً، بل وعلاقته بسائر المخلوقات.

السابعة : المحسن محبوب من المخلوقين، ومحبوب من الخالق، ولذلك كانت منزلة المحسنين عند الله تعالى عظيمة، ومرتبتهم كبيرة، ودرجاتهم عالية، قال تعالى: **(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)**.

كان بعض السلف يدور على المجالس ويقول: (من أحب أن تدوم له العافية فليثق الله).
وقال العمري الزاهد: (كما تحب أن يكون الله لك، فهكذا كن لله عز وجل)²⁰.

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: قال داود عليه السلام: إلهي كُنْ لابني سليمان من بعدي كم كنت لي. فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، قل لابنك سليمان يكون لي مثلما كنت لي - أي في الطاعة والعبادة - أَكُنْ له كما كنت لك (أي في الحفظ والرعاية والعناية).

الثامنة : ما من قلب مؤمن يستوعب معنى هذه الآية **(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)** حتى يطمئن قلبه لوعده الله في الدنيا والآخرة.

²⁰ - الفوائد من الثالثة إلى السابعة مأخوذة من مقال بعنوان: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان - للدكتور خالد سعد النجار - موقع إسلام ويب.

المبحث الثالث

ثمرات الإحسان في الواقع ونماذج من التاريخ

إحسان الإنسان فيما يناط إليه من مهام في الحياة لا بد أن يجد أثره في النتائج الجيدة التي يحصدها من عمله. لذلك فالعقل من يفهم أن أصل النجاح في الحياة هو «الإحسان»، وأن الله تعالى يقول (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا).

ويمكننا أن نبرهن على ذلك من خلال النقاط الآتية :

أولاً : قول الله تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) يحمل دلالة على معنى العدل، وعدل الله مطلق، فهو في كل الأحوال لا يضيع أجر المحسنين: (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)، وأنت لا تدري أين ستجد جزاء إحسانك، لكنه في كل الأحوال مضمون، فإن لم تجده في شيء ترجوه كنت تظن أنه نافع لك، فقد تجده في شيء آخر لا تتوقعه ويكون أحسن لك وأنفع.. المهم في كل الأحوال أن يتعلم الإنسان الدرس ويجازي إحسان الغير بإحسان مقابل، حتى لا يشح معنى الإحسان في الحياة، ذلك جانب من جوانب العدل التي يجب أن يستوعبها بنو آدم.

ثانياً : ربط الخالق العظيم بين العدل والإحسان في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)، وهي آية يسمعها المسلمون في كل خطبة جمعة، ويحفظها أغلبهم عن ظهر قلب، فإلى أي حد تؤثر بعد ذلك في سلوكهم.

ربط الله تعالى أيضاً معنى الإحسان ومسألة التعامل بين البشر في الآية التي تقول: «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم». فالتعامل الحسن بين البشر

يؤدي إلى العيش في سلام ومحبة وهدوء وسكينة. والإحسان مع المسيء وسيلة راقية لتهديب سلوكياته²¹.

ثالثاً : مَنْ يُؤدِّي فوق ما عليه مِنْ واجب بغية الإحسان والإتقان ويقنع بأقلِّ مِنْ حقِّه راضياً مُساعِماً.. هذا هو المُحسن الذي يُؤسِّس لمجتمع الخير والرخاء، ويُقيم دولةَ البذل والعطاء، ويشتري الحُبَّ ويخطب الودَّ ويستعبد القلوب.

فهو في العبادات أحسن الدِّين (وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وأعلى المراتب بعد الإسلام الذي يُجسِّد أعمالَ الجوارح الظاهرة والإيمان الذي يُمثِّل أعمالَ القلوب الباطنة، وأربابُه هم السابقون المُقربون، وفيه تُجود وتُتقن الإسلام والإيمان معا.

رابعاً : عليك أيها المسلم أن تعبد الله كأنك تراه أو كأنه يراك كما ورد في الحديث الشريف الذي صنَّف الإحسانَ إلى درجتين؛ درجة المُشاهدة وفيها تعبد الله كأنك تراه وهي الأسمى والأعلى وتكون الرؤية قلبيةً وذهنيةً لا عينيةً وبها تصل إلى مقام العارفين، ودرجة المُراقبة وفيها تعبد الله وأنت تعلم وتشعر بأنه يراك وهي مقام المخلصين، وفي كليهما يتجلى الخشوع والخضوع الذي يؤدي إلى حضور الظاهر والباطن ويثمر تمام العبادة وكمالها، كما يستوي فيهما السرّ والظهر وتتطابق الخلوة مع الجلوة وتكون الاستقامة على أقوم نُهج وأصلح طريق، إلّا أنّ الوصول لتلك المرتبة يتطلب جهداً ومثابرة واستعانة وتوكُّلاً، وعندها تُقْبَلُ بأنَّ مَنْ أدام الطُّرُقَ فُتِحَ له الباب وَمَنْ جَدَّ في السعي وصل ولو بعد عناء وَمَنْ زرع الحُبَّ لا شكَّ يَجني البُرَّ.

²¹ - النقاط (أولاً وثانياً) مأخوذة من مقال : هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ -الدكتور محمود خليل - موقع التنوير.

خامساً : إِنَّ الإحسان في المعاملات يتعدى الجُود بالدرهم والدينار على فقيرٍ جائعٍ أو مسكينٍ بئس كما هو شائع ومعروف بين الناس.

ففي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إحسان.

وفي قضاء حوائج الناس وتفريج كُرْبهم إحسان.

وفي تعليم العلم النافع إحسان.

وفي تشييع الجنائز وعيادة المرضى إحسان.

وفي إرشاد الضالّ والشفاعة بالجاه لردّ الحقوق إحسان.

وفي الكلمة الطيبة والبسمة الرقيقة إحسان.

وفي حُسن تبعل المرأة لزوجها وتنشئة أطفالها إحسان.

وقس على ذلك كلّ كبيرة وصغيرة في مناحي الحياة، وهو ما جاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام (مسلم) في صحيحه عن (أي يعلى شداد بن أوس) عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (إِنَّ الله كتب الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِخْ ذِيحَتَهُ)، والقتل والذبح هنا ليسا إلا مثالين للتقريب والإفهام ومن قبيل الجزء الذي يُراد به الكلّ.

سادساً : أجمل الإحسان هو ما حلَّ محلّه وأصاب موضعه على حدّ قول (المنفلوطي) في نظراته؛ فقد لزم التنويه على أنّ مجال الإحسان لا يقتصر على مَنْ أحسن إلينا وأسدَى إلينا معروفاً، بل هو أجمل في حقّ مَنْ أساء إلينا وأخطأ في حقِّنا بناء على القاعدة القرآنية: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) فصلت (34) .

سابعاً : الإحسان يكون للقريب والبعيد كما ورد في آية الحقوق العشرة في سورة النساء "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم"، هذا دون هضم أنفسنا وذواتنا حقها الأصيل في الإحسان بدنياً ونفسياً وعقلياً وروحياً لتكتمل بها أبعاد الإحسان العمودية (مع الله) والأفقية (مع سائر المخلوقات).

وفي هذا نجد أنّ الناس في تعاملاتهم أصناف ثلاث:

- فمنهم من يأخذ حقه ويؤدّي واجبه دون زيادة أو نقصان وهذا هو المُقسط العادل.
- ومنهم من يحرص على أن يأخذ أكثر من حقه بينما يسعى جاهداً للانتقاص من حقوق الآخرين وهؤلاء هم المُطّفّفون.
- ومنهم من يؤدّي فوق ما عليه من واجب بغية الإحسان والإتقان ويقنع بأقلّ من حقه راضياً مُسامحاً.. وهذا هو المُحسن الذي يؤسّس لمجتمع الخير والرخاء، ويُقيم دولة البذل والعطاء، ويشتري الحبّ ويخطب الودّ ويستعبد القلوب على حدّ تعبير الشاعر (أبو الفتح البستي) في قصيدته (عنوان الحكم) التي قال فيها:

أَحْسِنِ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمْ لَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ

ثامناً : من مواقف إحسانية راقية لأناس عايشوهم وشهدوا لهم بالإحسان: زوجة علّقها زوجها إحدى وعشرين عاماً قبل أن يُطْلَقَها بمقابل ولكنّه عند وفاته حضرت للتعزية وأشهدت الجميع أنّها قد سامحته وعفّت عنه.

تاسعاً : المدوّنة التاريخية لم تخلُ يوماً من أكابر المحسنين الذين تركوا بصمات من إحسان في محيطهم الأسري والاجتماعي والدولي والإنساني، تارة بالعلم والمال، وتارة بالجدّ والجاه ، وتارة بالأخلاق والسلوك.

فسيدنا يوسف عليه السلام من أكابر المحسنين حيث أنقذ قوماً استرقّوه وسجنوه وأحسن إلى إخوة ساءوه في بدنه ونفسه وأهله

وسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أكابر المحسنين حيث وضع حياته وما يملك رهينة في كف الصُحبة النبوية ووديعه في يمين الإسلام.

وسيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه من أكابر المحسنين حيث حقن الدماء وأصلح بين المتخاصمين وتنازل عن حقه في خلافة المسلمين.

والإمام البخاري رحمه الله من أكابر المحسنين حيث أخذ على عاتقه تمحيص الحديث ونخل الصحيح من الضعيف.

والقائد سيف الدين قطز أيضاً من أكابر المحسنين حيث دحر التتار وحَمَى بيضة الإسلام، وغيرهم كثير وكثير.

وهذا تاجرٌ كان دائم الإحسان إلى عُمَّاله ولما تُوفي شيعوه بأسى وأسف ثم توجه خمسة وعشرون منهم إلى الحرم واعتمرُوا تطوعاً عنه ليلقى جزاء إحسانه إحسانات تُؤنسه في أول ليلة في قبره²².

²² - النقاط (ثالثاً - تاسعاً) مأخوذة من مقال : الإحسان.. الفضيلة الغائبة – للدكتور منير لطفي - موقع الجزيرة - بتصرف.

الفصل السادس

لا إله إلا الله هي الكلمة الحسنة

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد ، وهو قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) [النمل: 89] .

وحديثنا حول الآية سيكون في ثلاثة مباحث : المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة ، والخيرات المترتبة على هذه الحسنة في الدنيا .

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)

قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ) المراد بالحسنة فيها قولان:

الأول: قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما : الحسنة لا إله إلا الله.

وكان إبراهيم النخعي يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ولا يستثني أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَوْصِنِي، قَالَ: (اتَّقِ اللَّهَ، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاتَّبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَمِنَ الْحَسَنَاتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْحَسَنَاتِ. وَفِي رِوَايَةٍ: هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ. وَفِي رِوَايَةٍ: (نَعَمْ، هِيَ أَحْسَنُ الْحَسَنَاتِ). رواه الإمام أحمد في المسند وفي الزهد، وحسنه الأرناؤوط، والألباني.

قال الرازي رحمه الله تعالى : الحسنة لفظة مفردة معرفة ، وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحقيقها حصول فرد ، وإذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأنًا وأعلالها درجة وهو الإيمان .

الثاني : أداء الفرائض كلها.

الثالث : الحسنة مطلقاً. يدخل فيها معرفة الله تعالى والإخلاص في الطاعات .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها؛ فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض.

قوله تعالى : (فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) فيها أربعة أقوال :

أحدها : أن ثواب المعرفة النظرية الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى ، وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة ، .

ثانيها : أن الثواب خير من العمل من حيث إن الثواب دائم والعمل منقضي ؛ ولأن العمل فعل العبد ، والثواب فعل الله تعالى .

ثالثها : (فله خير منها) أي له خير حاصل من جهتها وهو الجنة .

رابعها : يرجع هذا إلى الإضعاف فإن الله تعالى يعطيه بالواحدة عشراً؛ وبالإيمان في مدة يسيرة الثواب الأبدي.

قوله تعالى : (وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) أي أنهم آمنون من كل فرع ، لا كما قال بعضهم: إن أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر .

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال في أول الآية : (ففزع من في السماوات ومن في الأرض) فكيف نفى الفرع وهنا ؟

جوابه : أن الفرع الأول هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس لشدة تقاع ، وهو يفجأ من رعب وهيبة ، وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه ، كما قيل : يدخل الرجل بصدر

هَيَّابٌ وَقَلْبٌ وَجَّابٌ ، وَإِنْ كَانَتْ سَاعَةٌ إِعْزَازٍ وَتَكْرِمَةٍ . وَجَبَ الْقَلْبُ : حَقَّقَ ، إِضْطَرَّبَ ، رَجَفَ .

وَمُفَسِّرُ بَعْضِهِمْ : الْفَرْعُ بِالْفَرْعِ الْحَاصِلُ مِنْ مَشَاهِدَةِ الْعَذَابِ بَعْدَ تَمَامِ الْمَحَاسِبَةِ وَظُهُورِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ وَهُوَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَا يَخْزُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ) .

وَأَمَّا الْفَرْعُ الثَّانِي : فَالْخَوْفُ مِنَ الْعَذَابِ . وَأَمَّا مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْهَيْبَةِ وَالرَّعْبِ عِنْدَ مَشَاهِدَةِ الْأَهْوَالِ فَلَا يَنْفَكُ مِنْهُ أَحَدٌ ، وَفِي الْأَخْبَارِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ .

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال ابن رجب في تفسيره : قال ابن عيينة : (لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا) ، وكذلك ترغمهم بالقرآن وسماعهم له ، وأعلاه : سماعه من الله جل جلاله وتقدسست أسماؤه ، فأين هذا من تلاوة أهل الدنيا وذكرهم ؟ وأما سائر العبادات : فما كان منها فيه مشقة على الأبدان فإن أهل الجنة قد أسقط ذلك عنهم ؛ وكذلك ما فيه نوع ذل وخضوع كالسجود ونحوه .

وأما ما في العبادات من النعيم الحاصل بها لأهل المعرفة في الدنيا ، فإنه يحصل في الجنة أضعافا مع راحة البدن من مشقة التكليف التي في الدنيا فتجتمع لهم راحة القلب والبدن على أكمل الوجوه .

وهذا مثل الصلاة ، فإن العارفين في الدنيا إنما يتنعمون بما فيها من المناجاة وآثار القرب ، وما يرد عليهم من الواردات في تلاوة الكتاب ونحو ذلك من نعيم القلوب ، وربما يستغرقون به عن الشعور بتعب الأبدان فهذا القدر الذي حصل لهم به التمتع في الدنيا يتزايد في الجنة بلا ريب .

الثانية : قال في الأضواء : قال الله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) اعلم : أن الحسنة في هذه الآية الكريمة تشمل نوعين من الحسنات :

الأول : حسنة هي فعل خير من أفعال العبد ، كالإنفاق في سبيل الله ، وبذل النفس والمال في إعلاء كلمة الله ، ونحو ذلك ، ومعنى قوله تعالى : (فله خير منها) ، بالنسبة إلى هذا النوع من الحسنات ، أن الثواب مضاعف ، فهو خير من نفس العمل ؛ لأن من أنفق درهما واحدا في سبيل الله فأعطاه الله ثوابا هو سبعمائة درهم فله عند الله ثواب هو سبعمائة درهم مثلا ، خير من الحسنة التي قدمها التي هي إنفاق درهم واحد ، وهذا لا إشكال فيه كما ترى .

وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) [الأنعام 160] ، ومعلوم أن عشر أمثال الحسنة خير منها هي وحدها ؛ وكقوله تعالى : (وإن تك حسنة يضاعفها) [النساء: 40] .

وقوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) [البقرة : 261] .

وأما النوع الثاني من الحسنة : فكقول من قال من أهل العلم : إن المراد بالحسنة في هذه الآية : لا إله إلا الله ، ولا يوجد شيء خير من لا إله إلا الله ، بل هي أساس الخير كله ، والذي يظهر على هذا المعنى أن لفظة خير ليست صيغة تفضيل؛ وأن المعنى : فله خير عظيم عند الله حاصل له منها ، أي : من قبلها ومن أجلها.

الثالثة : قال ابن عجيبة : من أراد أن يكون ممن استثنى الله من الفزع والهول، فليكن قلبه معموراً بالله، ليس فيه غير مولاه، ولا مقصود له في الدارين إلا الله، وظاهره معموراً بطاعة الله، متمسكاً بسنة رسول الله، هواه تابع لما جاء به من عند الله، لا شهوة له إلا ما يقضي عليه مولاه، فبهذا ينخرط في سلك أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين سبقت لهم الحسنى، (لَا يَخْزُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ)، وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون. جعلنا الله من خواصهم، بمنه وكرمه، آمين.

الرابعة : قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى : قال الله تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها: فكما أن الآيات الكونية التي أخبر بها الحق . تبارك وتعالى . حقيقة واقعة، وتأكدت أنت من صدقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك، فكما أخبرناك بهذه الآيات تُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغي أن تصدقها، وأن تأخذ من صدق ما شاهدت دليلاً على صدق ما غاب عنك، فربُّك يُخبرك بأنه (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا).

المبحث الثالث

الخبرات المترتبة على هذه الكلمة الحسنة في الدنيا²³

إن التوحيد الخالص من شوائب الشرك إذا تحقق في حياة فرد، أو قامت عليه حياة أمة، أتى أينع الثمرات، وحقق أنفع الآثار في الحياة، ومن ثمرات التوحيد وآثاره:

(أ) تحرير الإنسان:

فالشرك بكل صوره ومظاهره ليس إلا امتهاناً للإنسان، وإذلالاً له؛ حيث يلزمه الخضوع لمخلوقات والعبودية لأشياء أو أناس لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

أما التوحيد فهو في الواقع تحرير للإنسان من كل عبودية إلا لربه الذي خلقه فسواه، وتحرير لعقله من الخرافات والأوهام، وتحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام، وتحرير لحياته من تسلط الفراعنة والأرباب والمتألهين على عباد الله.

ولهذا قاوم زعماء الشرك وطغاة الجاهلية دعوات الأنبياء عامة، ودعوة الرسول خاصة؛ لأنهم كانوا يعلمون أن معنى "لا إله إلا الله": إعلان عام لتحرير البشر، وإسقاط لكل الجبابرة من عروش تألههم الكاذب، وإعلاء لجباه المؤمنين؛ فلا تطأطئ إلا ساجدة لله رب العالمين.

(ب) تكوين الشخصية المتزنة:

والتوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة التي تميزت في الحياة وجهتها، وتوحدت غايتها، وتحدد طريقها، فليس لها إلا إله واحد تتجه إليه في الخلوة والجلوة، وتدعوه في السراء والضراء، وتعمل على ما يرضيه في الصغيرة والكبيرة.

²³ - من مقال: آثار توحيد الله في الحياة - د. يوسف القرضاوي - الموقع الرسمي للقرضاوي.

بخلاف المشرك الذي تقسمت قبله الآلهة، وتوزعت حياته المعبودات، فحينما يتجه إلى الله، وأحياناً إلى الأصنام، وحيناً إلى هذا الصنم، وحيناً إلى ذاك.

ومن هنا قال يوسف عليه السلام: (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (يوسف: 39)، وقال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) (الزمر: 29)، فمثل المؤمن بعبد له سيد واحد عرف ما يرضيه وما يسخطه، فوقف عند ما يرضيه واستراح إليه، ومثل المشرك بعبد له أكثر من سيد، هذا يوجهه إلى الشرق، وذاك إلى الغرب، وهذا يأخذه إلى اليمين، وآخر إلى اليسار، فهم شركاء متشاكسون، وهو بينهم مشتت موزع، لا ثبات له ولا قرار.

(ج) التوحيد مصدر لأمن النفس:

والتوحيد يملأ نفس صاحبه أمناً وطمأنينة، فلا تستبد به المخاوف التي تتسلط على أهل الشرك، فقد سد منافذ الخوف التي يفتحها الناس على أنفسهم؛ الخوف على الرزق، والخوف على الأجل، والخوف على النفس، والخوف على الأهل والأولاد، والخوف من الإنس، والخوف من الجن، والخوف من الموت، والخوف مما بعد الموت.

أما المؤمن الموحد فلا يخاف شيئاً ولا أحداً إلا الله، ولهذا تراه آمناً إذا خاف الناس، مطمئناً إذا قلق الناس، هادئاً إذا اضطرب الناس، وفي هذا يذكر القرآن حوار إبراهيم مع قومه المشركين حين خوفوه بأصنامهم وآلهتهم الزائفة، فرد عليهم متعجباً ومعجباً بقوله: (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الأنعام: 81)، ثم بين سبحانه وتعالى من يستحق الأمن من الفريقين فقال: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ (أي: بشرك) أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ) (الأنعام: 82)، وهذا الأمن ينبع من داخل النفس لا من حراسة الشرطة... وهذا أمن الدنيا، وأما أمن الآخرة فهو أعظم وأبقى؛ لأنهم أخلصوا لله، ولم يخلطوا بتوحيدهم بشرك.

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: **لما نزلت: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} قلنا: يا رسول الله، أين لا يظلم نفسه؟، قال: ليس كما تقولون، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، فمعنى {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}: أنهم أخلصوا دينهم لله، فلم يشوبوا توحيدهم بشرك.**

(د) التوحيد مصدر لقوة النفس:

والتوحيد يمنح صاحبه قوة نفسية هائلة؛ لما تمتلئ به نفسه من الرجاء في الله، والثقة به، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والاستغناء عن خلقه، فهو راسخ كالجبل، لا تزعزعه الحوادث، ولا تزعزعه الكوارث.

كلما ألت به نازلة، أو حلت بساحته شدة، رفض اللجوء إلى الخلق، واتجه بقلبه إلى الخالق، إياه يسأل، ومنه يستمد، وعليه يعتمد، لا يرجو غيره في كشف الضر وجلب الخير، ولا يمد يده إلى أحد إلا الله ضارعا داعيا منيبا إليه.

شعاره قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: **(إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)** رواه أحمد والترمذي، وقوله تعالى: **(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)** (يونس: 107).

ألا ترى أن هودا عليه السلام حين خوّفه قومه بكيد الأصنام له قال: **(إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** (هود: 54-56)، منطق قوي يعبر عن نفس واثقة وعزيمة صلبة، وإيمان لا يهون ولا يستكين، وروح لا تعرف الضعف ولا الخوف؛ لأنها تستمد قوتها من التوكل على الله **(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ** عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال: 49).

(هـ) التوحيد أساس الإخاء والمساواة:

وإذا كان التوحيد يعد أساساً لحرية الإنسان وإشعاره بعزته وكرامته، فهو أساس أيضاً لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية؛ لأن الأخوة والمساواة لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أرباباً لبعض، فأما إذا كانوا كلهم عباد الله، فهذا هو أصل المساواة والإخاء بين الناس، ولهذا كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض ورؤساء الدول تختتم بهذه الآية الكريمة: (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ) (آل عمران: 64).

وكان من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم عقب الصلوات هذا الدعاء الرائع العظيم: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ الرَّبُّ، وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، اجْعَلْنِي مُخْلِصًا لَكَ وَأَهْلِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ اسْمِعْ وَاسْتَجِبْ، اللَّهُ الْأَكْبَرُ الْأَكْبَرُ، اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، اللَّهُ الْأَكْبَرُ الْأَكْبَرُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، اللَّهُ الْأَكْبَرُ الْأَكْبَرُ) رواه أحمد وأبو داود والنسائي في السنن الكبرى.

ورحم الله القائل :

يا من له الخلق ثم الأمر يا صمد	لولاك لم تخرج الدنيا من العدم
يا واحداً ليس لي رب سواه ولا	ندّ له يدعى كالجَنِّ والصنم
يا من ألوذ به عما أحاذره	يا من أنادِ اسمه في السلم والنِّقم
يا من أمدّ له في كلّ معضلة	يد الضراعة في الإصباح والظلم
يا من يجير ولا يرضى بمظلمة	ويكشف الظلم عمّن بات بالآلم

يا كاشف الكرب يا نصراً لناصره
يا مسبغ الفضل من عفوٍ ومن نعم
سألتك الله قصراً لا نظير له
في جنة الخلد أعلى عالي القمم
الجار أحمد والأصحاب رفقته
يا ربّ يا مولاي يا واسع الكرم

الفصل السابع

لا إله إلا الله هي كلمة التزكية

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في ثلاثة مواضع ، وهي :

قوله تعالى : (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى) [النازعات: 18]. وقوله تعالى: (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) [طه: 76]. وقال الله تعالى : (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) [فصلت: 6-7] .

وحديثنا حول الآيات سيكون في ثلاثة مباحث : بيان المعنى الإجمالي للآيات الكريمة، والوقفات التدبرية التي تحتويها ثم أهمية تزكية النفس وكيف يزكي المسلم نفسه .

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآيات الكريمة

مفهوم التزكية في المواضع الثلاثة: فيها خمسة أقوال :

القول الأول : قال الطبري رحمه الله تعالى : قال ابن زيد في قوله: (هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى) قال: إلى أن تُسلم. قال: والتزكي في القرآن كله: الإسلام، وقرأ قول الله: (وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) قال: من أسلم، وقرأ (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى) قال: يسلم، وقرأ (وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَكِّي) ألا يسلم.

وقال ابن عرفة رحمه الله تعالى في تفسيره: (وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) تطهر من الشرك بقول لا إله إلا الله.

قال الآلوسي رحمه الله تعالى : وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس أنه قال : في ذلك أي لا يقولون لا إله إلا الله ، وكذا الحكيم الترمذي . وغيره عن عكرمة فالمعنى حينئذ لا يطهرون أنفسهم من الشرك.

واختار ذلك الطيبي رحمه الله تعالى ثم قال : والمعنى فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة له تعالى وتوبوا إليه سبحانه مما سبق لكم من الشرك وويل لكم إن لم تفعلوا ذلك كله فوضع موضعه منع إيتاء الزكاة ليؤذن بأن الاستقامة على التوحيد وإخلاص العمل لله تعالى والتبري عن الشرك هو تركية النفس ، وهو أوفق لتأليف النظم ، وما ذهب إليه حبر الأمة إلا لمراعاة النظم.

القول الثاني : قال ابن كثير رحمه الله تعالى : أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، واتبع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

القول الثالث : قال الطبري رحمه الله تعالى : وقوله (وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) يقول: وهذه الدرجات العلى التي هي جنات عدن على ما وصف جلّ جلاله ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يندس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه.

القول الرابع : (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) لا يؤمنون بالزكاة ولا يقرون بها، قاله الحسن، وقتادة.

القول الخامس : (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) لا يتصدقون، ولا ينفقون في الطاعات، قاله الضحاك، ومقاتل.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآيات الكريمة

الأولى : قال الرازي : قوله تعالى : (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى) : يقال : هل لك في كذا، وهل لك إلى كذا، كما تقول : هل ترغب فيه؟ وهل ترغب إليه؟ قال الواحدي : المبتدأ محذوف في اللفظ مراد في المعنى، والتقدير : هل لك إلى أن تزكى حاجة أو إربة؟ .

الثانية : قال الرازي : إن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله .

وذلك لأن الموجودات ، إما الخالق وإما الخلق :

فأما الخالق : فكمال السعادة في المعاملة معه أن يقر بكونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة، ثم يأتي بأفعال دالة على كونه في نهاية العظمة في اعتقادنا وهذا هو المراد من التعظيم لأمر الله.

وأما الخلق : فكمال السعادة في المعاملة معهم أن يسعى في دفع الشر عنهم وفي إيصال الخير إليهم ، وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله ، فثبت أن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله ، وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحدا وإذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها ، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال ؛ لأنه ضد الشفقة على خلق الله.

الثالثة : قال الرازي : (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) تضمنت الآية أن الويل لمن اتصف بصفات ثلاثة: **الشرك** الذي هو ضد التعظيم لأمر الله، **والامتناع من الزكاة** الذي هو ضد الشفقة على خلق الله **وإنكار القيامة** المؤدي إلى الاستغراق فيما أبغض الله في طلب الدنيا ولذاتها وهو من الاستهانة بأمر الله.

المبحث الثالث

أهمية تزكية النفس وكيف يزكي المسلم نفسه²⁴

أولاً : أهمية تزكية النفس :

الوجه الأول : إن تزكية النفس مهمة للإنسان جداً، وتأتي أهميتها من عدة أوجه: الوجه الأول، أن الله سبحانه وتعالى أقسم في كتابه أحد عشر قسماً على فلاح من زكى نفسه، وعلى خسران من أهمل ذلك . ولكنه أقسم للتأكيد أحد عشر قسماً على للوصول إلى النتيجة وهي قوله: (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) [الشمس: ٩ - ١٠].

ومعنى قوله تعالى : (قد أفلح من زكاها) [الشمس: ٩] الفلاح فلاح الحال في الدنيا والآخرة، (من زكاها) أي: من زكى نفسه، وهذا يدلنا على أهمية هذه التزكية.

الوجه الثاني من أوجه أهمية التزكية: أن الإنسان محب للكمال، وهو قد بدء بالضعف عند النشأة الأولى، ثم لا يزال يتدرج في الازدياد حتى يصير إلى حد الكمال فيبدأ حينئذ بالنقص والتراجع، وعلى هذا فحرص الإنسان على الكمال، مقتض منه للحرص على التربية، **والتربية ثلاثة أقسام:**

الأول: التربية البدنية، وتشمل الوقاية من الأمراض والحرص على النظافة وتشمل العلاج من الأمراض بعد حصولها، والحرص على إكساب البدن ما يحتاج إليه من اللياقة، وإحسان التصرف في الأمور.

الثاني: التربية العقلية، وهي زيادة المعلومات، أن تزداد معلومات الإنسان في أمور دينه أو في أمور دنياه، وأن يزداد اطلاعا بعقله على إنتاج البشرية، وما وصلت إليه تطوراتها

²⁴ - كتاب دروس للشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي - المكتبة الشاملة- بتصرف.

وحضارتها، فازدياد العقل إنما يكون بزيادة العلم، وهذه تربيته، سواء كان ذلك في المجال النظري أو في المجال التطبيقي.

أما الثالث من أقسام التربية: فهو تربية النفوس، وهو صعب للغاية، لأن النفس خفية، يؤمن بها الإنسان ويعلم وجودها وقربها، لكنه لا يراها ولا يستطيع الوصول إليها بالمباشرة، فليست مثل البدن الذي إذا أصابه مرض، أو شاكته شوكة، أو لامسه برد أو حر تألم الإنسان لذلك، وليست مثل العقل الذي يشعر فيه الإنسان بالازدياد والنهم للزيادة من العلم والحرص عليه، بل هذه النفوس أخفاها الله سبحانه وتعالى وجعل ارتفاعها وخروجها ورجوعها خفي لا يطلع عليه الناس.

ولذلك فإن من أبلغ الأدلة على توحيد الله سبحانه وتعالى، أن تقول لمن ينكر وجود الله سبحانه وتعالى أو اتصافه بصفات الكمال لأنه لا يراه؛ أن تقول له: هل لك روح أم لا، فلا بد أن يستسلم وأن يقر بأن له روحاً، فاسأله: هل هي موجودة أو معدومة؟ فلا بد أن يقر ب وجودها، فقل له: هل رأيته؟ هل لامستها؟ هل رأيت لونها؟ هل شممت رائحتها؟ هل ذقت طعمها؟ فلا يستطيع أن يثبت شيئاً من ذلك؛ وإذا كانت روحه أقرب شيء إليه مجهولة بالنسبة إليه، فجهله بديان السماوات والأرض أعظم وأكبر، لكنه مضطر للاستسلام حينئذ، وهذه النفس تصاب بالأعراض التي تصاب به الأبدان، فهي محتاجة إلى تغذية دائمة، ومحتاجة إلى رعاية ومتابعة للازدياد من الخير، كما يزداد البدن من الطاقات والمعارف.

ثانياً : كيفي يزكي المسلم نفسه : لقد بين العلماء أن تزكية النفس تنقسم إلى قسمين :
تخلية وتحلية

1/ التخلية هي: تطهيرها من الأوصاف الذميمة.

وهذه الأوصاف الذميمة بعضها يتعلق بالأخلاق والعادات وبعضها يتعلق بالتصورات التي ترسخ والمفاهيم التي تسبق إلى التصور، فالجانب الأول ما يتعلق بالأخلاق والعادات، تفاوت الناس فيه هو تفاوتهم في الإيمان، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا)** ومن هنا فإن الذي يتجنب الأخلاق الذميمة، ويراقب نفسه فيها ويعاقبها عقابا شديدا إذا حصل منها خلل أو خطأ؛ هو الذي يستطيع أن يزكيها وينميها.

خاصم أبو ذر رضي الله عنه رجلا من إخوانه المؤمنين في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فعيّره بأمه، فقال: يا ابن السوداء، فلقّيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **(أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية)** فندم أبو ذر ندما شديدا حتى أتى الرجل، فوضع عنقه على الأرض وأقسم بالله ليضعن رجله على عنقه عقابا لنفسه، على أن صدر منها مثل هذا الخلق الذميم، فاستطاع أن ينتصر على نفسه وأن يتغلب على هذا الخلق وأن يتخلص منه، لعلمه أنه من أخلاق الجاهلية.

ولهذا فإن النفس، هي بمثابة طفل صغير يتعود على أنماط من العيش والحياة، وإذا عولجت تلك الأنماط تغيرت، وإذا استمر عليها صعبت عليه مفارقتها، كالرضاعة مثلا، فإنه يتعودها من بداية نشأته، وعند تمام الحولين يشق عليه الفطام، ولكنه ما إن تمضي أيام قليلة حتى يتعود على ترك الرضاعة.

ولهذا قال البوصيري رحمه الله:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فكذلك هذه الأخلاق الذميمة، ما لم يطلع الإنسان عليها أولا ويتحقق أنها موجودة لديه ويتعرف على أوصافها وأعراضها فلا يمكن أن يعالجها، لأن من لا يشعر بمرض لا يهتم بعلاجه، ومن هنا احتاج الإنسان إلى أن يتابع الأوصاف الذميمة وأن يتعرف عليها وعلى

مظاهرها حتى يتقيها، وإن استطاع أن يتخلص من الأوصاف الذميمة سواء كانت في الأخلاق أو العادات فقد زكى نفسه.

فهذا هو الجانب الأول من التزكية الذي هو التخلية، لأن التخلية سابقة على التحلية.

2/ التحلية هي الشق الثاني من التزكية، وهي الاتصاف بالصفات الحميدة.

وهذه الصفات الحميدة أعظمها تنويرا الإيمان وزيادته بأن يكون إيمان الإنسان حسنا، وأن يحسن إيمانه وإسلامه، والناس في درجات الإيمان بينهم من التفاوت ما الله به عليم.

وهذا التفاوت يقتضي من الإنسان الحرص على ألا يكون فقط من أصحاب اليمين، بل أن يكون من المقربين، وأن يزداد إيمانا ويقينا كلما تقدم به العمر، فيحاول أن يحلي نفسه بمراتب الإيمان العالية.

وهذه المراتب منها :

أولا: مقام التوبة، وهو مقام رفيع، يكون الإنسان به مخلصا في توبته، فتكون توبته توبة نصوحة: (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) [النور: ٣١] (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) [التحريم: ٨] (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) [التوبة: ١١٢]، فالذي يتحلى بهذه التوبة يذوق حلاوة الانتقال من مرحلة التخلية إلى مرحلة التحلية.

والتوبة ثلاث مقامات:

المقام الأول: توبة الله على العبد، بمعنى: إرشاده وتوجيهه لأن يتوب إلى الله، وهذا شرط لعمل العبد، لأن العبد مالم ينعم الله عليه بنور التوبة، فيستمر في معصيته، لكن إذا شاء الله له النور، سلط عليه النور المشع العظيم -نور التوبة- فإراه ويتبعه فيتوب.

المقام الثاني: إذا تاب العبد وخرج من سيئه وندم عليه لقبحه شرعا، وعزم ألا يعود إليه.

المقام الثالث: توبة الله على العبد، أي: قبول توبته.

ثانيا: مقام الشكر، وشكر النعمة هو صرف جميع نعم الله في مرضاته، فالوقت نعمة من الله فيصرفه الإنسان في مرضاته، والإيمان نعمة من الله فيصرفه في مرضاته، الجوارح نعمة من الله فيصرفها في مرضاته، فيسعى حينئذ لأن تنكشف له أبواب النعم التي كانت مستورة عنه، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)**، كثير من الناس حيل بينهم وبين أن يشاهدوا النعمة، فهم يعيشون فيها ولا يشاهدونها ولا يدركونها، فحينئذ لا يمكن أن يشكروها، لأنهم ما عرفوها أصلا، بل هم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، وأكثرهم كافرون.

ثالثا : مقام الخوف والرجاء :

ثم بعد مقام الشكر، يصل الإنسان إلى الخوف والرجاء فيصل إلى مستوى يعيش فيه بين خوف الله ورجائه، طيلة حياته كلها.

فأنت الآن تزعم أنك تخاف الله ولكن ذلك الخوف لا يمنعك من الوقوع في المعصية، وتزعم أنك ترجو ما عند الله، ولكن ذلك الرجاء لا يمنعك من القلق والخوف من غير الله، ومعناه أنك ما تحققت بعد من مقام الخوف والرجاء.

فمقام الخوف والرجاء إذا وصلت إليهما، عشت بينهما، فشاهدت الأمور من عند الله لا من عند الناس، وكنت، بين هذين المقامين بحيث يأتي الوعد من الله سبحانه وتعالى على أعظم درجات الكمال، ويأتي منه الوعيد على أعظم درجات النقص، فيبقى الإنسان مترددا بين الحالين، كما قال تعالى: **(فأندرتكم نارا تلظى * لا يصلها إلا الأشقى * الذي كذب وتولى)** [الليل: ١٣ - ١٦] فتقول والله الحمد: أنا لست الأشقى، ولم أكذب ولم أتول،

لكن إذا جاء الوعد: (وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتركى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى) [الليل: ١٧ - ٢١] فتقول: أنا أيضا لست كذلك.

فتبقى مترددا بين الخوف والرجاء، تعيش بينهما وتذوق حلاوة ذلك، وهذه الحلاوة إنما يذوقها من وصل إلى مقام التردد بين الخوف والرجاء.

رابعاً : مقام التوكل على الله : ثم بعد هذا مقام آخر، وهو مقام الرجاء والتوكل، الذي يقتضي من الإنسان أن يعلم علم اليقين أن الله لا يخلف الميعاد، وأن وعده هو الحق لا ريبه فيه، وأنه هو الذي قبضته السماوات والأرض ومن فيهن، وهو الذي القلوب بين أصبعين من أصابعه، وهو الذي النفوس كلها في يده، ومن هنا فينظر إلى من خالفه في ذات الله نظرة المشفق الوجل، لعلمه أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا، فينظر إليه هذه النظرة.

وهذا المقام هو الذي وقف فيه نوح عليه السلام حين قال لقومه: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقصوا إلي ولا تنظرون) [يونس: ٧١].

وكذلك هود عليه السلام عندما قال: (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) [هود: ٥٦].

وهذا المقام هو الذي تحلى به إبراهيم عليه السلام عندما رموه في النار فقال الله: (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) [الأنبياء: ٦٩].

وتحلى به محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين قال لهم الناس: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله) [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

فأنت اليوم تهلل وتطعم وتخاف وترجو وأنت تزعم أنك مؤمن، والسبب أنك ما وصلت إلى هذا المقام.

ولهذا يذكر عن أبي الحسن الشاذلي أنه حين أتى الإسكندرية استقبله علماءؤها، فسألهم فقال: أتصلون؟ قالوا سبحان الله أنترك الصلاة؟ قال: أفتهلعون وتطمعون؟ قالوا: نعم، قال: إذا أنتم لا تصلون، فالله تعالى يقول: (إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين) [المعارج: ١٩ - ٢٢].

والمقصود بذلك: المصلون الذين صلاتهم هي الصلاة الحقيقية الكاملة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، ففيها تذوق لآيات الله، وإدراك لعجائب خلقه، ومقارنة بين ما يشاهد من الآيات المنيرة وبين ما يسمع ويتدبر من الآيات المذكورة: (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) [يوسف: ١٠٥ - ١٠٦].

الفصل الثامن

لا إله إلا الله هي كلمة الفلاح

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضعين ، وهما : قول الله عز وجل: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) [الأعلى: 14] ، وقوله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس : 7-10].

وحديثنا حول الآيتين سيكون في أربعة مباحث : سبب نزول قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)، وبيان المعنى الإجمالي لهما، والوقفات التدبرية اللاتي فيهما ، ثم بيان أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة.

المبحث الأول

سبب نزول قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

قال القرطبي رحمه الله تعالى : روى عطاء عن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت في عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال : كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة ، مائلة في دار رجل من الأنصار ، إذا هبت الرياح أسقطت البسر والرطب إلى دار الأنصاري ، فيأكل هو وعياله ، فخاصمه المنافق فشكا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه ، فقال : (إِنْ أَخَاكَ الْأَنْصَارِي ذَكَرَ أَنْ بَسْرِكَ وَرَطْبِكَ يَقَعُ إِلَى مَنْزَلِهِ ، فَيَأْكُلُ هُوَ وَعِيَالُهُ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ أُعْطِيكَ نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ بِدَلِّهَا) فقال : أبيع عاجلا بآجل لا أفعل . فذكروا أن عثمان بن عفان أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته ففيه نزلت قد أفلح من تزكى . ونزلت في المنافق ويتجنبها الأتقي .

المبحث الثاني

المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين

أولاً : مفهوم الفلاح في الآيتين الكريمتين :

قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) قال الطبري رحمه الله تعالى : والفلاح أصله في اللغة الشق والقطع ، قال الشاعر : **إن الحديد بالحديد يفلح** أي يشق ، ومنه فلاحه الأرضين إنما هو شقها للحرث.

وقال ابن أبي إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا .

وقال السعدي : قد أفلح من تزكى أي: قد فاز وريح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، **وذكر اسم ربه فصلي** أي: اتصف بذكر الله، وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة، وأما من فسر قوله تزكى يعني أخرج زكاة الفطر، وذكر اسم ربه فصلي، أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلاً في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده.

ثانياً : معنى التزكية في الآيتين : فيها ثلاثة أقوال :

القول الأول : ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) قال : أفلح من قال لا إله إلا الله. **وقال ابن زيد :** والتزكى في القرآن كله: الإسلام.

القول الثاني : زكاة الأموال كلها ؛ قال أبو الأحوص وعطاء . وروى ابن جريج قال : قلت لعطاء : قد أفلح من تزكى للفطر ؟ قال : هي للصدقات كلها .

القول الثالث : هي زكاة الأعمال ، لا زكاة الأموال ، أي تطهر في أعماله من الرياء والتقصير ، لأن الأكثر أن يقال في المال : زكى ، لا تزكى.

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين

الأولى : قال ابن عاشور : في قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) وقد رتبت هذه الخصال الثلاث في الآية على ترتيب تولدها ؛ فأصلها : إزالة الخبائث النفسية من عقائد باطلة وحديث النفس بالمضمرات الفاسدة وهي المشار إليه بقوله : **تزكى** ، ثم استحضار معرفة الله بصفات كماله وحكمته ليخافه ويرجوه وهو المشار بقوله : **وذكر اسم ربه** ثم الإقبال على طاعته وعبادته وهو المشار إليه بقوله : **فصلى والصلاة** تشير إلى العبادة وهي في ذاتها طاعة وامتنال يأتي بعده ما يشرع من الأعمال قال تعالى : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر .

الثانية : قال الرازي أيضا : الزكي الطاهر من العيوب كلها، قال : (أقتلت نفسا زكية) [الكهف : 74] وقال : (قد أفلح من زكاها) [الشمس : 9] وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه إليه؛ لأن المراد هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكيا عن كل ما لا ينبغي، وذلك بجمع كل ما يتصل بالتوحيد والشرائع.

الثالثة : جاء في التفسير الوسيط : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى). وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) أى: قد أفلح وفاز وانتفع بالتذكير، من حاول تزكية نفسه وتطهيرها من كل سوء.

ومن ذكر **اسم ربه** بقلبه ولسانه، فصلى الصلوات الخمس التي فرضها الله - تعالى - عليه. وأضاف إليها ما استطاع من نوافل وسنن.

وعبر سبحانه بقوله: (قَدْ أَفْلَحَ) ليجمع في هذا التعبير البليغ، كل معاني الخير والنفع، لأن الفلاح معناه: وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع. وجاء التعبير بالماضي المسبوق بقد، للدلالة على تحقيق هذا الفلاح بفضل الله - تعالى - ورحمته.

وقد اشتملت هاتان الآيتان على الطهارة من العقائد الباطلة (تزكى) وعلى استحضار معرفة الله تعالى (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) وعلى أداء التكاليف الشرعية التي على رأسها الصلاة (فصلى).

وهذه المعاني هي التي وصلت صاحبها إلى الفلاح الذي ليس بعده فلاح.

الرابعة : قال القشيري: فألهمها فجورها وتقواها: بأن خَذَلَهَا أو وَفَّقَهَا، ويُقال: أفلح مَنْ طَهَّرَهَا من الذنوب والعيوب، ثم عن الأطماع في الأعواض، ثم العبد نفسه عن الاعتراض على الأنام، وعن ارتكاب الحرام، وقد خاب مَنْ خان نفسه وأهملها عن المراعاة، ودَسَّهَا بالمخالفات.

وفي نواذر الأصول ما حاصله: أَنَّ دَسَّاهَا بمنزلة مَنْ دَسَّ شيئاً في كوة، يمنع من دخول الضوء، كذلك الهوى والشهوة سد وغلّق على القلب من حصول ضوء القربة والوصلة. هـ.

الخامسة : قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : ومعنى تزكى : عاجل أن يكون زكياً ، أي : بذل استطاعته في تطهير نفسه وتزكيتها كما قال تعالى : **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها.**

المبحث الرابع

أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة²⁵

الفلاح في الدنيا والآخرة إنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح، ولا فلاح بلا إيمان، كما أنه لا فلاح بلا عمل صالح، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

في أوائل سورة البقرة أثنى الله تعالى على المؤمنين بإيمانهم وعملهم الصالح، ثم وصفهم بالفلاح فقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5].

وفي أواخر سورة الحج يأمر الله عباده المؤمنين بفعل الخير حتى يكونوا من المفلحين، وفعل الخير كلمة جامعة لكل عمل صالح، فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77].

وفي أول سورة المؤمنون يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1]، ثم يذكر سبحانه جملة من صفاتهم التي بسببها أفلحوا، وهي: الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها، والإعراض عن اللغو، وأداء الزكاة، وحفظ الفروج، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود. ومن دلائل فلاحهم أن الله تعالى بعد أن ذكر صفاتهم وأعمالهم قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: 10، 11].

الصلاة باب عظيم للفلاح كما دلت عليه الآيات والأحاديث الكثيرة، وهي بوابة البشرية بالفلاح في الآخرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ) رواه الترمذي. ولذا فلا عجب أن ينادى للصلاة بالفلاح؛ فيقول المؤذن في النداء والإقامة: حي على الفلاح.

²⁵ - من مقال طريق الفلاح - أ. عبدالعزيز بن أحمد الغامدي - شبكة الألوكة الشرعية.

والتوبة طريقُ الفلاح؛ فعلى المؤمن أن يلزمها اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي **(كان يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مائة مرة)** رواه ابن ماجه وصححه الألباني، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

والتوبة باب للفلاح إذا قرنت بالإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: 67]. وعسى ولعل من الله تعالى إيجابٌ وتحقيقٌ لأن الأمر كله لله، أي: إن الفلاح واقعٌ متحققٌ لمن آمن وعمل صالحًا.

كلمة التوحيد هي طريق الفلاح، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدور في أسواق المشركين وهو يقول: **(يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا).**

والتقوى سبيل الفلاح، وهي تجمع بين الإيمان والعمل، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189]. وقد جاء في القرآن الأمرُ صريحًا بالتقوى لنيل الفلاح أربع مراتٍ. **وصلاح القلب، وتركية النفس لا تكون إلا بالأعمال الصالحة،** وذلك سببٌ للفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14]، وفي الآية الأخرى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: 9].

والحسبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريقٌ إلى الفلاح: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104].

والجهاد في سبيل الله تعالى بالنفس أو المال يوصل إلى الفلاح، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 88].

وذكر الله تعالى الثبات في الجهاد سببًا للفلاح فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَانْثَبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

والاعتراف بنعم الله بذكرها وشكر الله عليها وأداء ما يجب فيها سبب للفلاح، كما قال
نبي الله هود عليه السلام لقومه: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69].

**والتحاكم إلى شريعة الله تعالى، وطاعته سبحانه وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم سبب
للفلاح** ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

وأداء الحقوق إلى أهلها، يحقق الفلاح ﴿فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: 38].

**وموالاة أولياء الله تعالى؛ ومعاداة أعدائه؛ وبناء الولاء والبراء على منهاج النبوة ينظم
صاحبه في جماعة المؤمنين، وهم حزب الله تعالى الصادقين؛ والمفلحين، فقد ذكر الله في
آخر سورة المجادلة أهل الإيمان الصادقين في ولائهم للمؤمنين وبرائهم من الكافرين، ثم ختم
الآية والسورة بقوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].**

**والإنفاق في سبيل الله؛ والتخلص من شح النفس سبب للفلاح، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا
خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16].**

وكف اليد في الفتن سبب للفلاح؛ لأن أمر الدماء عظيم عند الله تعالى؛ كما في حديث
أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للعرب من شرٍ قد
اقترب، أفلح من كف يده) رواه أبو داود، وصححه الألباني.

**والقناعة سبب للفلاح؛ لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الظلم، والتطاول على الأموال
المحرمة، والهلاك بسبب ذلك كثير في الناس. قال النبي صلى الله عليه وسلم : (قد أفلح
من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه) رواه مسلم.**

الفصل التاسع

لا إله إلا الله هي العمل الصالح

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد ، وهو :

قول الله عز وجل: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) [المؤمنون 99 - 100].

وحدثنا حول الآية سيكون في ثلاثة مباحث : المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدرجية في الآية الكريمة ، ثم أمنيات الموتى من المسلمين والكافرين.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة : (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) عندما تتوقف الأنفاس و ينتهي الأجل ويحين موعد الانتقال يتمنى كل مفرط لو رجع و عاد و لكن هيهات هيهات؛ ضرب البرزخ و تحولت الدار و تغيرت الأحوال حيث لا آمال و لا أعمال و إنما هو حساب و جزاء (قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : قوله تعالى : (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا) قال ابن عباس: يريد أشهد أن لا إله إلا الله. (فِيمَا تَرَكْتُ) أي فيما ضيعت وتركت العمل به من الطاعات. وقيل : فيما تركت من المال فأصدق .

قال الألوسي رحمه الله تعالى : (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا) أي في الإيمان الذي تركته، ولعل للترجي وهو إما راجع للعمل والإيمان لعلمه بعدم الرجوع أو للعمل فقط لتحقيق إيمانه إن رجع فهو كما في قولك: لعلني أربح في هذا المال.

قال السعدي : يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول: **(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)** من العمل، وفرطت في جنب الله.

(كَلَّا) أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، **(إِنَّهَا)** أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا **(كَلِمَةً هُوَ قَائِلُهَا)** أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضا غير صادق في ذلك، فإنه لو رد لعاد لما نهي عنه.

(وَمَنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فليعدوا له عدته، وليأخذوا له أهبتة.

قال الألوسي رحمه الله تعالى : ثم إن طلب الرجعة ليس من خواص الكفار. وقال الضحاك كنت جالسا عند ابن عباس، فقال : من لم يترك ولم يحج سأل الرجعة عند الموت، فقال واحد : إنما يسأل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضي الله عنهما أنا أقرأ عليك به قرآناً **(وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ).**

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال أبو زهرة رحمه الله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) ورأى رهبته وأدرك معاني الآيات الكونية والقرآنية؛ والدعوة المحمدية؛ علم أنه كان في ضلال؛ وذكر (أَحَدَهُمْ) ؛ مع أن الأمر يعمهم للإشارة إلى أن الضلال كان من اجتماعهم؛ وتآلفهم على الباطل؛ وتعاونهم على إثمه.

الثانية : قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : والترك هنا مستعمل في حقيقته وهو معنى التخلية والمفارقة . وما صدق (فِيمَا تَرَكْتُ) عالم الدنيا .

ويجوز أن يراد بالترك معناه المجازي وهو الإعراض والرفض ، **فالمعنى :** لعلني أسلم وأعمل صالحاً في حالة إسلامي الذي كنت رفضته ، فاشتمل هذا المعنى على وعد بالامتثال واعتراف بالخطأ فيما سلف . وركب بهذا النظم الموجز قضاء لحق البلاغة .

الثالثة : قال ابن كثير : قال قتادة والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرأً عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار.

وعن أبي هريرة قال إذا وضع - يعني الكافر - في قبره، فيرى مقعده من النار، قال فيقول **رب ارجعون** أتوب وأعمل صالحاً، قال فيقال قد عمرت ما كنت معمراً، قال فيضيق عليه قبره ويلتئم، فهو كالمنهوش ينام ويفزع، تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها.

الرابعة : قال القرطبي : قوله (ارْجِعُونَ) وهو مخاطب ربّه عز وجل ولم يقل «ارجعني» جاء على تعظيم الذكر للمخاطب. وقيل: استغاثوا بالله عز وجل أولاً، فقال قائلهم: **ربّ**، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال: **ارجعون** إلى الدنيا قاله ابن جريج.

وقيل: إن معنى «ارجعون» على جهة التكرير أي ارجعني ارجعني وهكذا.

الرابعة : قال القرطبي : و«لعلّ» تتضمن تردداً وهذا الذي يسأل الرجعة قد استيقن العذاب، وهو يوطن نفسه على العمل الصالح قطعاً من غير تردد. فالتردد يرجع إما إلى رده إلى الدنيا، وإما إلى التوفيق أي أعمل صالحاً إن وفقني إذ ليس على قطع من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا ؛ كما قال: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ) [الأنعام: 28].

المبحث الثالث

أمنيات الموتى من المسلمين والكافرين²⁶

لكل إنسان في هذه الحياة أمان كثيرة ومتعددة، وتتفاوت هذه الأمان وتباين وفقا لاعتبارات عديدة، منها البيئة التي يعيش فيها الفرد، والفكر الذي تربي عليه، والأقران الذين يحيطون به.

فلو سألت إنسانا: ما أمنيتك في هذه الحياة؟ فإن كان من وسط فقير وعين الفقر وأحس بألمه واكتوى به لتمنى أن يعيش غنيا وأن يملك العقارات والسيارات ليعيش منعما كما يتنعم غالب الناس.

ولو قابلت مريضا طرحه المرض على الفراش فشل حركته وقيد حريته ومنعه حتى من لذة الطعام والمنام وسألته عن أمنيته لرأيته يتمنى أن يعافى من مرضه ولو افتدى بماله كله.

ولو سألت طالبا جامعا عن أمنيته لرأيته يتمنى وظيفة مرموقة تكفيه وزوجة حسنة تغريه ومنزلا واسعا يؤويه.

ولو سألت بعض الأغنياء عن أمنياتهم لرأيتهم يتمنون مزيدا من الغنى ليكونوا أغنى من فلان وعلان.

وهكذا فالمقل لا يقنع والمكثر لا يشبع، وأمان الدنيا لا تنتهي، وصدق رسول الله حينما قال: (لو كان لابن آدم واد من نخل لتمنى مثله، ثم تمنى مثله، حتى يتمنى أودية، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) رواه الإمام أحمد وابن حبان .

فمما ورد في الكتاب والسنة من أمنيات الموتى المسلمين ما يلي:

²⁶ - خطبة بعنوان أمنيات الموتى - محمد بن إبراهيم النعيم - موقع المنبر - باختصار.

أولاً: يتمنى الميت لو تعاد له الحياة ليصلي ولو ركعتين، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله مر بقبرٍ فقال: **(من صاحب هذا القبر؟) فقالوا: فلان، فقال: (ركعتان أحب إلي هذا من بقية دنياكم)** رواه الطبراني وصححه الألباني، وفي رواية قال: **(ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتنفلون يزيدنها هذا في عمله أحب إليه من بقية دنياكم).**

فغاية أمنية الميت المقصر أن يُمدَّ له في أجله ليركع ركعتين يزيد فيها من حسناته ويتدارك ما فات من أيام عمره في غير طاعة. ألم تسمعوا وصية رسولنا وهو يقول لنا معشر الأحياء: **(الصلاة خير موضوع، فمن استطاع أن يستكثر فليكثر)؟!**

لقد عاين ذلك الميت وهو في قبره ثواب الصلاة، ورأى بأم عينه فائدة الصلاة، فتأسف على أيام أمضاها في غير طاعة، على ساعات مضت أمام شاشات اللهو والمجون، لم يجن منها سوى الحسرة والندامة.

اغتنم في الفراغ فضل ركوع **فعسى أن يكون موتك بغتة**

كم صحيح رأيت من غير سقم **ذهبت نفسه الصحيحة فلتة**

فغاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، بل دقيقة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، أما نحن أهل الدنيا فمفرطون في أوقاتنا بل في حياتنا، نبحت عما يقتل أوقاتنا لتذهب أعمارنا سدى في غير طاعة، ومنا من يقطعها بالمعاصي.

ثانياً: التي يتمناها الموتى ليتصدقوا، وذلك في قوله تعالى: **(وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)** [المنافقون: 10، 11]. لقد اقتنعوا . ولكن بعد فوات الأوان . أن الصدقة من أحب الأعمال إلى الله، وأن العبد سيسأل عن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيه أنفقه؟ فتمنوا الرجعة ليقدموا صدقتهم بعد أن منعوها الفقير وصرفوها

على شهواتهم وسياحتهم، فيقول (رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ)، إنها أمنية مليئة بالحسرة والأسف، ولكنها جاءت متأخرة.

ثالثاً : يتمنى الموتى العودة إلى الدنيا، ولو للحظات معدودة ليكونوا صالحين، ليعملوا أي عمل صالح، ليصلحوا ما أفسدوا، ويطيعوا الله في كل ما عصوا، لذكروا الله تعالى ولو مرة، يتمنون النطق ولو بتسبيحة واحدة، ولو بتهليلة واحدة، فلا يؤذن لهم، ولا تحقق أمنياتهم، قال الله عز وجل في شأنهم: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) [المؤمنون: 99، 100]،

أما المؤمن فإنه إذا أدخل قبره وبشر بالجنة ورأى منزلته فيها فإنه لا يتمنى أن يعود إلى الدنيا، بل يتمنى أن تقوم الساعة ليدخل في ذلك النعيم المقيم الذي ينتظره. لقد ذكر لنا رسول الله أن العبد المؤمن إذا أجاب على أسئلة الملكين وهو في قبره (نادى مناد من السماء: أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: ربّ أقم الساعة ربّ أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي و مالي). هذه أمنية الرجل الصالح . يا عباد الله . في قبره أن تقوم الساعة.

كما صح عن النبي أن المؤمن إذا بشر في قبره بالجنة يتمنى أن يعودَ إلى أهله ليبشرهم بنجاته من النار وفوزه بالجنة، إذ روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله قال: (إذا رأى المؤمن ما فسح له في قبره فيقول: دعوني أبشر أهلي)، وفي رواية: (يقول: دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي، فيقال له: اسكن) رواه الإمام أحمد.

ولقد قصّ الله عز وجل علينا قصة صاحب يس الذي كان حريصا على هداية قومه إلا أنهم قتلوه وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسله، فلما عين كرامة الله عز وجل له وفوزه بالجنة تمنى أن يعلم قومه بذلك كي يؤمنوا، فقال تعالى في شأنه: (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) [يس:26، 27]، أي: تمنى أن قومه الذين حاربوا دين الله ورفضوا الاستجابة لأوامر الله أن يعلموا ماذا أعطاه الله من نعيم وثواب جزيل. هذا ما يتمناه المؤمن في قبره.

أما الشهيد فبالرغم من عظم منزلته الرفيعة التي يراها أعدت له في أعلى درجات الجنة فإنه يتمنى أن يعود إلى الدنيا ولكن ليستمر في جهاد أعداء الله، فيقاتل ويُقتل ولو عشر مرات، لما يرى من ثواب الجهاد وكرامة المجاهدين عند الله عز وجل.

اسمعوا ما قاله لنا الصادق المصدوق عن أمنية كلّ شهيد، حيث روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله قال: (ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا وأن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية أخرى قال: (ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة).

فمما ورد في الكتاب والسنة من أمنيات الموتى الكافر أو المنافق: فعلى الرغم من شدة العذاب الذي يلاقيه في قبره فإنه يدعو: ربّ لا تقم الساعة ربّ لا تقم الساعة؛ لأنه يعلم أن ما بعد القبر هو أشدّ وأفظع، إن الميت العاصي إذا هجمت عليه منيته وأحاطت به خطيئته وانكشف له الغطاء صاح: وا منيته، وا سوء منقلباه، رب ارجعون لعلّي أعمل صالحا فيما تركت. هذه هي أمنيته الوحيدة.

فالموتى قد انتهت فرصتهم في الحياة، وعانوا الآخرة، وعرفوا ما لهم وما عليهم. أدركوا أنهم كانوا يضيعون أوقاتهم فيما لم يكن ينفعهم في آخرتهم، أدركوا أن الوقت الذي ضاع من بين أيديهم كان لا يقدر بثمن، أدركوا أنهم كانوا في نعمة ولكن لم يستغلوها، وأصبحوا يتمنون عمل حسنة واحدة لعلها تثقل ميزانهم، فلا يستطيعون.

إن أكثر ما يكون الإنسان غفلة عن نعم الله عليه حينما يكون مغمورا بتلك النعم، ولا يعرف فضلها إلا بعد زوالها. فنحن نملك الآن نعمة الحياة لنزيد من حسناتنا ونكفر عن سيئاتنا، فإذا متنا ندمنا على كل دقيقة ضاعت ليس فيها ذكر لله وليست في طاعة الله، فاغتنموا ساعات العمر ودقائقه قبل أن تندموا فتتمنوا ما يتمناه بعض الموتى الآن.

قال إبراهيم بن يزيد العبدى: (أتاني رياح القيسي فقال: يا أبا إسحاق، انطلق بنا إلى أهل الآخرة نُحدثُ بقرهم عهداً، فانطلقت معه فأتى المقابر فجلسنا إلى بعض تلك القبور، فقال: يا أبا إسحاق، ما ترى هذا متمنياً لو مُنَّ؟. أي: لو قيل: له تمنَّ. قلت: أن يُردَّ والله إلى الدنيا فيستمتع من طاعة الله ويُصلح، قال: ها نحن في الدنيا فلنطع الله ولنصلح، ثم نحض فجذَّ واجتهد، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات رحمه الله تعالى)²⁷.

فإذا زرت المقبرة قف أمام قبر مفتوح، وتأمل هذا اللحد الضيق، وتحيل أنك بداخله، وقد أغلق عليك الباب، وانحال عليك التراب، وفارقك الأهل والأولاد، وقد أحاطك القبر بظلمته ووحشته، فلا ترى إلا عملك.

فماذا تتمنى يا ترى في هذه اللحظة؟ ألا تتمنى الرجوع إلى الدنيا لتعمل صالحاً، لترجع ركعة، لتسبح تسبيحة، لتذكر الله تعالى ولو مرة؟! ها أنت على ظهر الأرض حيّاً معافى فاعمل صالحاً قبل أن تعضَّ على أصابع الندم وتصبح في عداد الموتى، تتمنى ولا مجيب لك.

²⁷ - إيقاظ أولي الهمم - (ص 357).

فإذا وسدت في قبرك فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة. قال إبراهيم التيمي: مثَّلتُ نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلاها، فقلت لنفسي: أي شيء تريد؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قال: فقلت: أنت في الأمانة فاعلمي²⁸.

²⁸ - حلية الأولياء - (211/4).

الفصل العاشر

لا إله إلا الله هي الكلم الطيب والقول الطيب

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضعين ، وهما :

قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) [فاطر: 10].

وقول تعالى: (وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ) [الحج: 24] .

وحديثنا حول الآيتين سيكون في ثلاثة مباحث : المعنى الإجمالي لهما، والوقفات التدريبية فيهما، ثم أهمية الكلمة الطيبة في حياة المؤمن.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) (وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ)

أولاً : تفسير الآية الأولى : قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) [فاطر: 10].

قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ) :

قال ابن كثير : وقوله : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) أي : من كان يحب أن يكون عزيزا في الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا) [النساء : 139] .

وقال تعالى : (ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا) [يونس : 65] ، وقال : (والله العزة
ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) [المنافقون : 8] .

قال ابن الجوزي : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها: من كان يريد العزة بعبادة الأوثان فله العزة جميعا ، قاله مجاهد .

الثاني: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله، قاله قتادة .

الثالث : من كان يريد العزة لمن هي، فإنها لله جميعا، قاله الفراء .

قوله تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) : في الكلم الطيب ثلاثة أقوال :

الأول : قال البغوي : (إليه) أي : إلى الله (يصعد الكلم الطيب) وهو قوله لا إله إلا الله
تعالى .

الثاني : هو قول الرجل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

الثالث : يتناول الدعاء والاستغفار وقراءة القرآن والذكر من قوله (سبحان الله والحمد لله
ولا إله إلا الله والله أكبر) ونحو ذلك مما كان كلاما طيبا . قاله غير واحد من السلف .

قال ابن الجوزي : وفي هاء الضمير في قوله (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ثلاثة أقوال :

أحدها: أنها ترجع إلى الكلم الطيب ؛ فالمعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، قاله
ابن عباس وبعض التابعين .

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: يعرض القول على الفعل، فإن وافق القول
الفعل قبل، وإن خالف ردّد . وأنشدوا:

لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يُزَيِّنَ ما يقول فعَالُ

فإذا وزنت فعّاله بمقاله فتوّازنا فإخاء ذاك جمال

وقال ابن المُقَفَّع: قول بلا عمل، كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر. وفيه قيل:

لا يكون المقال إلا بفعل كل قول بلا فعال هباء

إن قولاً بلا فعال جميل ونكاحاً بلا وليّ سواء

الثاني: أنّها ترجع إلى العمل الصالح، فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، فهو عكس القول الأول، وبه قال أبو صالح، وشهر بن حوشب .

فإذا قلنا: إن الكلم الطيب هو التوحيد، كانت فائدة هذا القول أنه لا يقبل عمل صالح إلا من موحد .

ويوضح هذا المعنى صاحب روح البيان : أن التوحيد يصعد بنفسه ويرفع العمل الصالح بان يكون سببا لقبوله ألا ترى ان اعمال الكفار مردودة محبطة لوجود الشرك.

وقال عبد السلام بن غانم المقدسي في حل الرموز : قالوا كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله " تصعد الى الله بنفسها وغيرها من الاذكار والاعمال ترفعها الملائكة كما قال تعالى (والعمل الصالح يرفعه)."

والثالث : أنّها ترجع إلى الله عز وجل؛ فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الله إليه، أي: يقبله، قاله قتادة .

قال ابن عطية رحمه الله تعالى : وهذا ارجح الاقوال وتخصيص العمل بهذا الشرف على هذا الوجه لما فيه من الكلفة. اي يرفعه الحق ويقبله على ايدي الملائكة من الحفظة والسفرة.

قال صاحب روح البيان : وفيه معنى آخر وهو ان يرفعه بمعنى يجعله ذا قدر وقيمة مثل ثوب رفيع ومرتفع يعنى قدر ومرتبته.

ثانياً : تفسير الآية الثانية : قوله تعالى : (وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ).

قال ابن الجوزي : قوله تعالى : (وهدوا) أي : أرشدوا في الدنيا ، (إلى الطيب من القول) وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه لا إله إلا الله والحمد لله ، قاله ابن عباس ، وزاد ابن زيد : والله أكبر .

والثاني : القرآن ، قاله السدي .

والثالث : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حكاه الماوردي .

فأما (صراط الحميد) فقال ابن عباس : هو طريق الإسلام .

وقال ابن عجيبة : (وهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ)، وهو كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

أو: الحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، بدليل قوله: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) [فَاطِر: 10].

(وهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) أي: المحمود، وهو الإسلام.

أو: ألهمهم الله في الآخرة أن يقولوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهداهم فيها إلى طريق الجنة. وقيل: إلى طريق الوصول إلى الله العزيز الحميد، والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين

الأولى : قال ابن عجيبة : العز على قسمين: عز الظاهر، وعز الباطن:

عز الظاهر : هو تعظيم الجاه وبعده الصيت، واحترام الناس لصاحبه، ولمن تعلق به، وسببه: التقوى، والعلم، والعمل، ومكارم الأخلاق كالسخاء، والتواضع، وحسن الخلق، والإحسان إلى عباد الله.

وعز الباطن: هو الغنى بالله، وبمعرفته، والتحرُّر من رق الطمع، والتحلِّي بحلية الورع. وسببه الدل لله، يُظهر ذلك بين أقرانه.

كما قال الشاعر:

تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزًّا فكم عِزًّا نالها المرء بالذُّلِّ

الثانية : قال ابن عجيبة أيضا : إذا تعزَّز القلب بالله لم يلتفت إلى شيء، ولم يفتقر إلى شيء، وكان حرًّا من كل شيء، عبداً لله في كل شيء. وقد يجتمع للعبد العزان معاً، إذا كان عارفاً بالله عاملاً، وقد ينفرد عز الظاهر في أهل الظاهر، وينفرد عز الباطن في بعض أهل الباطن، يتركهم تحت أستار الخمول، حتى يلقوه وهم عرائس الأولياء، ضنَّ بهم الحق تعالى عن خلقه، فلم يُظهرهم لأحد، حتى قدموا عليه، وهم الأولياء الأخفياء الأتقياء، كما ورد مدحهم في الحديث. وكلا العزَّين لله، وبيد الله، فلا يُطلب واحد منهما إلا منه سبحانه.

الثالثة : قال القشيري: قال تعالى هنا (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) وقال في آية أخرى: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [المنافقون: 8] فأثبت العزة لغيره، والجمع بينهما: أن

عِزَّةُ الربوبية لله وَصَفَاءُ وَعِزَّةُ الرسول والمؤمنين لله فضلاً، ومنه لطفاً، فإذا العزة لله جميعاً. والكلم الطيب هو الذي يصدر عن عقيدة طيبة، وقلب طيب، لا كدر فيه ولا أغيار.

الرابعة : قال الجيلاني : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) أي ما يذكر العبد به ربه من الأسماء الحسنى والصفات العظمى حال كونه من المخلصين المتفكرين في آلاء الله ونعمائه.

(وَأَلْعَمَلُ الصَّالِحُ) المقرون بالإخلاص والتبتل (يَرْفَعُهُ) أي: يرفع العمل المنبئ عن الإخلاص، والكلم الطيب إلى درجات القرب من الله، فمن كان إخلاصه في عمله أكمل، كان درجات كلماته المرفوعة نحوه سبحانه أرفع وأعلى عند الله.

الخامسة : قال في التأويلات النجمية : قوله تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ) يشير الى ان الانسان خلق ذليلاً مهيناً محتاجاً الى كل شئ ولا يحتاج شئ الى شئ كاحتياج الانسان الى الاشياء كلها ولا يحتاج الى كل شئ الا الانسان ؛ والذلة قرين الحاجة فمن ازدادت حاجته ازدادت مذلتة.

(فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) لعدم احتياجه وكل شئ ذليل له لاحتياجه إليه فكلما كان احتياج الانسان كاملاً كان ذله كاملاً فقال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ) الى آخره أى لا يطلب العزة من غير الله لانه ذليل ايضاً لله فيقدر قطع النظر عن الاشياء وطلب العزة منها تنقص ذلة العبد وتزيد عزته الى ان لا يبقى له الاحتياج الى غير الله ولا يزول الاحتياج والافتقار الى غير الله من القلوب الا بنفى **لا إله وإثبات إلا الله** فبالنفى تنقطع تعلقاته عن الكونين وبالإثبات يتوجه بالكلية الى الحق تعالى.

السادسة: قال الرازي : ما وجه ترجيح الذكر على العمل حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره:

فنقول الكلام شريف: فإن امتياز الإنسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) [الإسراء:70] أي بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يُمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب؛ ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة، وإن كان ظاهراً أمن في نفسه ودمه وأهله وحرمة في الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى: (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) [البقرة:82].

ووجه آخر: القلب هو الأصل، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) وما في القلب لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل، **فالقول أقرب إلى القلب من الفعل**، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب، **وأما الفعل قد يكون لا عن قلب** كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو في أكثر الأمر لا يتكلم في نومه إلا نادراً، لما ذكرنا إن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل، فالقول أشرف منه.

السابعة: قال أبو زهرة: (وهذوا إلى الطيب من القول) هو القول الحق؛ الذي يتقرب به إلى الله تعالى؛ والذي يقرر القائل له كمال الله تعالى؛ ووحدة ألوهيته؛ والطاعة لله (تعالى)؛ وتكبيره؛ وتقديسه؛ وتسيحه؛ والخضوع المطلق له؛ وحمده في كل وقت.

(وهذوا إلى صراط الحميد) هي طريق الله تعالى؛ بإعلان عبادته وحده؛ لا يشرك به شيئاً؛ و (الحميد) أي: المحمود في كل ما يوصف به؛ والإضافة إما أن تكون بيانية؛ كقولهم: خاتم حديد؛ أي: خاتم هو حديد؛ ويكون المعنى: صراط هو الحميد المحمود في كل مسالكه؛ من مبتدئه إلى منتهاه؛ فهو طريق كل خير؛ ينتقل فيه من مرحلة خير إلى غيرها؛ فهو مراحل الاستقامة؛ تبتدئ من أولها إلى نهايتها.

ويصح أن يكون المراد من (الحميد) ذات الله تعالى؛ لأنه المختص بالحمد؛ ويكون المعنى؛
وهدوا إلى طريق الله (تعالى) البالغة الموصلة له.

بقي أن نتكلم في زمانها؛ ومكانها؛ أكانت في الدنيا؛ وهي التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء الوفاق
في الآخرة؛ ويكون ذكرها في الجنة تحقيقاً لها؛ وتأكيداً لها؛ وبيان أن ذلك هو السبب في
النعيم الذي آتاهم الله بفضلِهِ ومنته؛ فبعملهم في الدنيا وأقوالهم الطيبة بالتوحيد والعبادة؛
وسلوكلهم الطريق الأقوم؛ نالوا ما نالوا في الآخرة.

المبحث الثالث

أهمية الكلمة الطيبة في حياة المؤمن

هذا المحور كتبته بناءً على أن الكلمة الطيبة تعم كل كلام طيب كما ذكر آنفاً في قول بعض المفسرين : أنه يتناول الدعاء والاستغفار وقراءة القرآن والذكر من قوله : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ، ونحو ذلك مما كان كلاماً طيباً.

وسيدور الحديث في نقطتين :

الأولى : قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: 152]. وهذه الوصية مهمة جداً في إشاعة الحق والعدل والصدق في المجتمع المسلم؛ لذلك فإن هذه الوصية تشتمل على فوائد عدة، منها²⁹:

أهمية الكلمة بالنسبة لقائلها: قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، من هذه الآية نتبين أهمية الكلمة؛ لأن الكلمة متى خرجت من اللسان سُجِّلَتْ لك أو عليك؛ فإن كانت في خير أو معروف، فهي لك، وإن كانت في شرٍ أو ضرٍ أو أذى من أي نوع كان، فهي عليك؛ فعند الترمذي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) [متفق عليه].

وعند البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُقْلِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُقْلِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) ، وفي رواية:

²⁹ - أهمية الكلمة بالنسبة لقائلها - د. محمد منير الجنباز - شبكة الألوكة الشرعية.

(يزُلُّ بها في النار أبعدَ ما بين المشرقِ والمغرب)، وفي رواية الترمذي: (يهوي بها سبعين خريفًا في النار).

وعن أمّ حبيبة قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن منكر، أو ذكرُ الله)، رواه الترمذي وقال حسنٌ غريب.

ولذلك كانت آفاتُ اللسان من أكبرِ البلايا التي تجتاح حَسَناتِ المسلم، وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله حَرَّمَ عليكم عقوقَ الأمهات، ووَأَدَّ البنات، ومنعًا وهاتٍ، وكَرِهَ لكم قِيلَ وقال، وكثرةُ السؤال، وإِضاعةُ المالِ) [رواه البخاري]، منعًا وهاتٍ: أي يمنع أداء ما عليه، ويطلب ما له، قيل وقال: يدلُّ على كثرة الكلام بغير فائدة، وقد يُفيد نقل الكلام بلا توثيق، أو إشاعة خبرٍ ما يثير البلبلة.

ففي الحديث الطويل عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، قال: (لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]، ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟)، قلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأسُ الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟) فقلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: (كفَّ عنك هذا)، قلت: يا نبيَّ الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ((تَكَلِّتُكَ أَفْئِكَ، وهل يكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم)) [أخرجه الترمذي والنسائي في السنن الكبرى وابن ماجه وأحمد].

الثانية : خصائص الكلمة الطيبة وفوائدها³⁰:

1- الكلمة الطيبة شعبة من شعب الإيمان: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ صَيفَهُ)؛ متفق عليه.

2- الكلمة الطيبة سمة المؤمنين الصادقين والدعاة وشعارهم: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: 26].

3- الكلمة الطيبة صدقة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ سَأَلَمِي مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةً، وَتَعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتَمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)؛ رواه البخاري ومسلم.

قال ابن عثيمين رحمه الله: "الصدقة لا تختص بالمال، بل كلُّ ما يقرب إلى الله فهو صدقة بالمعنى العام؛ لأنَّ فعله يدل على صدق صاحبه في طلب رضوان الله عز وجل"؛ شرح رياض الصالحين 1/ 290.

4- أنها تؤلف بين القلوب، وتصلح النفوس، وتذهب الحزن، وتزيل الغضب، وتشعر بالرضا والسعادة، لا سيما إذا رافقتها ابتسامة صادقة: فعن أبي ذر قال: قال رسول الله

³⁰ - مقتبس من مقال : الكلمة الطيبة وأثرها في النفوس - الشيخ أحمد أبو عبيد - شبكة الألوكة الشرعية .

صلى الله عليه وسلم: (تَبَشُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ)؛ أخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

5- أنها توافق الشرع الحنيف: فتدعو إلى ما يُعزِّز التوحيد، وينافي البدع والمنكرات، والشهوات والشبهات ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

6- بها يكون اجتماع الكلمة، وتآلف القلوب: قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 34، 35]. فمما يتحقق به الرد الحسن: الكلمة الطيبة.

7- والكلمة الطيبة انتصار على الشيطان: قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: 53]؛ أي: قل لعبادي المؤمنين يقولوا في تخاطبهم وتحاورهم الكلام الحسن الطيب؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، ألقى الشيطان بينهم العداوة والفساد والخصام، إن الشيطان كان للإنسان عدوًّا ظاهر العداوة؛ فالشيطان حريص على إفساد ذات بيننا، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أُيسِّنَ أَنْ يَعْبدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)؛ رواه مسلم، والتحريش: الإفساد بينهم، فمن ردَّ بالكلمة الطيبة أخزى الشيطان.

8- وبالكلمة الطيبة تتحقق المغفرة: قال صلى الله عليه وسلم: (إن من موجبات المغفرة: بذل السلام، وحسن الكلام)؛ قال العراقي تخريج الإحياء للعراقي: إسناده جيد.

9- بها تكون النجاة من النار: عن عدي بن حاتم قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النار فأعرض وأشاح، ثم قال: (اتقوا النار)، ثم أعرض وأشاح حتى ظننا أنه كأنما

ينظر إليها، ثم قال: (اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد، فكلمة طيبة)؛ رواه البخاري ومسلم.

10- الكلمة الطيبة سبب دخول الجنة: عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنهما من ظاهرها)، فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: (لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام)؛ رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، حسن صحيح. والجزاء من جنس العمل، فلما كانت الكلمة الطيبة سجية لهم، دخلوا الجنة فلم يسمعوا فيها إلا الطيب الذي لا يؤذيهم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: 25، 26]؛ أي: لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً؛ أي: غثاً خالياً عن المعنى، أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف.

ولما كانت خمر الدنيا حاملةً على بذية الكلام، قال تعالى في نعت خمر الآخرة: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: 23].

11- تصعد إلى السماء: فتفتح لها أبواب السماء، وتقبل بإذن الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10].

12- إنها من هداية الله وفضله للعبد: قال تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: 24].

13- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان: انظر بماذا تجازي على كلمة تقولها في الذب عن عرض أخيك المسلم؛ ففي الحديث: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ رَدَّ عَنْ عَرْضِ أَخِيهِ، رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؛ أخرجه الترمذي وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

الفصل الحادي عشر

لا إله إلا الله هي الكلمة الباقية

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد ، وهو :

قول الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الزخرف: 26-28].

وحديثنا حول الآية سيكون في مبحثين: المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدريبية في الآية الكريمة.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ)

قال ابن كثير : (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً) قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله عز وجل: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها، وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال ابن زيد : الكلمة قوله : (أسلمت لرب العالمين) وقرأ (هو سماكم المسلمين من قبل).

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: قال الله تعالى: (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ): أي أعلن إبراهيم عليه السلام تلك المقالة في قومه معاصريه وجعلها كلمة باقية في عقبه ينقلونها إلى معاصريهم من الأمم . إذ أوصى بها بنيه وأن يوصوا بنيهم بها ، قال تعالى في سورة البقرة (129-131) (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ)، فبتلك الوصية أبقى إبراهيم توحيد الله بالإلهية والعبادة في عقبه يثبتونه في الناس .

ولذلك قال يوسف لصاحبيه في السجن (يَصَاحِبِي السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) يوسف (39) وقال لهما (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ). يوسف (37).

قوله تعالى : (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي ليكون حالهم حال من ينظر إليهم إن حصل منهم مخالفة واعوجاج حال من يرجى رجوعه، فإنهم إذا ذكروا أن أباهم الأعظم الذي بنى لهم البيت وأورثهم الفخر قال ذلك تابعوه.

وقيل : لعلهم يرجعون إلى الله على قدمي اعتقاد أهل السنة والجماعة والأعمال الصالحة على قانون المتابعة بنور هذه الكلمة الباقية.

وقيل (وَجَعَلَهَا) الضمير يعود إلى الله - تعالى - . أي وجعل الله - تعالى - بفضله وكرمه، كلمة التوحيد، باقية في عقب إبراهيم، وفي ذريته من بعده، بأن جعل من ذريته الأنبياء والصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - في سورة الصافات (سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ).

وحاصل معنى الآية: أنه تعالى جعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم عليه السلام ليدعو الموحد المشرك، نسلاً بعد نسل، فيرجع المشرك عن شركه، فلم يرجعوا، بل اغترؤوا بما مُتّعوا به، فاستمروا على الشرك حتى جاءهم الحق، فكفروا وأصرّوا.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفي قوله **(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ)** إشعار بأن وحدانية الله كانت غير مجهولة للمشركين ، فيتجه أن الدعوة إلى العلم بوجود الله ووحدانيته كانت بالغة لأكثر الأمم بما تناقلوه من أقوال الرسل السابقين ، ومن تلك الأمم العرب ، فيتجه مؤاخذه المشركين على الإشراك قبل بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنهم أهملوا النظر فيما هو شائع بينهم أو تغافلوا عنه أو أعرضوا .

الثانية : قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: كان إبراهيم عليه السلام إمام أهل التوحيد، لقوله تعالى: **(إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)** [البقرة: 124]، وجعل الدعوة إليه في عقبه إلى يوم القيامة، وهو على قسمين:

توحيد البرهان، وتوحيد العيان. وقد جاءت بعده الرسل بالأمرين معاً، وقام بها خلقاؤهم بعدهم، فقام بالأول العلماء.

وقام بالثاني خواص الأولياء، أهل التربية الحقيقية، ولا ينال من توحيد العيان شيئاً من علق قلبه بالشهوات الجسمانية، والخطوط الفانية، كما قال الششتري رضي الله عنه:

تَرْكْنَا حُظُوظًا مِنْ حَضِيضِ حُظُونِنَا مَعَ الْمَقْصِدِ الْأَقْصَى إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَسْنَى

الثالثة : نقل القرطبي هن ابن العربي قوله : إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين:

إحدهما : في قوله : إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد .

ثانيهما : قوله : (واجبني وبني أن نعبد الأصنام) وقيل : بل الأولى قوله : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) فكل أمة تعظمه ، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو نوح .

الفائدة الرابعة : قال في أضواء البيان : وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين :

أحدهما : وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيوصي به السلف منهم الخلف، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ } [البقرة: 130-132] الآية.

والأمر الثاني : هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح، كقوله تعالى (وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) [البقرة: 124]، أي واجعل من ذريتي أيضاً أئمة، وقوله تعالى عنه (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) (إبراهيم: 40) وقوله عنه (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) [إبراهيم: 35] وقوله عنه هو وإسماعيل (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) [البقرة: 128] إلى قوله (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ) [البقرة: 129].

وقد أجاب الله دعاءه في بعث الرسول المذكور ببعثه محمداً صلى الله عليه وسلم.

ولذا جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك؟، قال: **(نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى)** رواه أحمد والطبراني وابن حبان والحاكم، والبيهقي في شرح السنة .

الفصل الثاني عشر

لا إله إلا الله هي كلمة العدل

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضعين وهما :

قول الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [النحل: 90].

وقوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) [الأعراف - 29].

وحديثنا حول الآية سيكون في مبحثين: المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) فيه أربعة أقوال بل هي خمسة:

أحدها : أنه شهادة أن لا إله إلا الله ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه الحق ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى ، قاله سفيان بن عيينة .

والرابع : أنه القضاء بالحق ، ذكره الماوردي .

الخامس : قال أبو سليمان : العدل في كلام العرب : الإنصاف ، وأعظم الإنصاف :
الاعتراف بالمنعم بنعمته .

وقال البيضاوي رحمه الله تعالى : قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) بِالتَّوَسُّطِ فِي الْأُمُورِ
اغْتِنَادًا كَالْتَّوْحِيدِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْرِيكِ، وَالْقَوْلُ بِالْكَسْبِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مَحْضِ الْجَبْرِ
وَالْقَدَرِ، وَعَمَلًا كَالْتَّعَبُّدِ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ الْبَطَالَةِ وَالتَّرَهُّبِ، وَحُلُقًا كَالْجُودِ الْمُتَوَسِّطِ
بَيْنَ الْبُخْلِ وَالتَّبَذِيرِ. (وَالْإِحْسَانِ) إِحْسَانِ الطَّاعَاتِ، وَهُوَ إِمَّا بِحَسَبِ الْكَيْفِيَّةِ كَالْتَّطَوُّعِ بِالنَّوَافِلِ
أَوْ بِحَسَبِ الْكَيْفِيَّةِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ
تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) .

وقوله تعالى : (وَإِنِّي أَنَا ذِي الْقُرْبَى) أي : وإعطاء القريب حقه، وتخصيص الأقارب بالذكر لخطر
حقهم؛ ولذلك قال تعالى : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا
أَرْحَامَكُمْ) [محمد: 22]، كأن الإسلام إنما جاء لصلة الأرحام، فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَكَأَنَّمَا يُحِبُّ
قَطِيعَةَ الرَّحِمِ. **ولهذا قال أكثم بن صيفي لقومه لما بلغته آية :** (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)
إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمتها، فكونوا في هذا الأمر رؤوسًا، ولا تكونوا
أذنانًا.

وقوله تعالى : (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) أي : ويطلب الكف عن كل ما قبح وزادت شناعته
من الذنوب؛ كالزنا ونحوه. **(وَالْمُنْكَرِ) :** الإثم وعموم المعاصي التي يأبأها الشرع ويُنكرها، وهو
من عطف العام على الخاص.

(والبغي) : الظلم، وقيل: الكبر، وتخصيصه بالذكر للمبالغة في الزجر عنه؛ لأنه سريع المصراع،
وهذا كقوله: **(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ)**
[الأعراف: 33]. **وقوله تعالى : (يَعْظُمُكُمْ) أي :** يرشدكم ويذكركم بما يذكره لكم من الأوامر والنواهي،

فإنها كافية في باب الموعدة والتذكير **(لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)** أي: إرادة أن تتعظوا، والجملة تذييل للتعليل.

وهذه أجمع آية في القرآن لفعل الخير وترك الشر، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وبسبب هذه الآية أسلم عثمان بن مظعون رضي الله عنه³¹.

³¹ - مقال بعنوان : تفسير آية: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) – للعلامة عبد القادر بن شيبه الحمد – موقع طريق الإسلام.

المبحث الثاني

المعنى الإجمالي للآية الكريمة: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)

وقوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [الأعراف - 29].

قوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ):

قال الرازي : يدل على أن الشيء يكون في نفسه قسطا لوجوه عائدة إليه في ذاته ، ثم إنه تعالى يأمر به لكونه كذلك في نفسه.

(بِالْقِسْطِ): قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله ، **والدليل عليه** قوله : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) (آل عمران : 18) وذلك القسط ليس إلا شهادة أن لا إله إلا الله . فثبت أن القسط ليس إلا قول لا إله إلا الله .

وقال عطاء والسدي رحمهما الله تعالى (بالقسط) بالعدل وبما ظهر في المعقول كونه حسنا صوابا . إذا عرفت هذا فنقول : **إنه تعالى أمر في هذه الآية بثلاثة أشياء :**

أولها : أنه أمر **بالقسط** ، وهو قول : لا إله إلا الله . وهو يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وأفعاله وأحكامه ، ثم على معرفة أنه واحد لا شريك له .

قوله تعالى : (وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) أي: توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصا **الصلاة** أقيموها، ظاهرا وباطنا، ونقوها من كل نقص ومفسد.

قوله تعالى : (وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له. والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه. قاله السعدي .

قوله تعالى : (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) : قال الرازي : وفيه قولان :

القول الأول : قال ابن عباس : (كَمَا بَدَأَكُمْ) خلقكم مؤمنا أو كافرا (تَعُودُونَ) فبعث المؤمن مؤمنا ، والكافر كافرا ، فإن من خلقه الله في أول الأمر للشقاوة ، أعمله بعمل أهل الشقاوة ، وكانت عاقبته الشقاوة ، وإن خلقه للسعادة أعمله بعمل أهل السعادة ، وكانت عاقبته السعادة .

والقول الثاني : قال الحسن ومجاهد : (كَمَا بَدَأَكُمْ) خلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئا ، كذلك تعودون أحياء.

والقول الثالث : كما بدأكم لا تملكون شيئا ، كذلك تعودون ، ذكره الماوردي .

قال الرازي رحمه الله تعالى : واعلم أنه تعالى أمر في الآية أولا بكلمة "القسط" وهي كلمة لا إله إلا الله ، ثم أمر بالصلاة ثانيا ، ثم بين أن الفائدة في الإتيان بهذه الأعمال ، إنما تظهر في الدار الآخرة ، ونظيره قوله تعالى في سورة طه لموسى عليه السلام : (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها) (طه : 14 - 15) .

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآية الكريمة (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)

الأولى : قال الرازي : قول الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) الأحوال التي وقع التكليف بها ؛ إما الاعتقادات وإما أعمال الجوارح .

أما الاعتقادات : فالعدل في كلها واجب الرعاية :

فأحدها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن المراد بالعدل هو قول لا إله إلا الله ، وتحقيق القول فيه أن نفي الإله تعطيل محض ، وإثبات أكثر من إله واحد تشريك وتشبيه ، وهما مذمومان ، والعدل : هو إثبات الإله الواحد ، وهو قول لا إله إلا الله .

وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح ، فنذكر ثلاثة أمثلة منها :

أحدها : أن قوما من نفاة التكالييف يقولون : لا يجب على العبد الاشتغال بشيء من الطاعات ، ولا يجب عليه الاحتراز عن شيء من المعاصي ، وليس لله عليه تكليف أصلا ، وقال قوم : إنه يجب على الإنسان أن يجتنب عن كل الطيبات وأن يبالغ في تعذيب نفسه وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع إليه حتى أن المانوية يخلصون أنفسهم ، ويحتزون عن التزوج ، ويحتزون عن أكل الطعام الطيب ، والهند يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل ، فهذان الطريقتان مذمومان ، والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم .

وثانيها : أن التشديد في دين موسى عليه السلام غالب جدا ، والتساهل في دين عيسى عليه السلام غالب جدا ، والوسط العدل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

قيل : كان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة ، وفي شرع عيسى عليه السلام العفو . أما في شرعنا فإن شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة ،

وإن شاء استوفى الدية ، وإن شاء عفا . وأيضا شرع موسى يقتضي الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها ، وشرع عيسى يقتضي حل وطء الحائض ، والعدل ما حكم به شرعنا ، وهو أنه يحرم وطؤها ؛ احترازا عن التلطيح بتلك الدماء الخبيثة ، أما لا يجب إخراجها عن الدار .

وثالثها : أنه تعالى قال : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) [البقرة : 143] . يعني متباعدين عن طرفي الإفراط والتفريط في كل الأمور ، وقال : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) [الفرقان : 67] . وقال : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) [الإسراء : 29] . ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات ، قال تعالى : (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) [طه : 2] . ولما أخذ قوم في المساهلة قال : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) [المؤمنون : 115] . والمراد من الكل رعاية العدل والوسط .

الثانية : قال الرازي : الإحسان هو الزيادة على العدل : وقد تكون إحسانا ، وقد تكون إساءة .

مثاله : أن العدل في الطاعات هو أداء الواجبات . أما الزيادة على الواجبات فهي أيضا طاعات وذلك من باب الإحسان ، وبالجمله فالمبالغة في أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الإحسان .

والدليل عليه : أن جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان قال : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) فإن قالوا : لم سمي هذا المعنى بالإحسان؟ قلنا : كأنه بالمبالغة في الطاعة يحسن إلى نفسه ويوصل الخير والفعل الحسن إلى نفسه ، والحاصل أن العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات ، والإحسان عبارة عن الزيادة في تلك الطاعات

بحسب الكمية وبحسب الكيفية ، وبحسب الدواعي والصوارف ، وبحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية ، فهذا هو الإحسان .

واعلم أن الإحسان بالتفسير الذي ذكرناه دخل فيه التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، ومن الظاهر أن الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة ، وأشرفها وأجلها صلة الرحم ، لا جرم أنه سبحانه أفرد بالذكر فقال : (**وإيتاء ذي القربى**) فهذا تفصيل القول في هذه الثلاثة التي أمر الله تعالى بها .

الثالثة : قال الرازي : وأما الثلاثة التي نهى الله عنها ، وهي الفحشاء والمنكر والبغي فنقول : إنه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة ؛ **وهي الشهوانية البهيمية ، والغضبية السبعية ، والوهمية الشيطانية ، والعقلية الملكية** ؛ وهذه القوة الرابعة ؛ أعني العقلية الملكية - لا يحتاج الإنسان إلى تأديبها وتهذيبها ؛ لأنها من جواهر الملائكة ، ومن نتائج الأرواح القدسية العلوية.

إنما المحتاج إلى التأديب وتهذيب تلك القوى الثلاثة الأول :

أما القوة الشهوانية : فهي إنما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية ، وهذا النوع مخصوص باسم الفحش . ألا ترى أنه تعالى سمى الزنا فاحشة ، فقال : (**إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا**) [الإسراء : 32] . فقله تعالى : (**وينهى عن الفحشاء**) المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة .

وأما القوة الغضبية السبعية : فهي أبدا تسعى في إيصال الشر والبلاء والإيذاء إلى سائر الناس ، ولا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة ، فالمنكر عبارة عن الإفراط الحاصل في آثار القوة الغضبية .

وأما القوة الوهمية الشيطانية : فهي أبدا تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع وإظهار الرياسة والتقدم ، وذلك هو المراد من البغي ، فإنه لا معنى للبغي إلا التناول على الناس والترفع عليهم.

فظهر بما ذكرنا أن هذه الألفاظ الثلاثة منطبقة على أحوال هذه القوى الثلاثة ، ومن العجائب في هذا الباب أن العقلاء قالوا : أخس هذه القوى الثلاثة هي الشهوانية ، وأوسطها الغضبية وأعلىها الوهمية .

والله تعالى راعى هذا الترتيب ، فبدأ بالفحشاء التي هي نتيجة القوة الشهوانية ، ثم بالمنكر الذي هو نتيجة القوة الغضبية ، ثم بالبغي الذي هو نتيجة القوة الوهمية . فهذا ما وصل إليه عقلي وخاطري في تفسير هذه الألفاظ ، فإن يك صوابا فمن الرحمن ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله عنه بريئان ، والحمد لله على ما خصنا بهذا النوع من الفضل والإحسان ، إنه الملك الديان .

الرابعة : قال ابن العربي رحمه الله تعالى:

العدل بين العبد وربه إثثار حقه تعالى على حق نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواج والامتنال للأوامر.

وأما العدل بينه وبين نفسه، فمنعها مما فيه هلاكها، قال الله تعالى: (ونهى النفس عن الهوى) وعزوب الأطماع عن الاتباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى.

وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر، والإنصاف من نفسه لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل، ولا في سر ولا في علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى.

الخامسة : قال البقاعي رحمه الله تعالى : (إن الله) ؛ أي: الملك المستجمع لصفات الكمال؛ (يأمر بالعدل) ؛ وهو الإنصاف؛ الذي لا يقبل عمل بدونه؛ وأول درجاته التوحيد؛ الذي بنيت السورة عليه.

والعدل يعتبر تارة في المعنى؛ فيراد به هيئة في الإنسان تطلب بها المساواة؛ **وتارة في العقل؛** فيراد به التقسيط القائم على الاستواء؛ **وتارة يقال: هو الفضل كله؛** من حيث إنه لا يخرج شيء من الفضائل عنه؛ **وتارة يقال: هو أكمل الفضائل؛** من حيث إن صاحبه يقدر على استعماله في نفسه؛ وفي غيره؛ وهو ميزان الله المبرأ من كل زلة؛ وبه يستتب أمر العالم؛ وبه قامت السماوات والأرض؛ **وهو وسط؛ كل أطرافه جور؛** وبالجمله الشرع مجمع العدل؛ وبه تعرف حقائقه؛ ومن استقام على نهج الحق فقد استتب على منهج العدل؛ ذكره الرازي في "اللوامع".

السادسة : قال أبو زهرة في زهر التفاسير :

العدل الذي يأمر الله تعالى به ليس هو فقط الإنصاف بين الناس المأمور به في قوله تعالى: وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل بل إن العدل له شعب ثلاث:

1 - العدل في حق الله تعالى بشكر نعمته، والقيام بما أمر من فرائض، والانتفاء عما نهي من منهيّات، فذلك عدل مع الله؛ لأنه في جملة من شكر النعمة، وهو عدل لأنه قيام بالواجب نحو ما أعطى سبحانه وتعالى.

2 - وعدل في ذات نفسه بأن يكون مستقيم النفس، لا انحراف ولا تجانف، ولا ميل عن الطريق السوي.

3 - وعدل مع الناس بأن يحب لهم ما يحب لنفسه، كما قال صلى الله عليه وسلم: (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك)³²، وبأن ينتصف للناس من نفسه، ولا يلجئهم إلى الحاكم. ثم أخيرا: إنصاف الناس إذا حكم.

السابعة: إن الله - يأمركم - أيها المسلمون - أمرا دائما وواجبا ، أن تلتزموا الحق والإنصاف في كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم ، وأن تلتزموا التسامح والعفو والمراقبة لله - تعالى - في كل أحوالكم .

كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة ، ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر . لأن هذا الفضائل متى سرت بينكم ، نلت السعادة في دينكم ودنياكم ، إذ بالعدل ينال كل صاحب حق حقه ، وبالإحسان يكون التحاب والتواد والتراحم ، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون.

الثامنة : قال أبو زهرة أيضا : قوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ):

القسط هنا يفسر بأنه العدل، والعدل كل أمر في ذاته مستقيم تقره العقول ولا ينكره الذوق السليم، فالعدل يشمل العدل في الحكم، والعدل في الأقوال والأفعال، والاعتدال في كل ما يختار في الأمور، فلا يمتد إلى الحرمان، ولا إلى الاعتداء بله الإفحاش؛ ولذلك قال بعض المفسرين: إنه يشمل كل ما أمر الله به، فما يأمر إلا بما هو عدل، وما نهى إلا عما هو ظلم.

32- الحديث ورد بلفظ (وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا)، وهو جزء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم (اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ وَ أَحْسِنُ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَ أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا ، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحْكَ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحْكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَ كُنْ قَنَعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَ أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَ أَحْسِنْ مَجَاوِرَةً مِنْ جَاوِرِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا) قال الألباني في السلسلة الصحيحة : حسن لشواهده.

التاسعة: قال ابن عاشور: القسط : العدل وهو هنا العدل بمعناه الأعم ، أي الفعل الذي

هو وسط بين الإفراط والتفريط في الأشياء ، وهو الفضيلة من كل فعل ، فالله أمر بالفضائل وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض وأنه حسن مستقيم نظير قوله : (وكان بين ذلك قواما) فالتوحيد عدل بين الإشراك والتعطيل ، والقصاص من القاتل عدل بين إطلال الدماء وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل لأجل جناية واحد من القبيلة لم يقدر عليه .

وأمر الله بالإحسان ، وهو عدل بين الشح والإسراف ، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائما للصلاح عاجلا وآجلا ، أي سالما من عواقب الفساد .

الفصل الثالث عشر

لا إله إلا الله هي القول السديد

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد ، وهو :

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب 70 - 71] .

وحدثنا حول الآية سيكون في مبحثين: المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة (وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)

قال القرطبي : قال تعالى : (وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) قال عكرمة وابن عباس رضي الله عنهما: القول السداد لا إله إلا الله .

وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه .

وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره .

وقيل : هو الإصلاح بين المتشاجرين ؛ وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض. والقول السداد : يعم الخيرات ، فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك .

وقال ابن الجوزي : قوله تعالى : (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) فيه قولان:

أحدهما: يتقبل حسناتكم، قاله ابن عباس .

والثاني: يزكي أعمالكم، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور
قاله السعدي .

وقال ابن كثير : (وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) أي : مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم
أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أي : يوفقهم للأعمال الصالحة
، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها.

قوله تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) طاعة الله هي طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن
جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع ؛ فإنه إن يفعله الواحد اتخذ عند الله عهدا وعند الرسول
صلى الله عليه وسلم يدا . قاله الرازي .

قوله تعالى : (فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) : وذلك أنه يجاز من النار ، ويصير إلى النعيم المقيم.

وقال الرازي : جعله عظيما من وجهين :

أحدهما : أنه نجا من عذاب عظيم ، والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب ، حتى إن من
أراد أن يضرب غيره سوطا ثم نجا منه لا يقال فاز فوزا عظيما ؛ لأن العذاب الذي نجا منه لو
وقع ما كان يتفاوت الأمر تفاوتا كثيرا .

والثاني : أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدي .

وقيل : (فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) أي: نال الخير وظفر به .

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال القاشاني: السداد في القول، الذي هو الصدق والصواب، هو مادة كل سعادة، وأصل كل كمال، لأنه من صفاء القلب وصفائه يستدعي جميع الكمالات، وهو وإن كان داخلا في التقوى المأمور بها، لأنه اجتناب من رذيلة الكذب، مندرج تحت التزكية التي عبر عنها بالتقوى، لكنه أفرد بالذكر للفضيلة، كأنه جنس برأسه، كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة.

الثانية : قال القاشاني أيضا: يصلح لكم أعمالكم: أي بإمداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم، لأنه لا يصح عمل ما بدون الصدق أصلا. وبه يصلح كل عمل.

الثالثة : قال ابن عاشور : ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء ، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من ماثور أقوال الأنبياء والعلماء . فقراءة القرآن على الناس من القول السديد .

ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من القول السديد، ففي الحديث : (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها). وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأئمة الفقه. **ومن القول السديد تمجيد الله والثناء عليه** مثل التسبيح . ومن القول السديد الآذان والإقامة قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) في سورة فاطر .

والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلق بها .

المبحث الثالث

ضوابط القول السديد ودوره في إصلاح الدين والدنيا

إن القول السديد المذكور في الآية آفة الذكر، كما ذكر ذلك المفسرون، هو القول الصائب الذي تحققت مصلحته أو ترجحت مفسدته، والقول السديد هو الذي دل عليه قول الحق تبارك وتعالى في سورة النساء: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء:114]، وإلى هذه الآية جاء الإرشاد النبوي الذي ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت).

أولاً : ضوابط القول السديد:

1/ ألا يتكلم الإنسان إلا بما يُرضي رب العالمين، يجهل كثير من الناس مبلغ تأثير الكلام في قلوب الناس؛ فلا ينزهون ألسنتهم عن السوء من القول، ولا أسماعهم عن الإصغاء إليه، وما يعقل كنه ذلك إلا العالمون الراسخون، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم) أخرجه مالك.

وقد قال معاذ رضي الله عنه: «أونحن مؤاخذون بما نقول يا رسول الله؟»، قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم» أخرجه الترمذي.

2/ إذا ترجح لدى المتكلم أن قوله ليس فيه مصلحة فعلية أن يكف؛ وذلك لما ينتج عنه من الضرر؛ لأن زلة اللسان ليست كزلة الرجل، فقد لا يبرأ منها.

وقال الإمام الشافعي لصاحبه الربيع: «يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعينك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها»، ونُقِلَ عن الشافعي أنه قال: «المؤمن إذا أراد أن ينور الله قلبه فليترك الكلام فيما لا يعنيه».

وقال معروف الكرخي: «الكلام فيما لا يعينك خذلان من الله».

3/ ومن الضوابط أن يتمثل قول علي رضي الله عنه: «خير الكلام ما قل ودل، ولم يَطُنْ فَيُمل، وعليه أن يقول خيرًا أو ليصمت».

فإن من أعظم الأمور التي تخالف القول السديد إطلاق العنان للسان بالكلام في كل شيء، بلا روية أو تأني أو تثبت أو فائدة.

وإذا تأملنا نصوص القرآن نجد ورود مصطلح (قَوْلًا سَدِيدًا) نلاحظ أنه مسبوق بالدعوة إلى التقوى، كما أن المأمور بالسداد هم المؤمنون لا غيرهم.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا)؛ أي: في كل ما تأتون وما تذررون، لا سيما في ارتكاب ما يكرهه (قَوْلًا سَدِيدًا)؛ أي: قويمًا حقًا صوابًا.

وقال تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) [الإسراء: 53].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) أخرجه أحمد، فالتحري في المنطق منهج الصادقين، وطريقة المؤمنين الصالحين، ومن علامات فضل الإنسان وصلاحه صلاح قوله وفعله، ومن لم يعتن بما يقول ويعاتب نفسه على زلات لسانه فهو ناقص الدين والعقل والتجربة.

وهل يَعْقِل هذا التوجيه أصحابُ الإعلام وحملة الأقلام، وأرباب الصحافة والأخبار، ومرتادو منصات التواصل الاجتماعي، فالله تعالى أمر المؤمنين أن يقولوا قولاً مستقيماً نافعاً، ووعدهم أن يثيبهم عليه بأن يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم فيكونوا من الفائزين بجنت النعيم، وقال تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ) [فاطر: 10].

ثانياً : أثر القول السديد في إصلاح دين العبد :

يخاطب الله عز وجل هنا المؤمنين بصفة خاصة، وهو نداء محبة وخير يقرب من الله تعالى، وهذا النداء وأمثاله في القرآن الكريم، يقول عنه الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله تعالى يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، فأرעהها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه). أخرجه أحمد.

هذا النداء المفعم بالإيمان الخالص يوجه فيه الله تعالى المؤمنين بتقواه، فهي خير زاد وبوابة الخير والصلاح في الدنيا والآخرة، ولِعِظَم قدرها ورفعة منزلتها ودرجتها، فقد وردت في القرآن الكريم عشرات المرات، وهذا يدل دلالة واضحة على أهميتها ومكانتها من جهة، والحرص والعناية على الالتزام بها من جهة أخرى.

ثالثاً : تتضمن الآيتان الكريمتان مضامين تربوية دينية عظيمة، ومنها:

أولاً: تكريم الله تعالى ومحبة للمؤمنين من عباده، وهذا يتطلب من المكرميين بهذا النداء الإلهي العظيم حُسن الاستجابة وحُسن الإذعان؛ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) [الأنفال: 24].

وعلى المربين والمعلمين والدعاة والمصلحين العناية بالتلطف مع الناشئة والشباب والمتعلمين، وألا يسمع منهم إلا أفضل القول وأحسنه، فهو مدعاة للقبول وحسن

الاستجابة، مع تأكيد أهمية طاعة الله تعالى والاستجابة لأوامره، واجتناب نواهيه في السر والعلن.

ثانيًا: الاهتمام بتحري القول السديد، ويشمل: (القول القصد والحق، القول الصدق، القول العدل، القول المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، القول المحدد اتجاهه وهدفه، القول الذي يراد به وجه الله تعالى، القول الموافق ظاهره باطنه، الإصلاح بين المتشاجرين، لا إله إلا الله).

إن تحري القول السديد بما يشتمل عليه من معانٍ متنوعة سبق ذكرها - سببٌ لنشر المحبة والوُدِّ بين الناس، لما يحمله من صفاء ونقاء في التعامل خالٍ من المكر والخداع والغيبة والنميمة والألفاظ النابية التي تعكّر صفو الحياة، وتنتشر العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد؛ لأنها ذات تأثير سلبي على نخوض الأمة وتقدمها.

وعلى المؤسسات التربوية بأنواعها المختلفة تفعيل القول السديد، وجعله واقعًا معيشًا وسلوكًا ممارسًا يلتزم به الجميع، والتنديد والإنكار الشديدان لكل من يخالفه.

ثالثًا: التوجيه بتقوى الله تعالى يشمل الجنسين الرجال والنساء على حدٍ سواء، وثبت ذلك التوجيه في الحديث الشريف الذي أورده ابن كثير رحمه الله في تفسيره، وسبقت الإشارة إليه آنفًا، وينبغي أن يلتزم النساء بتقوى الله تعالى وبالقول السديد، فمكانتهم في المجتمع عظيمة فهي الأم والأخت والزوجة والبنات، وهنّ عماد تربية الأولاد، وبصلاحهن تصلح الأسرة، ويصلح المجتمع بخاصة والأمة بعامّة.

رابعًا: إثابة المحسن على العمل المثمر النافع، وإيقاع الجزاء المناسب على المسيء، وهذا هو مبدأ الثواب والعقاب، وهو مبدأ تربوي مهم جدًّا يجدر بالمربين والمصلحين مراعاته والاهتمام به، مع مراعاة الحكمة في تطبيقه بحسب الحاجة والقدر المناسب من غير إفراط أو تفريط.

خامسًا: ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم التوجيه بقراءة هاتين الآيتين ضمن آيات خطبة النكاح لعظيم قدرها، ولما تحتويه من معانٍ سامية مفيدة في إصلاح الأسرة والمجتمع³³.

سادسًا: وجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) [النساء: 59]، وبذلك تحصل الطمأنينة والاستقرار النفسي، والسعادة الدنيوية مقابل التجاوب والالتزام بذلك؛ قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد: 28]؛ لأن الإعراض عن طاعة الله تعالى يُسبب ضيق العيش والهم والغم، بل إن جل الأمراض النفسية والعصبية مردها البعد والإعراض عن طاعة الله تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [طه: 124]، وقال تعالى فيمن آمن وعمل الصالحات: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [النحل: 97]³⁴.

³³ - نداءات الرحمن لأهل الإيمان - للعلامة أبي بكر الجزائري - ص: 9.

³⁴ - مقال: القول السديد فيه صلاح الدنيا والدين - د. عبدالرحمن بن سعيد الحازمي - شبكة الألوكة؛ ومقال: القول السديد - تيار الإصلاح - بتصرف.

الفصل الرابع عشر

لا إله إلا الله هي العهد المأخوذ لقبول الشفاعة

ورد هذا اللقب في موضع واحد ، وهو : قول الله تعالى : (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) [مريم: 87].

وحديثنا حول الآية سيكون في مبحثين: المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

قال ابن كثير : قوله تعالى : (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ) أي : ليس لهم من يشفع لهم ، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبرا عنهم : (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) [الشعراء : 100 - 101] .

وقوله : (إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) : هذا استثناء منقطع ، بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : العهد : شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله ، عز وجل .

وقال القاسمي : واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح.

وقال في أضواء البيان : قال الله تعالى : (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) [مريم: 87]. أي : لا يملك المجرمون الشفاعة ، أي : لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب . وهذا الوجه من التفسير تشهد له آيات من كتاب الله ، كقوله

تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) [المذثر: 48] ، وقوله تعالى : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم [الشعراء : 100 - 101] .

وقوله تعالى : (وأندرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) [غافر : 18] .

وقوله : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) [الأنبياء : 28] مع قوله : (ولا يرضى لعباده الكفر) [الزمر : 7] إلى غير ذلك من الآيات .

وهذا الوجه يفهم منه بالأحرى أن المجرمين لا يشفعون في غيرهم ؛ لأنهم إذا كانوا لا يستحقون أن يشفع فيهم غيرهم لكفرهم فشفاعتهم في غيرهم ممنوعة من باب أولى.

وعلى كون الواو في لا يملكون راجعة إلى المجرمين فالاستثناء منقطع و(من) في محل نصب، والمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا يملكون الشفاعاة ، أي : بتمليك الله إياهم وإذنه لهم فيملكون الشفاعاة بما ذكرنا ويستحقها به المشفوع لهم ، قال تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) [البقرة : 255] وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) [الأنبياء : 28] وقال : (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) [النجم : 26] .

وقد بين تعالى في مواضع آخر : أن المعبودات التي يعبدونها من دون الله لا تملك الشفاعاة ، وأن من شهد بالحق يملكها بإذن الله له في ذلك ، وهو قوله تعالى : (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعاة إلا من شهد بالحق) [الزخرف: 86] ، أي : لكن من شهد بالحق يشفع بإذن الله له في ذلك ، وقال تعالى : ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء الآية [الروم : 12 - 13] وقال تعالى : (ويقولون هؤلاء شفعائنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا

يعلم) الآية [يونس : 18] ، والأحاديث في الشفاعة وأنواعها كثيرة معروفة ، والعلم عند الله تعالى .

ثم قال الشنقيطي رحمه الله تعالى : والذي يظهر لي أن العهد في الآية يشمل الإيمان بالله وامتنال أمره واجتناب نهيه ، خلافا لمن زعم أن العهد في الآية كقول العرب : عهد الأمير إلى فلان بكذا ، أي : أمره به ، أي : لا يشفع إلا من أمره الله بالشفاعة ، فهذا القول ليس صحيحا في المراد بالآية وإن كان صحيحا في نفسه ، وقد دلت على صحته آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) [البقرة : 255] ، وقوله : (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) [النجم : 26] ، وقوله : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) [سبا \ 23] ، وقوله : (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن) [طه : 109] .

المبحث الثاني

أنواع الشفاعة في ضوء الكتاب والسنة المطهرة³⁵

عندما يشتد البلاء بالناس في الموقف العظيم ويطول عليهم زمن وقوفهم مع ما يعانونه من الحر والأهوال والكربات عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (تلا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآيَةَ: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: 6]، فقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ بَكُمْ إِذَا جَمَعَكُمْ اللَّهُ كَمَا يُجْمَعُ النَّبِيُّ فِي الْكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ؟!)³⁶.

فبحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا لهم عند ربهم كي ينفس عنهم ما هم فيه من البلاء وليأتي سبحانه لفصل القضاء بين العباد ، فيأتون آدم فيعتذر ، فيأتون نوحاً فيعتذر ، فيأتون إبراهيم فيعتذر ، فيأتون موسى فيعتذر ، فيأتون عيسى فيعتذر ، فيأتون نبينا صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها ، أنا لها . فيشفع في أهل الموقف لفصل القضاء وذلك من المقام المحمود الذي وعده الله إياه في قوله : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) [الإسراء: 79].

وإليك سياق حديث الشفاعة الطويل ، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ

35 - موقع الإسلام سؤال وجواب.

36 - أخرجه الحاكم المستدرك على الصحيحين وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله ثقة ؛ وقال الألباني في السلسلة الصحيحة - (2817): له شواهد.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَاسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مُحَمَّدٌ
أَحْمَدُهُ بِمَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ
رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمِّي أُمِّي فَيَقُولُ انْطَلِقْ
فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُوذُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ
الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ
تُشَفَّعَ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمِّي أُمِّي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ
خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُوذُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا
فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمِّي
أُمِّي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ
فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ .

فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالْحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي
خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَنَا فَقُلْنَا لَهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ
جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَلَمْ نَرِ مِثْلَ مَا حَدَّثْنَا فِي الشَّفَاعَةِ ، فَقَالَ: هَيْهَ ،
فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ فَانْتَهَى إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ فَقَالَ : هَيْهَ فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا فَقَالَ لَقَدْ
حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَا أَذْرِي أَنَسِي أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا ، قُلْنَا : يَا أَبَا سَعِيدٍ
فَحَدَّثْنَا ، فَضَحِكَ وَقَالَ : خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدَّثَنِي
كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ قَالَ : (ثُمَّ أَعُوذُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقَالُ يَا
مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَقُولُ وَعِزِّي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لِأَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
(رواه البخاري .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرَ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ النَّاسُ : أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ).

ثم ذكر الحديث إلى قوله : (فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمِّي يَا رَبِّ أُمِّي يَا رَبِّ فَيَقَالُ يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمَيْرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى) رواه البخاري.

فهذه هي الشفاعة العظمى في أرض الموقف وهي شفاعة لفصل القضاء ، والشفاعة يوم القيامة على قسمين:

- 1- شفاعة مقبولة أو مثبتة وهي ما أثبتته النصوص الشرعية وسيأتي تفصيلها .
- 2- شفاعة مردودة أو منفية وهي الشفاعة المنفية في نصوص الكتاب والسنة وسيأتي ذكرها.

فالشفاعة المقبولة أنواع :

- 1- **الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود** الذي يرغب فيه الأولون والآخرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشفع لهم عند ربهم كي يخلصهم من هول المحشر وسبق بيانها.

2- الشفاعة في أهل الكبائر من الموحدين الذين دخلوا النار أن يخرجوا منها. عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**) صحيح سنن الترمذي.

3- الشفاعة لأناس من أهل الإيمان قد استحقوا الجنة أن يزدادوا رفعة ودرجات في الجنة: ومثال ذلك ما رواه مسلم رحمه الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا لأبي سلمة فقال: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقْبِهِ فِي الْغَابِرِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ**).

4- الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب : وهذا النوع ذكره بعض العلماء واستدل له بحديث أبي هريرة الطويل في الشفاعة وفيه : (**ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلِّ تَعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ فَأَرْفَعْ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ**) رواه البخاري ومسلم.

5- شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب ، فيخفف عنه عذاب النار . وهي خاصة منه صلى الله عليه وسلم وخاصة في عمه أبي طالب .

فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: (**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه**) رواه البخاري ومسلم.

6- شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم للإذن للمؤمنين بدخول الجنة : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بَكَ أَمَرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**) رواه مسلم.

والشفاعة لأرباب الذنوب والمعاصي ليست خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم بل يشاركه فيها الأنبياء والشهداء والعلماء والصلحاء والملائكة ، وقد يشفع للمرء عمله الصالح لكن للنبي صلى الله عليه وسلم من أمر الشفاعة النصيب الأوفر .

وإليك هذا الحديث من أحاديث الشفاعة والدال على عموم الشفاعة في الأنبياء وغيرهم
، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

فذكر الحديث ، حتى ذكر مرور المؤمنين على الصراط وشفاعتهم في إخوانهم الذين دخلوا النار : (يَقُولُونَ رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ وَيَحْرِمُ اللَّهُ صُورَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيَأْتُوهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا) قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَأَقْرَءُوا (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا) (فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ فَيَقُولُ الْجَبَّارُ بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتَحَشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيُخْرِجُونَ كَأَنَّهُمُ اللَّوْلُؤُ فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عِتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ فَيَقَالُ لَهُمْ لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) رواه البخاري.

والشفاعة يوم القيامة لا تكون إلا إذا توفرت ثلاثة شروط ، دل عليها قوله تعالى : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى).

وقوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) .

وقوله تعالى : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) . وقوله تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وهي :

1-إذن الله سبحانه وتعالى للشافع أن يشفع .

2-ورضاه سبحانه عن الشافع .

3-ورضاه عن المشفوع فيه .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الناس لا تقبل شفاعتهم يوم القيامة ، منهم الذين يكثرون اللعن .

روى مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

أما الشفاعة المردودة المنفية :

فهي ما انتفى فيه شرط الشفاعة المقبولة من الإذن أو الرضى ، كالشفاعة التي يعتقدونها أهل الشرك في معبوداتهم وألهتهم فإنهم ما عبدوهم إلا لاعتقادهم أنها تشفع لهم عند الله وأنها واسطة بينهم وبينه سبحانه قال تعالى : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) فبين الله أن هذه الشفاعة غير حاصلة ولا واقعة وهي غير مجدية ولا نافعة يقول تعالى : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) ويقول : (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) .

ويقول سبحانه : (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) .

ويقول سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

ولذا فإن الله تعالى لا يقبل شفاعته خليفه إبراهيم في أبيه آزر المشرك عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتْرَةٌ وَغَبْرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي ، فَيَقُولُ أَبُوهُ : فَالْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خَزْيٍ أُخْزِي مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ) رواه البخاري.

المبحث الثالث

الرد على منكري الشفاعة يوم القيامة³⁷

لم تكن الشفاعة مَثَار خلاف بين المسلمين في الأجيال الثلاثة التي أطراها النبي صلى الله عليه وسلم - في الحديث عند الترمذي: (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته).

ولهذا؛ فإن التاريخ لم يحك لنا أن جدالاً قد ثار بين اثنين أو أكثر في جيل من هذه الأجيال الثلاثة، حول ما إذا كانت هناك شفاعة أم لا؟ وما إذا كانت هذه الشفاعة لزيادة الحسنات فحسب، أم لها ونحو السيئات؟ وإنما كان الإجماع قائماً بينهم على ما نزل في شأنها من القرآن، وما ورد من السنة من الأحاديث التي تعددت طرقها، وصححت أسانيدها، وكادت تصل إلى حد التواتر؛ بل وصل بعضها بالفعل.

ومرجع هذا الإجماع هو أن المسلمين كانوا على علم تام ومعرفة كاملة بالأسباب التي من أجلها نزلت آيات القرآن، والظروف التي واكبتها، والأغراض التي رمت إليها، والإيماءات التي تضمنتها تراكيبها.

وصفوة القول: أن الأجيال الثلاثة الآنف الذكر كانت خالية من الجدل حول الشفاعة، وغيرها من الغيبات التي أخبر عنها الكتاب والسنة، والسبب في ذلك - كما سبق - يقينهم أن هذه الغيبات لا مصدر لها إلا الله ورسوله، وليس أمام المؤمنين إلا الإيمان بها كما وردت، أما العقل والاجتهاد، فليس لهما فيها مجال.

³⁷ - من مقال بعنوان: توحيد الألوهية - (23) الشفاعة - للأستاذ محمود العشري - موقع طريق الإسلام باختصار شديد حسب ما يقتضيه المقام.

فلما ذهب العهد الذي أطراه النبي صلى الله عليه وسلم وتبعته عهودٌ فسدت فيها
الذِّمُّ، وانقسم كثير من المسلمين حولها إلى طوائفَ وفِرَق لا يعينها الانتصار للحق بقدر
ما يعينها الانتصار لنحلَّتِها وظهورها على غيرها.

وبعد، فإني أستفيض شيئاً ما في هذه السطور لإحقاق الحق في موضوع الشفاعة، ولدفع
الأوهام والأخطاء التي نُشرت بين الناس، فأقول وبالله التوفيق:

إن من الثوابت العقدية القطعية التي أجمع عليها علماء أهل السنَّة والجماعة: ثبوت
الشفاعة للنبي صلى الله عليه وسلم وللملائكة والصالحين من عباد الله تعالى كما نطق
بذلك القرآن العزيز والسنَّة الصحيحة المتواترة³⁸.

وبذلك انعقد إجماع أئمة الأمة، ولم يشذَّ عنهم إلا المبتدعة من الفرق المارقة، ومن ثمَّ كانت من
المعلوم من الدين بالضرورة.

ولقد كان عجباً عجاباً أن يُفاجئ الأمة الدكتور: مصطفى محمود - وهو الكاتب الذي طالما
أمتعها بكتاباته الأخاذة - بمقالات ثلاثة في جريدة الأهرام؛ الأول بعنوان: "الأغلبية والأقلية"
وذلك في: 1999/4/9 **أنكر فيه الشفاعة**؛ كعقيدة وكأحاديث واردة فيها.

ثم ثنى بآخر بعنوان "حول موضوع الشفاعة" بتاريخ 1999/4/17 بدا فيه للقراء وكأنه
تراجع عن إنكاره المطلق للشفاعة وللأحاديث التي وردت فيها، مُنسجِباً إلى نفي مُقيدٍ أو
جزئيٍّ؛ **بناءً على ردِّ أرسله له الأستاذ الدكتور: عبدالعظيم المطعني**، لكنه ما لبث أن عاد
إلى الإنكار المطلق للشفاعة، وإلى رفض حجية السنَّة، باعتبار أنها ليست محفوظةً بعناية الله
تعالى مثل القرآن، وهذا في مقاله الثالث بعنوان "وما هم بخارجين من النار" المنشور في
1999/5/1.

³⁸ - وقد أثبت كثيراً منها في المحور السابق من هذا المبحث.

ولقد اقترَف كَاتِبُنَا الكَبِير عدَّة أخطاء فادحة في مقالِهِ الأول والأخير بالذات، أثارت حَفِيظَةً جَماهير الأُمَّة عليه واستنكار العلماء؛ لمعارضته للثوابت القطعية المثبتة للشفاعة في الوحيين النيرين من جهة، وإلهداره حرمة السنَّة الصحيحة المتواترة الثبوت من جهة أخرى، ولتحقيقه من شأن "صحيح البخاري" الذي هو أصح كتاب في الأرض بعد كتاب الله - تعالى - في نظر أساطين علماء الأُمَّة العدول من جهة ثالثة. ولكم كنت أتمنى أن يبتعد الدكتور: مصطفى بنفسه عن الشكِّ الذي عانى منه في مستهلِّ تعلُّقه بالفكر.

بادئ ذي بدء أعلن تقديري للرجل وحماسه لما ظنَّ أنه الحق، ولما توهمَّ أنه دِفاع عن التوحيد، كما أسجَّل له فضلُه في دفاعه عن الإيمان بكتاباتهِ المميَّزة، وبرنامجه الممتع العلم والإيمان، ولا يمنعي هذا من ذكر بعض الزلات والأخطاء فيما كتب أخيراً، أدتْ به إلى هذه النتائج المخالفة للإسلام منهجاً وموضوعاً، وأدعوه إلى الرجوع عنها - إن لم يكن رجع - وأسأل الله - تعالى - لي وله ولكل باحث - متجَرِّد - عن الحقيقة الهداية والتَّوفيق.

ومن ثمَّ فأني أعرض بالنقد الخالص لوجه الله - تعالى - لما جاء في مقالات الدكتور: مصطفى، ليس ردًّا عليه فحسب، وإنما ردًّا على كل من يتبنَّى رأيه وقال به في هذه المسألة أو في غيرها.

إن مضمون مقالاته إنكاران لثابتين من ثوابت الإسلام:

الأول: إنكار حجِّية السنَّة التي هي مع القرآن المصدر الأول للإسلام، وحجَّتُهُ الوحيدة في إنكار حجِّيتها - والتي تكاد تكون الوحيدة عند كل من يُنكر حجِّية السنَّة في أي زمان ومكان - هي أن السنَّة ليست محفوظةً بعناية الله - تعالى - مثل القرآن.

وأما الثابت الثاني في عقيدة الإسلام عند أهل السنَّة والجماعة وحاول الدكتور أن يُبطله، فهو الشفاعة.

أولاً: في مقاله الأول قد جزم بأنه "لا شفاعَة تُخرج أحدًا من النار، وما ترويه الأحاديث عن أن محمدًا سوف يُخرج من النار من قال: "لا إله إلا الله" ولو لمرة واحدة في حياته، هي أحاديث تُخالف صريح القرآن"، وهو يسوق لرفض الشفاعَة حُججًا عقليةً، فيقول عنها: إنها "فوضى الوسائط التي نعرفها في الدنيا، ولا وجود لها في الآخرة، وكل ما جاء بهذا المعنى في الأحاديث النبوية مشكوك في سنده ومصدره؛ لأنه يُخالف صريح القرآن؛ يقول ربنا عن المجرمين: (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) [البقرة: 167].

ثم يسوق بعض الأدلة القرآنية على نفس هذا النمط، كقوله -تعالى-: (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) [الأنعام: 51] وغير ذلك من آيات يظهر عند التأمل أن سياقها خاصٌ بالكافرين.

ثم يعقّب بعد الآيات بقوله: "فأضاف في هذه الآية: (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) [السجدة: 4] حرف "من" وهو نفْي قطعي لأي نوع من ولاية أو شفاعَة، هذه الآيات المحكّمات في نفْي الشفاعَة تجعلنا نُعيد النظر بتفهّم لأي آية تتكلّم عن الشفاعَة في حدود المُتشابه، فلا نساق وراء هذه الأحاديث الموضوعة التي تملأ كتب السيرة، وتدّعي بأن النبي صلى الله عليه وسلم سوف يُخرج من النار كل من قال: "لا إله إلا الله"؛ اه، وقوله ذلك استنادًا إلى الآيات القرآنية التي نفّت الشفاعَة في حق الكافرين، ولم يفطن الدكتور - ولا غيره ممن يستدلّ بنفس الآيات - إلى أن هناك آيات عديدة في القرآن الكريم تُثبت الشفاعَة في حق المؤمنين؛ كقوله -تعالى-: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [البقرة: 255]، وكقوله في حق الملائكة: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ) [الأنبياء: 28].

ومن ثمّ يكون الدكتور - وكل من يجري على شاكلته في أي عصر وفي كل مكان - قد أنكر عقيدة أهل السنّة والجماعة في الشفاعَة، مُلقياً وراء ظهره بتراث الأمة، الذي ساهم في بنائه الألوفُ المؤلّفة من العلماء خلال أربعة عشر قرنًا من الزمان، مُعتمدًا على فهمه الخاص للآيات،

رافضاً قواعد المحدثين في نقد السند، وهكذا يفعل كل من أراد أن ينفي أو يثبت شيئاً بدون مرجعية إلى الكتاب والسنة الصحيحة، فهل تُبنى العلوم على الآراء الشخصية، ونتائج الأبحاث الفردية، والاجتهادات الخاصة في موضوعاتها وقضاياها؟ أم لا يُعتمد من النتائج إلا ما اتفق عليه أهل الاختصاص؟!

ولو تصوّرنا أعمال الأبحاث الفردية في الطب والصيدلة في علاج الناس، فماذا تكون النتائج؟ ولماذا لا نسمح بهذا في الطب وسائر العلوم، ونسمح به في علوم الإسلام؟!

ثم أغلق الدكتور باب الشفاعة الحقيقية مُطلقاً بقوله: "ولن ينجو من المذنبين إلا من تكرم عليه رب العزة، وفتح له باباً إلى التوبة قبل الممات"، ويقول: "إذا، الوسيلة الوحيدة للنجاة من العقاب هي أن يقي ربنا عباده من الوقوع في السيئات أصلاً، أو يفتح لهم باب التوبة في حياتهم إذا تورطوا فيها، وهذه هي أبواب الشفاعة الممكنة".

والملاحظ الجيد يرى أن هذا هو بعينه مذهب المعتزلة القائلين بخلود مرتكب الكبيرة في النار، وبنفي وقوع الشفاعة أصلاً في حقّ المؤمنين، فقد تبنى الكاتب وجهة نظر المعتزلة، ولم يخرج عنها قيد شعرة، وانتصر لها، وادّعى أنها هي التي تتفق وصريح القرآن، وأنكر الأحاديث التي تُخالفها، وادّعى أنها مدسوسة، فهو إذاً لم يُضِفْ جديداً يُذكر له في هذه القضية غير الإثارة والبلبلّة في موضوع قد لفظ أنفاسه الأخيرة منذ مئات السنين، ولم يعد له مكان إلا بين المطوّلات من كتب الكلام.

ولو أنه تبنى وجهة نظر السلف فأمن بكل ما ورد حول الشفاعة في الكتاب والسنة الصحيحة، على أساس أنها من الأمور السمعية التي لا مجال فيها لغير المنقول عن الكتاب والسنة، لكان أهدى سبيلاً، وأقوم قِيلاً، ولمّا أثار البلبلّة، واضطرّ في مقالة رابعة إلى الاعتذار عما حدث، والعزم على عدم الخوض في هذه القضية في مقالة أخرى.

لكن السلف والخلف من أهل السنة أجمعوا على ثبوت الشفاعة ووجوبها سمعاً وشرعاً بصريح الآيتين السابقتين وغيرهما، وجاءت الأحاديث الصحيحة والصريحة التي بلغت مجموعها حدّ التواتر بصحّة الشفاعة في الآخرة للمذنبين المؤمنين، ومن هذه الأحاديث ما جاء عن جابر في الصحيحين، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي)، ومنها: (وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ)، وحيث ثبتت الشفاعة بالكتاب والسنة، وحيث أجمع أهل السنة عليها سلفاً وخلفاً، فلا يُلْتَفَتُ إلى مُنْكَرِهَا؛ لأن آراءهم باطلة، ولا أساس لها من الصحّة.

وقد بنى المنكرون للشفاعة رأيهم الباطل على فهم غير صحيح لبعض آيات القرآن الواردة في شأن الكافرين - كما سبق عند الدكتور بعضها - فكيف يُسْتَدَلُّ بها على نفي الشفاعة؟! وكيف توضع الآيات في غير محلّها، والكفار ليست لهم شفاعة أصلاً، وهم مخلّدون في النار؟!

ثانيًا: والعجب العجيب أن يقول هذا الدكتور في مقاله الثالث - كما يقول غيره -: "وهذه الثوابت القرآنية تتناقض تمامًا مع مرويات الأحاديث النبوية في كتب السيرة عن إخراجها لمن يشاء من أمته من النار، مما يؤكّد أن هذه الأحاديث موضوعة، ولا أساس لها من الصحّة".

وأقول للدكتور - ولغيره ممن هم على شاكلته -: إن أحاديث الشفاعة في السنة جاءت متّفقة تمامًا مع آيات إثبات الشفاعة للمؤمنين بشروطها، وهي ليست بأحاديث باطلة كما تزعمون، وإنما هي أحاديث صحيحة وردت في أمّهات كتب السنة؛ كالصحيحين، والمُسند، والموطأ، وغيرها من عيون مصادر السنة الصحيحة، والمقام لا يتّسع لروايتها، ولكني أكتفي بنموذج واحد منها، وهو ما أخرجه مالك في الموطأ والإمام أحمد في المسند، وكذلك أخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لكل نبي دعوة مستجابة

يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعاً لأمتي في الآخرة)، وأخرج البخاري في صحيحه مثله عن أبي عبد الرحمن، وسرّد أحاديث الشفاعة قد أفرد له العلماء كتباً.

ثالثاً: وهو ما يندى له الجين؛ ألا وهو التشكيك في أكبر وأهم مرجع لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم؛ حيث يقول الدكتور - كما يقول غيره أيضاً -: "والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي تولى رب العالمين حفظه بنفسه من أي تحريف، وقال في كتابه المحكم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، ولم يقل لنا رب العالمين: إنه حفظ كتاب البخاري أو غيره من كتب السيرة، وما يقوله البخاري مناقضاً للقرآن لا يلزمنا في شيء، ويُسأل عنه البخاري يوم الحساب، ولا تُسأل نحن فيه".

وهذا كلام خطير، قال به من قبل بعض الذين زعموا أنه يمكن الاكتفاء بالقرآن، وهو قول باطل، لا أساس له من الصحة؛ فالقرآن نفسه أمرنا أن نأخذ ما أتانا به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن ننتهي عما نهانا عنه؛ حيث قال رب العزة: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7]، **فمن لم يأخذ بالحديث هو غير آخذ بالقرآن، فانتبهوا يا أولي الأبصار.**

إن اجتراء الدكتور - في مقاله الثالث - وغيره على البخاري وصحيحه لا يُغتفر لهم أبداً، اللهم إلا إذا شفع فيهم صاحب الشفاعة - صلى الله عليه وسلم - لأنه يؤدي إلى هدم السنة، وبالتالي هدم الدين كله؛ فالأمة قد تلقت صحيح البخاري ومسلم بالقبول، وشهد لهما علماء الجرح والتعديل بالصحة، فاطعن فيهما أو أحدهما طعن في إجماع علماء الأمة.

وإني أسأل الدكتور - كما أسأل كل من يطعن في أهل الحديث المتفق عليهم -: إذا كان صحيح البخاري عندك مطعوناً في صحته - وهو أصح مصادر الحديث - فمن أين نأخذ السنة إذا؟! إن سحب الثقة من صحيح البخاري يعني هدم السنة، فكيف نفهم القرآن من

غير حديث وهو المفسّر والمبيّن والمفصّل؟! وكيف نعرف تفاصيل العبادات والمعاملات وسائر الأحكام الشرعية من غير سنّة؟! من أين نأخذ أركان الصلاة وأحكام الصوم والزكاة، ومناسك الحج وغيرها؟!!

إنها دعوة خطيرة تلك التي ترفض أصحّ كتاب بعد كتاب الله، فالرافض له رافض لبقية كتب السنّة، وإن يقيننا بحفظ الله - تعالى - للقرآن، يُفيء علينا يقيناً قريباً منه بأنه تكفل بحفظ كل صحيح من السنّة؛ ليكون بياناً للقرآن الذي تكفل الله - تعالى - بحفظه؛ فالسنّة المطهّرة حفظها الله - تعالى - بحفظها وعلمائها، وإنّ علم الجرح والتعديل في الحديث ليعدّ أدقّ ميزان علميٍّ صحيح عرفته البشرية، بشهادة المنصّفين من المستشرقين، وبه يُعرف الصحيح من الموضوع، وبمقتضاه لا يجوز إطلاقاً الطعن في أيّ حديث شهد علماء الحديث بصحّته، مهما تراءى للفهم القاصر بطلانه؛ فالعقل لا يحكم على الوحي متى صحّ ثبوته، وبالتالي فإن إنكار الأحاديث الصحيحة جناية لا تُغتفر.

رابعاً: قال الدكتور عن المقام المحمود المذكور في قوله - تعالى -: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]: "وهو مقام البشارة العظمى، والله أعلم، وليس مقام الشفاعة العظمى كما يذكر المفسّرون".

الرد: إن الفيصل في تحديد كلام الله هو من أنزل عليه كلام الله، ولقد قال في سنن الترمذي لمّا سئل عن المقام المحمود في هذه الآية: (هي الشفاعة).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المقام المحمود مقام الشفاعة، وكذا قال مجاهد والحسن البصري، وروى البخاري بسنده عن ابن عمرو قال: (إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثّاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان، اشفع، يا فلان، اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً)، وحديث: (من قال حين يسمع النداء)، وهو عند البخاري أيضاً.

خامسًا: إن تصوّر الدكتور - وأمثاله - لحقيقة الشفاعة وهدفها تصوّرٌ عليل، بنى عليه حكمًا باطلاً؛ فهو يزعم أن الهدف من الشفاعة هو إضافة معلومة عن عُذر المذنب وظروفه، والله -تعالى- أعلم من أي مخلوق!

الرد: سبحان الله!! من الذي أنبأكم أن هذا هو هدف الشفاعة؟! إن الشفاعة تصرّع من المخلوق الشفيع المُرتضى عند الله، لدى علام الغيوب بإذنه؛ ليرحم المشفوع فيه بكرمه وفضله، فلا تقدح الشفاعة مُطلقًا في علم الله تعالى وإنما هي بعلمه وإذنه ورحمته، ومن ثم لا يترتب عليها محذور شرعي ولا عقلي.

كما أنها لا تقدح في عدل الله -تعالى- لأن فضله فوق عدله، ولو عاملنا الله بعدله، لَمَّا نجا منّا أحد، نحن وأنتم على السواء. هذه هي أهم النقاط التي أردتُ أن أتعرّض لها سريعًا من بحوث الدكتور، لا ردًا عليه وحده - كما ذكرت - ولكن ردًا على أصواتٍ وأصوات، لا يزال يتتابع صداها على مدى الأزمان، فالله المستعان.

الفصل الخامس عشر

لا إله إلا الله هي الكلمة المرضية عند الله تعالى

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضعين ؛ وهما:

قوله الله تعالى : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) [الأنبياء: 28].

وقوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) [طه: 109].

وحدثنا حول الآيتين سيكون في ثلاثة مباحث : المعنى الإجمالي لهما، والوقفات التدبرية في الآية الكرمة، ثم كيفية الوصول إلى رضا الله تعالى.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ) (إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا)

التفسير الإجمالي للآية الأولى : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) [الأنبياء: 28].

قوله الله تعالى : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أي أنهم في قبضته؛ وهو عالم بكل أحوالهم؛ يعلم ما بين أيديهم وهذا يكنى به عن حاضرهم؛ لأنه بين أيديهم؛ يفعلونه؛ ويدورون فيه تحت سلطان إرادته؛ وعلى مقتضى علمه؛ وجميع ما يفعلون وما يفكرون تحت عين الله؛ وفي رقابته؛ (وَمَا خَلْفَهُمْ) ويعلم - سبحانه - ما هو خلف أعمالهم؛ أي: ما يجيء في المستقبل؛ فهو يعلم

حالمهم في حاضرهم؛ وفي قابلهم الذي يخلف حاضرهم؛ فهم في سلطان الله تعالى؛ مع تقريبهم؛ وتفضيلهم؛ وتكرمهم. قاله أبو زهرة³⁹.

قوله تعالى: (وَلَا يَشْفَعُونَ) أي الملائكة (إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) [الأنبياء: 28]. فيها قولان:

القول الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله وشفاعتهم: الاستغفار .

القول الثاني: قال مجاهد رحمه الله تعالى: هم كل من رضي الله عنه .

والملائكة يشفعون غدا في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره ، وفي الدنيا أيضا ؛ فإنهم يستغفرون للمؤمنين ولمن في الأرض ، كما نص عليه التنزيل .

وقال أبو زهرة: ولا يشفعون إلا لمن ارتضى أي: لا يشفعون لأحد إلا إذا كان مرتضى لله؛ ورضي الله أن يشفع؛ كما قال تعالى: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) ؛ وكما قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) [طه: 109]؛ فهم في شفاعتهم لا يسبق قولهم قول ربهم؛ إنما قول الله (تعالى) هو السابق؛ وهو الذي يأذن لهم بالقول؛ شفاعته أو غيرها.

قوله تعالى: (وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) وهم يعني الملائكة من خشيته يعني من خوفه مشفقون أي خائفون لا يأمنون مكره . ومن ذلك ما أخرج ابن أبي حاتم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَرَرْتُ لَيْلَةً أُسْرِي بِي بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَجَبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي **من خشية الله تعالى**) صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

³⁹ - قال الرازي: وذكر المفسرون فيه وجوها: **أحدها:** قال ابن عباس: يعلم ما قدموا وما آخروا من أعمالهم. **وثانيها:** ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك . **وثالثها:** قال مقاتل: يعلم ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم ، وحقيقة المعنى أنهم يتقلبون تحت قدرته في ملكوته وهو محيط بهم.

التفسير الإجمالي للآية الثانية : (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أָذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) [طه: 109].

قال البغوي رحمه الله تعالى : (يومئذ لا تنفع الشفاعة) يعني : لا تنفع الشفاعة أحدا من الناس ، (إلا من أذن له الرحمن) يعني إلا من أذن له أن يشفع .

(ورضي له قولاً) يعني : ورضي قوله ، **قال ابن عباس رضي الله عنهما:** قال لا إله إلا الله وهذا يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن .

وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى : (إلا من أذن له الرحمن) في الشفاعة، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء.

(وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) أي: ورضي قوله في المشفوع له بحيث يقبل شفاعته.

وقيل: (ورضي له قولاً) في الدنيا، وهو: **لا إله إلا الله**، مخلصاً من قلبه.

ويكمن أن يكون المعنى : (إلا من أذن له الرحمن) أن يشفع فيه، ورضي لأجله قولاً من الشافع - في الشفاعة لبعض العصاة من أرباب العناية في ذلك اليوم - وهذا أليق بمقام التهويل. وأما من عداه فلا تنفع، وإن وقعت؛ لقوله تعالى: (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) [المدثر: 48].

وقال ابن عاشور : وقوله (ورضي له قولاً) عائد إلى (مَنْ أذن له الرحمن) وهو الشافع واللام الداخلة على ذلك الضمير لام التعليل ، أي رضي الرحمن قول الشافع لأجل الشافع ، أي إكراماً له كقوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك) [الشرح : 1] فإن الله ما أذن للشافع بأن يشفع إلا وقد أراد قبول شفاعته ، فصار الإذن بالشفاعة وقبولها عنواناً على كرامة الشافع عند الله تعالى.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين

الأولى : قال الرازي أيضا في قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفاسق لأن قوله (وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولاً واحداً من أقواله، والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولاً واحداً من أقواله وهو: **شهادة أن لا إله إلا الله. فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لأن الاستثناء من النفي إثبات.**

الثانية : قال ابن كثير : (إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً) هذه كقوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) [البقرة : 255] ، وقوله : (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) [النجم : 26] ، وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) [الأنبياء : 28] وقال : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) [سبأ : 23] ، وقال : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) [النبأ : 38] .

وفي الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد ولد آدم ، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : **(آتي تحت العرش ، وآخر لله ساجدا ، ويفتح علي بمحمد لا أحصيها الآن ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع واشفع تشفع) قال : (فيحد لي حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود) ، فذكر أربع مرات ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .**

وفي الحديث أيضا يقول تعالى : **(أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول : أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان ،**

**أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة ، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة
(من إيمان) الخ الحديث .**

الثالثة : قال أبو زهرة رحمه الله تعالى : الخشية : هي الخوف مع التعظيم والضراعة والاستسلام
لله عز وجل ولذا اختصت بالذين يعلمون عظمة الله تعالى وجلاله؛ فقال تعالى : (إنما يخشى
الله من عباده العلماء) الذين علموا الله تعالى وعرفوه حق معرفته.

والإشفاق : الخوف مع توقع ما يخافونه؛ فهو خوف مع عناية بما يجيء به الزمن؛ وإن ذلك
الإشفاق يكون من كمال العلم بالله؛ واستشعار عظمته؛ وامتلاء النفس بمهابته؛ وذلك شأن
من كانوا خاضعين؛ وليس شأن من زعموهم آلهة مع الله مناظرين؛ وإن هذه حال من قربوا من
الله؛ فهم أدرك لعظمته؛ وأكثرهم علما بقدرته؛ وحكمته؛ وكماله.

وإن هذا التعبير الكريم يدل على دوام هذه الحال؛ لأن الجملة حالية أولا؛ ولأن الجملة اسمية؛
تدل على الاستمرار؛ ومؤكدة بالضمير؛ والله - سبحانه - أعلم بحالهم؛ فهم المقربون؛ ولكنهم
مع قربهم من الله تعالى؛ وأنهم المكرمون؛ لو انحرفوا عن الطريق لنالهم جزاء الضالين المضلين.

الرابعة : قال الرازي رحمه الله تعالى : احتجت المعتزلة بقوله تعالى : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ
ارْتَضَى) على أن الشفاعة في الآخرة لا تكون لأهل الكبائر لأنه لا يقال في أهل الكبائر إن
الله يرضيهم . **والجواب :** قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك : (إلا لمن ارتضى) أي
لمن قال لا إله إلا الله ، وأعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لأهل السنة والجماعة في إثبات
الشفاعة لأهل الكبائر ، **وتقريره :** هو أن من قال لا إله إلا الله فقد ارتضاه تعالى في ذلك
ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه أنه ارتضاه الله لأن المركب متى
صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه ، وإذا ثبت أن الله قد ارتضاه وجب اندراج
تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره
ابن عباس رضي الله عنهما .

المبحث الثالث

كيفية الوصول إلى رضا الله تعالى

الحديث عن الرضا حديث ذو شجون وهو طويل جدا ولكنه ممتع ،وقد كتب فيه عدد من الباحثين مقالات كثيرة بل كُتبت في رسائل علمية ،ولكن حجم كتابي هذا لا يتسع إلا لصفحات معدودة ، ولهذا أحببت أن أتخفك أخي القارئ الكريمة بنقاط ثلاث هي من أهم ما يجب أن نعلمه في موضوع الرضا ، فأقول ومن الله أرجو التوفيق والقبول لهذه النقول:

أولاً : وردت كلمة (الرضا) وصيغها في القرآن الكريم (73) مرة في (54) موضعا، منها:

قال الله تعالى: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) [المائدة: 119].

وقال الله تعالى: (أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ) [آل عمران: 162].

وقال الله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) [محمد: 28] ونحوها من الآيات.

ثانياً : أحصى أحد الباحثين أصناف العباد الذين رضي الله عنهم في القرآن وهم:

1-المتقون : (قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) [آل عمران: 15].

2-الصادقون. قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [المائدة: 119].

3-المؤمنون والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (يُسَرِّحُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ) [التوبة: 21].

4- المؤمنون والمؤمنات الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر المقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: 72].

5- المهاجرون والأنصار: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: 100]،

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عموما خير القرون زكاهم الله ظاهرا وباطنا. (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا).

6- من لجأ وفر إلى الله عزوجل - واستجاب لأوامره : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) [طه: 84] فموسى عليه السلام ذهب لميعاد ربه شوقاً لمناجاة الله، فهو نبي يعلم أن تلك العجلة ترضي الله -عزوجل-، فهذا موضع للعجلة لا يؤذم.

7- من شكر الله عزوجل : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [الزمر: 7]. فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

8- أصحاب بيعة الرضوان من الصحابة الكرام : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) [الفتح: 18]. ومن هنا نعلم يقينا أن من أعظم أسباب النصر والتمكين هو رضى الله -عزوجل- عن عباده.

9- المؤمنون الذين لا يوالون أعداء الله ورسوله مهما بلغت قرابتهم : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ

أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [المجادلة: 22].

10- النفس المطمئنة الآمنة من العذاب - نفس المؤمن عند الوفاة وقبض الروح - : قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) [الفجر: 27، 28].

11- الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وصفهم الله بأنهم خير البرية : قال الله تعالى: (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ) [البينة: 8].

ورضى الله عن العبد منزلة عظيمة لا تحتاج إلى مزيد علم ومواعظ وخطب بقدر ما تحتاج إلى إخلاص وبقين وقلب صادق بتوفيق من الله ورحمة يهيئ الله للعبد وسائل تعينه لبلوغ هذه المنزلة العظيمة.

فكلنا يستطيع ذلك متى ما استشعرنا ذلك الفضل، وأبواب رضى الله كثيرة وعلى سبيل المثال هذا الحديث الصحيح الذي يعرفه معظمنا : عن أنس - - قال: قال رسول الله - - : (إِنْ اللَّهُ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)؛ رواه مسلم. فكم مرة نشرب أو نأكل في اليوم ونحمد الله بعد كل شراب وطعام مستشعرين هذا الفضل العظيم!؟

ثالثاً : رضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمراً بأمره ومنتهياً عن نهيهِ، وأرضاه: أعطاه ما يرضى به، وترضاه: طلب رضاه.

وللرضا بالله ثمار كثيرة تتبعها أحد الباحثين، منها⁴⁰:

1/ من ثمار الرضا بالله تعالى : وهي الثقة بتدبير الحي القيوم البر اللطيف، وانغماس في بحر

الطمأنينة لتدبير العليم القدير الحكيم الرحيم، وارتواء بالفرح والغبطة والسرور بالله تبارك وتعالى؟

2/ من ثمار الرضا بالله تعالى : أن تتأمل ما عندك لا ما ليس عندك، فإن ما عندك من جود

ربك الوهاب الكريم، وما ليس عندك فهو من حكمة ربك اللطيف الرحيم، وكن من أهل الحياة

الطيبة ﴿فَلَنُخَيِّنَنَّ حَيَاةَ طَيِّبَةٍ﴾ [النحل: 97]، وهي الإيمان والقناعة، وقد مات حبيبك صلى

الله عليه وسلم ودرعه مرهونة، ففوّض أمرك إلى من بيده مقاليد الأمور، وأعنت النواصي، ومفاتيح

الأرزاق، واعلم أنه أرحم وأعلم، وألطف وأرفق وأحكم بك من نفسك.

وإذا البشائر لم تحن أوقاتها فلحكمة عند الإله تأخرت

سيسوقها في حينها فاصبر لها حتى وإن ضاقت عليك وأقفرت

وتقول سبحانه الذي رفع البلاء من بعد أن فقد الرجاء تيسرت

3/ المؤمن الصالح راضٍ ومرضي عنه حال رحيله لربه تعالى؛ فعن عبادة بن الصامت رضي

الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره

لقاء الله، كره الله لقاءه، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال: ليس ذلك،

ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه،

فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس

شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه) [متفق عليه]. قال ابن القيم رحمه الله:

"ثمرّة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى"⁴¹.

⁴⁰ - ثمار الرضا بالله تعالى (خطبة) - إبراهيم الدميحي - الألوكة الشرعية - بتصرف .

41 - مدارج السالكين - (منزلة الرضا).

4/ إن الرضا بالله تعالى يُورث الشوق العظيم إليه؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر؛ فقال: **(إن عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر، وقال: فدينك بآبائنا وأمّهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ خيَّره الله بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فدينك بآبائنا وأمّهاتنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أَمَنَ الناسَ عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خُلةَ الإسلام، لا يَبْقِيَنَّ في المسجدِ خَوْخَةٌ إلا خَوْخَةُ أبي بكر)** [متفق عليه]، وحُقَّ للصديق ذلك رضي الله عنه وأرضاه. الخوخة: هي الباب الصغير بين البيتين أو الدارين.

5/ من ثمار الرضا الطيبة أن الرضا بقضاء الله تعالى عند فقد الأحبة — كالولد — سبب لدخول الجنة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسوة من الأنصار: **(لا يَمُوتُ لِإِحْدَاكُنَّ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَحْتَسِبُهُ؛ إِلَّا دَخَلَتِ الْجَنَّةَ. فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: أَوْ اثْنَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَوْ اثْنَانِ).** أخرجه مسلم والنسائي.

والاسترجاع مع الرضا مؤذن بخلف طيب؛ فعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنِي في مصيبتِي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها)** [رواه مسلم].

ومن حمد الله تعالى واسترجع عند المصيبة، فهو موعود ببيت في الجنة، وإذا بنى الله لعبد بيتاً أسكنه إياه، ولا حَمْدَ ولا استرجاع إلا على متن الرضا؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا مات وَلَدُ الْعَبْدِ، قَالَ اللَّهُ لَمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ**

عبدى؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدى؟
فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدى بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد) [الترمذي
وحسن إسناده الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يقول الله تعالى: ما
لعبدى المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا، ثم احتسبه، إلا الجنة) [رواه
البخاري]، والصفى: هو الحبيب المصافي، سواء أكان قريبًا في النسب أم لا.

6/ ثمار الرضا بالله تعالى: أنها سبب لمحبة الله ورضاه وتجنب سخطه، والنبي صلى الله عليه
وسلم كان أرضى الناس بالله، وأسرّ الناس بربه، وأفرحهم به تبارك وتعالى.

7/ الرضا دليل على زيادة الإيمان وحسن الإسلام، وحبل متين للفوز بالجنة والنجاة من
النار، ومظهر من مظاهر صلاح العبد وتقواه، وصاحبها موعود بالبشرى في الآخرة، وهي دليل
حسن ظن العبد بربه، وطريق إلى الفوز برضوان الله تعالى، فالرضا يثمر رضا الرب عن عبده،
فإن الله عز وجل شكور حميد، وإذا ألححت عليه وطلبتَه وتذلتَ إليه، أقبلَ عليك وقربك.

8/ الرضا يضيء على الإنسان المسلم راحة نفسية وسكينة روحية، ويجنبه — بإذن الله —
الأزمات النفسية من قلق زائد، وتوتر وعَجَلَة، وانفعال وغضب، كما أنها طريق واضح إلى
تحقيق السلام في مجتمعات الناس، فإن المجتمع مكوّن من لبنات أفراد، فإن استقاموا استقام.

9/ الرضا يخلص من الهم والغم والحزن، وضيق الصدر ووَخَرِه، وشتات القلب، وكسف البال،
وسوء الحال؛ ولذلك فإن باب جنة الدنيا يُفتح بالرضا قبل جنة الآخرة؛ فالرضا يوجب طمأنينة
القلب وراحته، وبرده وسكونه وقراره، بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وربيته،
وقلقه وانزعاجه، وضيقه وعدم قراره.

فالرضا يُنزل على قلب العبد سكينَةً لا تنزل عليه بغيره، ولا أنفع له منها، ومتى ما نزلت على قلب العبد السكينَةُ استقام وصلحت أحواله، وصلح باله، وكان في أَمْنٍ ودَعَةٍ، وطيب عيش، ورغد روح، وسعادة حال؛ كما قيل: (من قرت عينه بالله تعالى، قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله، تقطع قلبه على الدنيا حَسَرَات).

10/ إن من أعظم ثمار الرضا ذلكم النعيم الروحي، والسكينة القلبية، والطمأنينة النفسية للراضي بربه تعالى؛ يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا) [رواه مسلم]، وقال: (من قال: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وجبت له الجنة) [أبو داود (1529) وصححه الألباني].

11/ من من ثمار الرضا: نقاء الصحيفة من دَرَن خطايا اللسان، وذلك بسلامة الكلام حتى على من مسك أذاه، وهذا من جميل الرضا وهو من الحكمة أيضًا، فأكبر الخيبة وأعظم الغَبَنِ أن تهدي أغلى ما لديك أبغض من لديك، فهذه ثمرة الغيب، وقد قيل: أحق الناس بالشفقة رجل نصب خيمته على رصيف السالكين، يمرون خفافًا إلى المعالي، ويفني عمره وهو يصف أحوالهم وينتقد مسيرهم، فيا ضيعة الأعمار راحت سَبَهْلًا!

ولأنك لن تُرضيَ الناس - ولو حرصت - فاكثف بإرضاء رب الناس، وهو من سيكفيك الناس سبحانه وبحمده، فارضَ بربك، وارضَ بقسمه وقضائه، وثق بحكمته ورحمته، وقد أحسن ابن دريد في وصف خيبة من رام إرضاء الناس فقال:

وما أحد من ألسن الناس سالمًا ولو أنه ذاك النبي المطهَّرُ

فلا تحتفل بالناس في الدم والثنا ولا تحشَ غير الله فالله أكبرُ

ختاما : الرضا بالقضاء من تمام الإيمان بالقضاء والقدر؛ والرضا غاية يسعى لها المؤمن الصادق، والرضا من مقامات الإحسان التي هي من أعلى المندوبات، ومرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين، كما في حديث جبريل عليه السلام المشهور.

ثُمَّ إِنَّ الرِّضَا من المقامات التي تُوصِّل للطمأنينة، وكم يتمنى العبد الحصول على الطُّمَأْنِينَة! فالرِّضَا من الأمور التي تتسبَّب في وصول العبد إليها، فهو باب الله الأعظم.

قال ابن القيم رحمه الله: ولذلك كان الرضا بابَ الله الأعظم، وجَنَّة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحيِّين، ونعيم العابدين، وقَرَّة عيون المشتاقين⁴².

⁴² - مدارج السالكين - (منزلة الرضا).

الفصل السادس عشر

لا إله إلا الله هي كلمة السواء

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد : وهو قوله تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [آل عمران: ٦٤].

وحديثنا حول الآية الكريمة سيكون في أربعة مباحث : سبب نزولها، والمعنى الإجمالي لها، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة ، ثم بيان حكم الدعوة إلى وحدة الأديان.

المبحث الأول

سبب نزول الآية الكريمة : (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)

قال المفسرون: قدم وفد نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاختلفوا في إبراهيم عليه السلام، فرعمت النصارى أنه كان نصرانياً وهم على دينه وأولى الناس به، وقالت اليهود: بل كان يهودياً وهم على دينه وأولى الناس به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً وأنا على دينه فاتبعوا دينه دين الإسلام)، فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً، وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزيز، فأنزل الله تعالى: (قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ) .. إلخ. وقال ابن كثير: وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، نزلت في وفد نجران⁴³.

⁴³ - وقيل: نزلت هذه الآية فيمن كان حول المدينة من اليهود، وهم الذين حاجوا النبي صلى الله عليه وسلم في إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني

المعنى الإجمالي للآية الكريمة

معنى قوله تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ) قال ابن كثير : هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم.

(تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ) والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قال ههنا، والعرب تسمي كل قصة لها شرح كلمة ومنه سميت القصيدة كلمة.

ثم وصفها بقوله: (سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرهما بقوله: (أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا) لا وثناً، ولا صليياً، ولا صنماً، ولا طاغوتاً، ولا ناراً، ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له.

وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: 25] وقال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: 36] .

معنى قول تعالى: (وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) أي بان نقول عزيز ابن الله والمسيح ابن الله و لا نتبع الاحبار في تحليل شيء أو تحرمة إلا فيما حلله الله تعالى. وهو نظير قوله تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) [التوبة: 31] معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله ولم يحله الله.

قال في تفسير المنار: قوله : (وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) الرب: هو السيد المربي الذي يطاع فيما يأمر وينهى، والمراد هنا من له حق التشريع والتحليل والتحريم كما ورد في حديث عدي بن حاتم قال: (أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وفي عنقي

صليب من ذهب، فقال: (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة
(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) [التوبة: 31] فقلت له: يا رسول الله لم يكونوا
يعبدونهم، فقال: (أليس يحرمون ما أحل الله فيحرمون، ويحلون ما حرم الله فيحلون؟ فقلت:
بلى). وسئل حذيفة -رضي الله عنه- عن الآية؟ فأجاب بمثل ذلك.

معنى قول تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) أي: فإن تولوا عن الكلمة
السواء فأشهدوهم أنكم منقادون إليها، وهذا مبالغة في المباينة لهم، أي: إذا كنتم متولين
عن هذه الكلمة، فإننا قابلون لها ومطيعون. وعبر عن العلم بالشهادة على سبيل المبالغة،
إذ خرج ذلك من حيز المعقول إلى حيز المشهود، وهو المحضر في الحسن.

قال الرازي: إنه تعالى ذكر ثلاثة أشياء:

أولها: أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ.

وثانيها: أَنْ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا.

وثالثها: أَنْ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ.

وإنما ذكر هذه الثلاثة لأن النصارى جمعوا بين هذه الثلاثة فيعبدون غير الله وهو المسيح،
ويشركون به غيره وذلك لأنهم يقولون إنه ثلاثة: أب وابن وروح القدس، فأثبتوا ذوات
ثلاثة قديمة سواء.

وكان القول ببطلان هذه الأمور الثلاثة كالأمر المتفق عليه بين جمهور العقلاء وذلك، لأن
قبل المسيح ما كان المعبود إلا الله، فوجب أن يبقى الأمر بعد ظهور المسيح على هذا
الوجه، وأيضاً القول بالشركة باطل باتفاق الكل، وأيضاً إذا كان الخالق والمنعم بجميع النعم

هو الله، وجب أن لا يرجع في التحليل والتحریم والانقياد والطاعة إلا إليه، دون الأحرار والرهبان، فهذا هو شرح هذه الأمور الثلاثة.

قال القرطبي : وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل. (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من أتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و {يَأْهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا} إلى قوله: {فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} . اللفظ لمسلم.

وجاء في الخبر الصحيح ان هرقل سأل عن حال النبي عليه السلام وعرفها من جاء بكتابه فقال لو كنت عنده لقبلت قدميه لمعرفة صدق النبي عليه السلام بعلاماته المعلومة له من الكتب القديمة لكن خاف من ذهاب الرياسة.

ثم انه كتب جواب كتابه عليه السلام انا نشهد انك نبى ولكننا لا نستطيع ان نترك الدين القديم الذى اصطفاه الله لعيسى عليه السلام فعجب النبي عليه السلام فقال : (قد ثبت الله ملكهم إلى يوم القيامة إلى أدنى الأرض منها فيفتح الله عز وجل على المسلمين).

وكتب الى كسرى ملك فارس فمزق كتابه ورجع الرسول بعدما اراد قتله فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (خرق الله ملكهم فلا ملك لهم ابدا) فكان كذلك.

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال الدكتور محمد إسماعيل المقدم: وبعض الناس من ذوي القلوب المريضة من المنافقين يسيئون استعمال هذه الآية ليداهنوا النصارى وإخوانهم الذين نافقوا، فيفهموا الناس أن الكلمة السواء هي حل وسط، وليست داعية إلى الدخول في الإسلام، فمعنى: (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ): أن تدخلوا في دين الله في الإسلام، وتقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وليس كلمة (سواء) حل وسط يرضي جميع الأطراف؛ فإن هذا مما لا يجوز.

والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى بعدها: (أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [آل عمران: ٦٤].

الثانية : محمد متولي الشعراوي : إن حركاتنا كلها وهي الخاضعة لمنهج الله بـ"افعل" و"لا تفعل" فلو أن هناك إلهاً قال: "افعل" وإلهاً آخر قال: "لا تفعل"، لكان معنى ذلك والعياذ بالله أن هؤلاء الآلهة أغيار لها أهواء. والحق سبحانه يحسم هذا بقوله: { وَلَوْ أَتَّبَعَ أَحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ } [المؤمنون: 71].

وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 64] إنها آية تحمل دعوة مستوية بلا نتوءات، فلا عبادة إلا لله، ونحن لا نأخذ "افعل" و"لا تفعل" إلا من الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً كهنوتاً أو مصدراً للتحليل أو التحريم، فإن رفضوا وتولوا، فليقل المؤمنون: {أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أي أنه لا يوجد إلا إله واحد،

ولا شركاء له، وبعضنا لا يتخذ بعضاً أرباباً، وتلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر المستوي الذي لا عوج ولا نتوء فيه ونحن متبعون ما جاء به.

الثالثة : قال ابو حيان : وخاطبهم: بيا أهل الكتاب، هزأ لهم في استماع ما يلقي إليهم، وتنبهها على أن من كان أهل كتاب من الله ينبغي أن يتبع كتاب الله، ولما قطعهم بالدلائل الواضحة فلم يذعنوا، ودعاهم إلى المباهلة فامتنعوا، عدل إلى نوع من التلطف، وهو: دعاؤهم إلى كلمة فيها إنصاف بينهم.

الرابعة : قال ابو حيان أيضا : وفي قوله: بعضنا بعضاً، إشارة لطيفة، وهي أن البعضية تنافي الإلهية إذ هي تماثل في البشرية، وما كان مثلك استحال أن يكون إلهاً، وإذا كانوا قد استبعدوا اتباع من شاركهم في البشرية للاختصاص بالنبوة في قولهم: (إن أنتم إلا بشر مثلنا) [إبراهيم: 10] (إن نحن إلا بشر مثلكم) [إبراهيم: 11] (أنؤمن لبشرين مثلنا) [المؤمنون: 47] فادعاء الإلهية فيهم ينبغي أن يكونوا فيه أشد استبعاداً.

الخامسة : قال الرازي: أنه خاطبهم ههنا بقوله تعالى: (يا أهل أَلْكِتَابِ) وهذا الاسم من أحسن الأسماء وأكمل الألقاب حيث جعلهم أهلاً لكتاب الله، ونظيره، ما يقال لحافظ القرآن يا حامل كتاب الله، وللمفسر يا مفسر كلام الله، فإن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب وفي تطييب قلبه، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف.

السادسة : قال الرازي: قوله تعالى: {إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا} فالمعنى هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض، لا ميل فيه لأحد على صاحبه، والسواء هو العدل والإنصاف، وذلك لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف، فإن الواجب في العقول ترك الظلم على النفس وعلى الغير، وذلك لا يحصل إلا بإعطاء النصف، فإذا أنصف وترك ظلمه أعطاه

النصف فقد سوى بين نفسه وبين غيره وحصل الاعتدال، وإذا ظلم وأخذ أكثر مما أعطى زال الاعتدال فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل.

السابعة : قال تفسير المنار : المراد بهذا (ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) تقرير وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية، وكلاهما متفق عليه بين الأنبياء، فقد كان إبراهيم موحدًا صرفًا، وقد كان الأساس الأول لشريعة موسى قول الله له: "إن الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى. أمامي لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق، ومما في الأرض من تحت، ومما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن".

وعلى هذا درج جميع أنبياء بني إسرائيل حتى المسيح - عليه وعليهم الصلاة والسلام - ، وهم لا يزالون ينقلون عنه في إنجيل يوحنا قوله: ((ير 17: 3)) "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" وغير ذاك من عبارات التوحيد.

وكان يحتج على اليهود بعدم إقامتهم ناموس موسى (شريعته) وهو لم ينسخ من هذا الناموس إلا بعض الرسوم الظاهرة والتشديدات في المعاملة، أما الوصايا العشر - ورأسها التوحيد والنهي عن الشرك - فلم ينسخ منها شيئًا.

المبحث الرابع

بيان حكم الدعوة إلى وحدة الأديان

سأنقل هنا بيان من اللجنة الدائمة في حكم الدعوة إلى وحدة الأديان⁴⁴ :

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد:

فإن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء استعرضت ما ورد إليها من تساؤلات وما ينشر في وسائل الإعلام من آراء ومقالات بشأن الدعوة إلى (وحدة الأديان): دين الإسلام، ودين اليهود، ودين النصارى، وما تفرع عن ذلك من دعوة إلى بناء: مسجد وكنيسة ومعبد في محيط واحد، في رحاب الجامعات والمطارات والساحات العامة، ودعوة إلى طباعة القرآن الكريم والتوراة والإنجيل في غلاف واحد، إلى غير ذلك من آثار هذه الدعوة، وما يعقد لها من مؤتمرات وندوات وجمعيات في الشرق والغرب.

وبعد التأمل والدراسة فإن اللجنة تقرر ما يلي:

أولاً: إن من أصول الاعتقاد في الإسلام، المعلومة من الدين بالضرورة، والتي أجمع عليها المسلمون، أنه لا يوجد على وجه الأرض دين حق سوى دين الإسلام، وأنه خاتمة الأديان، وناسخ لجميع ما قبله من الأديان والملل والشرائع، فلم يبق على وجه الأرض دين يتعبد الله به سوى الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ

⁴⁴ - حكم الدعوة إلى وحدة الأديان - فتاوى علماء البلد الحرام - شبكة الألوكة الشرعية .

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: 85]. والإسلام بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم هو ما جاء به دون ما سواه من الأديان.

ثانيًا: ومن أصول الاعتقاد في الإسلام أن كتاب الله تعالى: القرآن الكريم هو آخر كتب الله نزولًا وعهدًا برب العالمين، وأنه ناسخ لكل كتاب أنزل من قبل - من التوراة والزبور والإنجيل وغيرها - ومهيمن عليها، فلم يبق كتاب منزل يُتَعَبَّدُ الله به سوى: **(القرآن الكريم)**؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 48].

ثالثًا: يجب الإيمان بأن (التوراة والإنجيل) قد نسخا بالقرآن الكريم، وأنه قد لحقهما التحريف والتبديل بالزيادة والنقصان - كما جاء بيان ذلك في آيات من كتاب الله الكريم منها قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 13]، وقوله جل وعلا: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78].

ولهذا فما كان منها صحيحًا فهو منسوخ بالإسلام، وما سوى ذلك فهو محرف أو مبدل. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه غضب حين رأى مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة فيها شيء من التوراة وقال عليه الصلاة والسلام: **(أُمْتَهُوْكَوْنَ فِيهَا يَابْنَ الْخَطَّابِ!)**

وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِمَا بَيَّضَاءَ نَفِيَّةً... وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى
الله عليه وسلم كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي ⁴⁵.

رابعاً: ومن أصول الاعتقاد في الإسلام أن نبينا ورسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو
خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ
رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: 40]. فلم يبق رسول يجب
اتباعه سوى محمد صلى الله عليه وسلم، ولو كان أحد من أنبياء الله ورسله حياً لما وسعه
إلا اتباعه صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يسع أتباعهم إلا ذلك؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ
أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ
لْتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلْتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا
مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

ونبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام إذا نزل في آخر الزمان يكون تابِعاً لمحمد صلى الله
عليه وسلم وحاكماً بشريعته، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 157].

كما أن من أصول الاعتقاد في الإسلام أن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للناس
أجمعين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

⁴⁵ - أحمد (3/ 387)، والدارمي (435) وغيرهما. قال في مجمع الزوائد (1/ 174): رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري، وفيه مجالد بن سعيد، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما. اهـ وصححه العجلوني في كشف الخفاء 1/ 422 (1119) عند الكلام على حديث: حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرْجَ. ومعنى (متهوكون): مأخوذ من التَّهَوُّك: وهو الوقوع في الأمر بغير روية، وقيل: هو التحير.

يَعْلَمُونَ ﴿سَبَّأ: 28﴾. وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾
[الأعراف: 158]، وغيرها من الآيات.

خامسًا: ومن أصول الإسلام أنه يجب اعتقاد كفر كل من لم يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم وتسميته كافرًا، وأنه عدو لله ورسوله والمؤمنين، وأنه من أهل النار؛ كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البَيِّنَةُ: 1].

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البَيِّنَةُ: 6]، وغيرها من الآيات. وثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)** [رواه مسلم].

ولهذا: فمن لم يُكفر اليهود والنصارى فهو كافر، طردًا لقاعدة الشريعة: (من لم يُكفر الكافر فهو كافر).

سادسًا: وأمام هذه الأصول الاعتقادية والحقائق الشرعية، فإن الدعوة إلى: (وحدة الأديان) والتقارب بينها وصهرها في قالب واحد دعوة خبيثة مأكرة، والغرض منها خلط الحق بالباطل، وهدم الإسلام وتقويض دعائمه وجرّ أهله إلى ردة شاملة، ومصادق ذلك في قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البَقَرَةُ: 217]، وقوله جل وعلا: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [التَّيْسَاء: 89].

سابعًا: وإن من آثار هذه الدعوة الآثمة إلغاء الفوارق بين الإسلام والكفر، والحق والباطل والمعروف والمنكر، وكسر حاجز النفرة بين المسلمين والكافرين، فلا ولاء ولا براء، ولا جهاد ولا قتال لإعلاء كلمة الله في أرض الله، والله جل وتقدس يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: 29] ويقول جلّ وعلا: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36].

ثامناً: إن الدعوة إلى (وحدة الأديان) إن صدرت من مسلم فهي تعتبر ردة صريحة عن دين الإسلام، لأنها تصطدم مع أصول الاعتقاد فترضى بالكفر بالله عز وجل، وتبطل صدق القرآن ونسخه لجميع ما قبله من الكتب، وتبطل نسخ الإسلام لجميع ما قبله من الشرائع والأديان، وبناء على ذلك فهي فكرة مرفوضة شرعاً، محرمة قطعاً بجميع أدلة التشريع في الإسلام من قرآن وسنة وإجماع.

تاسعاً: وتأسيساً على ما تقدم:

1 - فإنه لا يجوز لمسلم يؤمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً الدعوة إلى هذه الفكرة الآثمة، والتشجيع عليها، وتسليكها بين المسلمين فضلاً عن الاستجابة لها، والدخول في مؤتمراتها وندواتها والانتماء إلى محافلها.

2 - لا يجوز لمسلم طباعة التوراة والإنجيل منفردين، فكيف مع القرآن الكريم في غلاف واحد!! فمن فعله أودعا إليه فهو في ضلال بعيد، لما في ذلك من الجمع بين الحق (القرآن الكريم) والمحرّف أو الحق المنسوخ (التوراة والإنجيل).

3 - كما لا يجوز لمسلم الاستجابة لدعوة: (بناء مسجد وكنيسة ومعبد) في مجمع واحد، لما في ذلك من الاعتراف بدين يعبد الله به غير دين الإسلام وإنكار ظهوره على الدين كله، ودعوة مادية إلى أن الأديان ثلاثة: لأهل الأرض التدين بأي منها، وأنها على قدم التساوي، وأن الإسلام غير ناسخ لما قبله من الأديان، ولا شك أن إقرار ذلك أو اعتقاده أو الرضا به كفر وضلال؛ لأنه مخالفة صريحة للقرآن الكريم والسنة المطهرة وإجماع

المسلمين، واعتراف بأن تحريفات اليهود والنصارى من عند الله، تعالى الله عن ذلك. كما أنه لا يجوز تسمية الكنائس (بيوت الله) وأن أهلها يعبدون الله فيها عبادة صحيحة مقبولة عند الله؛ لأنها عبادة على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]. بل هي: بيوت يكفر فيها بالله. نعوذ بالله من الكفر وأهله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - في مجموع الفتاوى (22/ 162) - : «ليست - أي: البيع والكنائس - بيوت الله، وإنما بيوت الله المساجد، بل هي بيوت يكفر فيها بالله، وإن كان قد يذكر فيها، فالبيوت بمنزلة أهلها، وأهلها كفار، فهي بيوت عبادة الكفار».

عاشراً: ومما يجب أن يعلم أن دعوة الكفار بعمامة وأهل الكتاب بخاتمة إلى الإسلام واجبة على المسلمين بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة، ولكن ذلك لا يكون إلا بطريق البيان والمجادلة بالتي هي أحسن، وعدم التنازل عن شيء من شرائع الإسلام، وذلك للوصول إلى قناعتهم بالإسلام ودخولهم فيه، أو إقامة الحجة عليهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 63]. أما مجادلتهم واللقاء معهم ومحاورتهم لأجل النزول عند رغبتهم، وتحقيق أهدافهم، ونقض عرى الإسلام ومعاقد الإيمان؛ فهذا باطل يأباه الله ورسوله والمؤمنون، والله المستعان على ما يصفون. قال تعالى: ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 49].

وإن اللجنة إذ تقرر ذلك وتبينه للناس فإنها توصي المسلمين بعمامة وأهل العلم بخاتمة بتقوى الله تعالى ومراقبته، وحماية الإسلام، وصيانة عقيدة المسلمين من الضلال ودعائه، والكفر وأهله، وتحذره من هذه الدعوة الكفرية الضالة: (وحدة الأديان). ومن الوقوع

في حبالها، ونعيز بالله كل مسلم أن يكون سبباً في جلب هذه الضلالة إلى بلاد المسلمين وترويحها بينهم. نسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يعيذنا جميعاً من مضلات الفتن، وأن يجعلنا هداة مهتدين، حماة للإسلام على هدى ونور من ربنا حتى نلقاه وهو راض عنا.

وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل السابع عشر

لا إله إلا الله هي كلمة النجاة

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع وهو :

قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون : (وَيَقُومَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)) [غافر: 41-42] .

وحدثنا حول الآية الكريمة سيكون في ثلاثة مباحث : المعنى الإجمالي لها، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة ، ثم مفهوم النجاة وأسبابها في القرآن الكريم.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة : (وَيَقُومَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ)

يقول لهم المؤمن: (وَيَقُومَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ) ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم الذي بعثه.

ثم قال لهم (وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي) أى : تدعونني لما يوصل إلى النار وهو عبادة غير الله - تعالى - ، والموافقة على قتل الصالحين أو إيذائهم.

قال السعدي : قوله : (وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) أى بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام. ثم فسر ذلك فقال: (تَدْعُونَنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها.

قال ابن عاشور : وجملته (تَدْعُونِي لَأُكْفِرَ بِاللَّهِ) بيان لجملة (وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ) لأن الدعوة إلى النار أمر مجمل مستغرب فبينه ببيان أنهم يدعونه إلى التلبس بالأسباب الموجبة عذاب النار . والمعنى : تدعونني للكفر بالله وإشراك ما لا أعلم مع الله في الإلهية .

قال الرازي : ولما ذكر هذا المؤمن أنه يدعوهم إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار، فسّر ذلك بأنهم يدعونه إلى الكفر بالله وإلى الشرك به، أما الكفر بالله فلأن الأكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الإله، ومنهم من كان يقر بوجود الله إلا أنه كان يثبت عبادة الأصنام ، **ومعنى قوله تعالى : (مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ)** ما ليس لي بصحته أو بوجوده علم. كذا قال في التفسير الوسيط.

ومعنى قوله تعالى : (وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) بيان للفرق الشاسع بين دعوته لهم ودعوتهم له فهم يدعونه إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل القاطع على بطلانها ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله – تعالى – وحده ، الغالب لكل ما سواه ، الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال البقاعي : في الآية: (وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ) من الاحتباك: ذكر النجاة الملازمة للإيمان أولاً دليلاً على حذف الجنة أولاً، ومراده هزهم وإثارة عزائمهم إلى الحياة منه بتذكيرهم أن ما يفعلونه معه ليس من شيم أهل المروءة يجازونه على إحسانه إليهم بالإساءة.

الثانية : قال البقاعي أيضاً في قوله تعالى : (مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) لما كان كل ما عده سبحانه ليس له من ذاته إلا العدم، أشار إلى حقارته بالتعبير بأداة ما لا يعقل فقال: (مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) أي نوع من العلم بصلاحيته لشيء من الشركة، فهو دعاء إلى الكذب في شيء لا يحل الإقدام عليه إلا بالدليل القطعي الذي لا يحتمل نوعاً من الشرك، وإذا لم يكن به علم لم يكن له عزة ولا مغفرة، فلم يكن له وجود لأن الملك لازم الإلهية وهو أشهر الأشياء، فما ادعى له أشهر الأشياء، فكان بحيث لا يعرف بوجه من الوجوه، كان عدماً محضاً.

الثالثة : قال الشعراوي : هذا كلام الرجل المؤمن من آل فرعون، كأنه كلام الأنبياء، وإني حتى الآن لم أهتد إلى سبب يقنعي كيف سكت فرعون على هذا الكلام، ولا أستطيع إلا أن أقول: إن الله سبحانه قادر على أن يجمع بين الشيء ونقيضه، فالمؤمن يجهر بهذا الكلام الإيمان لكن الحق سبحانه يُدخله في أذن فرعون غير ذلك، وإلا لما سكت عنه وتركه يتكلم بهذا المنطق الإيمان الذي يهدم ألوهية فرعون المدّعاة، أو كما قلنا أن وارد الرحمن لا يُعارض.

الرابعة : قال ابن عجيبة : (من باب الإشارة): النجاة التي دعاهم إليها: هي الزهد في الدنيا، وفي التمتع بها مع الاشتغال بالله، والنار التي دعوه إليها: هي الاشتغال بمتعة الدنيا

مع الغفلة عن الله. لا جرمَ أن ما دعوهُ إليه لا منفعة له في الدارين، بل ضرره أقرب من نفعه.

وقال أبو عثمان: من أراد النجاة فليترك ما لا يعنيه ويشغل بما يعنيه فإن فيه نجاته الدارين.

الخامسة : قال في أضواء البيان في تفسير قوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من أشرك بالله غيره أي ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه ولا نجات معه بحال، لأنه شبهه بالذي خر: أي سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقها في مكان سحيق: أي محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاته، فهو هالك لا محالة.

ثم قال رحمه الله تعالى : وما تضمنته هذه الآية الكريمة من هلاك من أشرك بالله وأنه لا يرجى له خلاص، جاء موضعاً في مواضع أخر كقوله: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} [المائدة: 72] الآية. وكقوله: {قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [الأعراف: 50] وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} [النساء: 48] الآية في الموضعين من سورة النساء، والخطف الأخذ بسرعة والسحيق البعيد. ومنه قوله تعالى: {فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك: 11] أي بعداً لهم.

وقد دلت آيات أخر على أن محل هذا الهلاك الذي لا خلاص منه بحال الواقع بمن يشرك بالله، إنما هو في حق من مات على ذلك الإشراك، ولم يتب منه قبل حضور الموت. أما من تاب من شركه قبل حضور الموت، فإن الله يغفر له، لأن الإسلام يجب ما قبله.

والآيات الدالة على ذلك متعددة كقوله: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: 38] وقوله في الدين: {قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: 73-74] وقوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [طه: 82] الآية. إلى غير ذلك من الآيات. وأما إن كانت توبته من شركه عند حضور الموت، فإنها لا تنفعه.

المبحث الثالث

مفهوم النجاة وأسبابها في القرآن الكريم⁴⁶

أولاً : النجاة في اللغة : من نَجَا يَنْجُو، نَجَؤًا، وَنَجَاءً، وَنَجَاةً. وهي: مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ فَلَمْ يَعْلِهِ السَّيْلُ فَظَنَّتُهُ نَجَاءًكَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا}؛ أَي نَجْعَلُكَ فَوْقَ نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَتُظْهِرَكَ أَوْ نُلْقِيكَ عَلَيْهَا لِتُعْرِفَ، لِأَنَّهُ قَالَ بِيَدِنَا وَلَمْ يَقُلْ بِرُوحِكَ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ نُلْقِيكَ غُرِيَانًا لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ عِبْرَةً. وَالنَّجَاةُ تَأْتِي أَيْضًا بِمَعْنَى: الْخَلَاصُ مِنَ الشَّيْءِ⁴⁷.

ثانياً : وردت النجاة بمشتقاتها في القرآن باستعمالات عدة:

مرة لبيان من ينجيهم الله تعالى في الآخرة، مثل قوله تعالى: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِيزَانٍ لَا يَمَسُّهُمْ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (الزمر: 61).

ومرة في معرض الامتنان بأنه سبحانه ينجي عباده في الدنيا مما يحذرون؛ مثل ما وقع مع نبي الله يونس، والذي هو نموذج لما يكون مع المؤمنين عامة؛ مثل قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ} (الأنبياء: 87، 88).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ - وَهُوَ ابْنُ أَبِي وَقَّاصٍ - يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (اسْمُ اللَّهِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هِيَ لِيُونُسَ خَاصَّةٌ أَمْ لِمَجْمَاعَةِ

⁴⁶ - مقال : عن مفهوم النجاة ومستوياته - السنوسي محمد السنوسي - موقع إسلام أون لاين - بتصرف.

⁴⁷ - لسان العرب، ابن منظور، مادة (نجا)، 305/15، بتصرف يسير.

المُسْلِمِينَ؟ قَالَ: هِيَ لِيُونُسَ بْنِ مَتَّى خَاصَّةً وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً، إِذَا دَعَوْا بِهَا، أَلَمْ تَسْمَعْ
قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}. فَهُوَ شَرْطٌ مِنَ اللَّهِ
لِمَنْ دَعَاهُ بِهِ⁴⁸.

كما كانت النجاة مقصودًا للمصلحين، مثل مؤمن آل فرعون الذي دعا قومه إليه،
قائلًا: { يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ } (غافر: 41).

وقيل في معنى النجاة هنا أنها: الإيمان، أو الجنة؛ ولا خلاف فإن الإيمان طريق الجنة
وسبيلها؛ فجاز أن تُطلق النجاة على السبيل أو على الغاية.

كما انشغل الصحابة أيضًا بالنجاة، حتى صارت محلَّ سؤال يوجهونه إلى النبي صلى الله
عليه وسلم ليدلهم على طريقها، وجاء الجواب شافيًا منه صلى الله عليه وسلم؛ فعن عقبة
بن عامر قال: قلت: يا رسول الله؟ ما النَّجَاةُ؟ قال: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ
بَيْتُكَ، وَابِكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ) (سنن الترمذي).

إذن، يتضح لنا أصالة هذا المفهوم في الاستعمال القرآني والنبوي، وأنه مفهوم متداول
بين المؤمنين قبل الإسلام وبعده؛ إذ إن الرسائل السماوية جميعها لا هدف لها إلا تحقيق
الفوز للمؤمنين في دنياهم وأخراهم؛ حتى ينالوا السعادة في الدنيا، ورضا الله تعالى وجنته في
الآخرة؛ وتلك هي حقيقة النجاة.

ثالثاً: إن للنجاة مستويين؛ مستوى الفرد، ومستوى المجموع: مجتمعاً وأمةً. وللأسف
يخلط البعض بينهما، ولا يعرف ما ينبغي لكل مستوى منهما. وفي المستوى الفردي تكون

48 - أخرجه السيوطي في الجامع الصغير والطبري وابن كثير في تفسيرهما.

النجاة بالإيمان وعبادة الله تعالى والتزام طريقه، في خاصة الفرد وفيمن يعول، أي من يقع تحت مسؤوليته.

ولعل حديث عقبة السابق يفصّل مفهوم النجاة على هذا المستوى؛ فقد تضمن أموراً ثلاثة من عوامل النجاة، هي: **إمساك اللسان، ولزوم البيت، والبكاء على الذنب.**

فإمساك اللسان: أي حفظه عما لا خير فيه. وأما لزوم البيت: **فَقَالَ الطَّبِيُّ: (الْأَمْرُ فِي الظَّاهِرِ وَارِدٌ عَلَى الْبَيْتِ وَفِي الْحَقِيقَةِ عَلَى الْمُخَاطَبِ؛ أَيِ تَعَرُّضَ مَا هُوَ سَبَبٌ لِلزُّومِ الْبَيْتِ مِنَ الْاشْتِعَالِ بِاللَّهِ وَالْمُؤَانَسَةِ بِطَاعَتِهِ وَالْحُلُوءَةِ عَنِ الْأَغْيَارِ)**⁴⁹. والبكاء على الخطيئة يكون بالندم عليها.

فالنجاة في مستواها الفردي تتطلب الإيمان بالله تعالى والتزام طريقه، والأخذ بالمعينات على هذا الطريق الذي يقتضي صبراً ومجاهدة، وحملاً للنفس على المكارِه وفطماً لها عن الشهوات. النجاة في مستواها الجماعي وهناك مستوى آخر للنجاة، هو مستوى المجموع: مجتمعاً وأمة؛ أي وصول هذا المجموع إلى شاطئ الأمان في الدنيا والآخرة، وارتفاعه عما يُوقع في الغفلة ويسبب التهلكة.. وتلك هي غاية الإسلام، وهدف المنهج الذي ارتضاه الله تعالى لعباده.

وفي هذا المستوى للنجاة أنبه على أمرين مهمين:

الأول: أن المرء قد يكون صالحاً في نفسه لكن غير مُصلح لغيره؛ أي أنه قد أخذ بما قد يحقق النجاة على مستواها الفردي لا الجماعي. ولهذا أمرنا الله تعالى بأن نكون مع المصلحين وليس منهم فحسب، فقال: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ }** (التوبة: 119).

⁴⁹ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذی، المبارکفوری، 74/7.

وَيَنْ سَبْحَانَهُ أَنْ عَدَمَ التَّنَاصُحِ مُوجِبٌ لِلْهَلَكَةِ، كَمَا حَدَثَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ:
{لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} (المائدة: 78،
79).

فالإسلام يريد من الفرد أن يحقق في نفسه عوامل النجاة، وأن يساعد على إيجاد هذه
العوامل عند الآخرين؛ وجعل جزاء ذلك أن يكون للمسلم أجر عمله وأجر عمل الآخرين
أيضًا، من غير أن يُنْقَصَ من أجورهم شيء، كما في الحديث المعروف.. وإلا فإن صلاحه
في نفسه لن ينجيه، إذا هو قَصَرَ عن البلاغ، ولم يَقم بالنصح الواجب.

الثاني: أن موجبات النجاة أو شروطها على المستوى الجماعي تختلف عن موجباتها أو
شروطها على المستوى الفردي؛ فلا يكفي لنجاة المجتمع أن يكون أفرادُه مجموعة من العباد
والزهاد، وإنما لا بد لهم من اطلاع واسع على فنون الحياة وما تستلزمه من علم وخبرة، ومن
أخذ بالأسباب واكتشاف للقوانين وعمل بالسنن.. فالعبادة— بمعناها الشعائري— لن تغني
شيئًا أمام معارك الحياة، ومواجهات الباطل.

ولهذا أمرنا الله تعالى بإعداد القوة، فقال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ
الْحَيْلِ} (الأنفال: 60).

وطلب منا أن نتكاتف جميعًا كما يتكاتف الأعداء جميعًا، فقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} (الأنفال: 73)، ولا شك أن هذا
يعني أيضًا أن نُعد لهم من الأسباب مثلما يعدون، لكن على قدر استطاعتنا، كما أوضحت
الآية السابقة.

رابعاً : لماذا الخلط بين المستويين؟

لكن البعض يخلط، للأسف، بين هذين المستويين للنجاة؛ مستوى الفرد ومستوى المجموع، ويظن أن تحقق شروط أحدهما يسري مفعوله في الثاني! وينتظر أن ينصره الله تعالى أو أن يمكّن الله لدينه في الأرض، لمجرد أن المسلمين أكثر صلاة وصياماً ويكثرون من قراءة القرآن الكريم! إن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الأسوة الحسنة، حينما كان يدخل غزوة من الغزوات، لم يكن يقصّر في اتخاذ ما يتوافر لديه من أسباب.. فكان يستشير أصحابه، ويضع الخطط، ويرص الصفوف، ويحفز الهمم، ويستكشف مواطن ضعف العدو.. ومع هذه الأسباب، لا يكف عن الدعاء، ويكثر من الضراعة لله تعالى، ويبشر المؤمنين بالجنة والنصر.. أي دون أن يتكل على الأسباب ويكتفي بها، ودون أن تكون حسن صلته بالله تعالى باعثاً على ترك الأسباب أو التقصير فيها.

خامساً : لعل الخلط بين مستويي النجاة راجع إلى:

1- عدم الفهم الصحيح لقانون السببية الذي هو سنة من سنن الله تعالى التي أقام عليها الكون والحياة.. مما يؤدي إلى إهمال الأسباب أو التقصير فيها.. ثم لإراحة الضمير، كما يقال، يلجأ البعض للقول بأن الإيمان كافٍ لتحقيق الفوز والنجاة!! غافلاً عن أن الأسباب تعطي نتائجها لمن يتخذها ويقوم بها، ولو كان كافراً، **وأن التقصير في ذلك لا يجبره الإيمان القلبي**. وإنما غاية الإيمان أن يحقق للمسلم الثبات، وأن يحفز، انتظاراً لوعده الله تعالى بالنصر أو الجنة.

2- عدم فهم قوانين النصر: فالنصر لا يتنزل على الغافلين، ولا على من انقطعوا للعبادة وقصروا في اتخاذ الأسباب.. وإنما يتنزل النصر على من يستوفي الشروط.

لكن من رحمة الله تعالى أنه لم يطالبنا بأن نتخذ من الأسباب مثل ما يتخذ غيرنا بالضبط، وإنما طالبنا بأن نبذل ما نستطيع، ثم وعدنا بالمدد بعد ذلك. فعون الله تعالى يتنزل على المسلم وهو في أرض المعركة بعد أن يكون قد استوفى ما لديه من أسباب وطاقات.

3- الفهم الجزئي لمعنى العبادة: فحصر العبادة في معناها الشعائري يجعل البعض يظن أنه متى قام بهذا الجانب، استحق نصر الله تعالى! ولا يدرك أن العبادة مفهوم واسع.

ويدخل فيها اتخاذ الأسباب، والتفاعل مع سنن الكون، وتسخير ما في السماوات والأرض لنصرة كلمة الله تعالى.. فالطبيب في معمله يتعبد لله تعالى، والفلاح في أرضه يتعبد أيضاً، وكذا كل عامل في مجال عمله.

لا يجوز أن نقعد بجوار الحقل نكتفي بالدعاء منتظرين النبات والثمر، دون أن نزرع الأرض عملاً وجداً أولاً!! إذن، علينا أن ندرك مستويي النجاة، ونعلم أن لكل مستوى شروطه ومقتضياته، وأن شروط النجاة على المستوى الفردي تختلف عنها على المستوى الجماعي، ولا تغني عنها.. وهذا يستلزم تصحيح تصوراتنا عن قوانين السببية، والنصر، والفهم الصحيح للعبادة.. من الله تعالى العون وعليه التكلان.

الفصل الثامن عشر

لا إله إلا الله هي المثل الأعلى

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضعين ، وهما :

قول الله تعالى: (لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [النحل: ٦٠].

وقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الروم: 27].

وحديثنا حول الآيتين سيكون في ثلاثة مباحث: المعنى الإجمالي لهما، والوقفات التدبرية في الآية الكريمة ، ثم تعظيم الله تعالى بالقلب واللسان والجوارح.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين: (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ)

أولاً : تفسير قوله تعالى : (لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

قوله تعالى : (لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ):

المثل: الحال والصفة العجيبة في الحسن والقبح.

والسوء: مصدر ساء يسوءه سوءاً، إذا عمل معه ما يكره، وإضافة المثل إلى السوء للبيان.

والمراد بمثل السوء: أفعال المشركين القبيحة والتي سبق ذكرها في الآيات المتقدمة كقوله

تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ۖ وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنَ

سُوءَ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [النحل : 57-59].

والمعنى (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) وما فيها من حساب وثواب وعقاب **(مَثَلُ السُّوءِ)** للذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب . . . صفة السوء ، التي هي كالمثل في القبح ، وفرحهم بولادة الذكور للاستظهار بهم، كما حكاها الله عنهم **(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)** [سورة النحل : 57] من الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم بعد موتهم ويبقى به ذكركم، وإيثار الذكور للاستظهار.

ومن ذلك : وأدهم البنات لدفع العار أو خشية الإملاق على حسب اختلاف أغراض الوائدين المنادي كل واحد من ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ . ، وجعلهم لآهتهم . نصيبا مما رزقناهم ، وقولهم : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) فيها قولان :

القول الأول : وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أن المثل الأعلى : شهادة أن لا إله إلا الله وهو رواية عن ابن عباس.

القول الثاني : أن الله عز وجل له المثل الأعلى أى الصفة العليا، وهي أنها الواحد الأحد، المنزه عن الوالد والولد: والمبرأ من مشابهة الحوادث، والمستحق لكل صفات الكمال والجلال في الوجدانية، والقدرة والعلم.. وغير ذلك مما يليق به سبحانه .

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) أي الصفة العجيبة الشأن التي هي مثل في العلو مطلقاً وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه تعالى عما يقول علواً كبيراً.

وجمع بعض أهل التفسير بينهما فقال : المثل الأعلى معناه الصفة العليا وهي لا إله إلا الله، وضرب المثل هو تشبيه شيء بشيء أو حال بحال، والمثل الأعلى هو الوصف الأعلى الذي لا يتصل به تكيف ولا يتمثل مع شيء.

قوله تعالى : (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أي في ملكه بحيث لا يغلبه غالب (الْحَكِيمُ) في كل أفعاله وأقواله.

وقال النسفي : هو الغني عن العالمين والنزاهة عن صفات المخلوقين (وَهُوَ الْعَزِيزُ) الغالب في تنفيذ ما أراد (الْحَكِيمُ) في إمهال العباد.

وقال الآلوسي : (وَهُوَ الْعَزِيزُ) المنفرد بكمال القدرة على كل شيء ومن ذلك مؤاخذتهم بقبائحهم، وقيل: هو الذي لا يوجد له نظير (الْحَكِيمُ) الذي يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة.

ثانياً تفسير : قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الروم:27].

معنى قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أما بدء خلقه فبعلقه في الرحم قبل ولادته، وأما إعادته فإحياءه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلاً على ما خفي من إعادته استدلالاً بالشاهد على الغائب. كذا قال الماوردي.

ثم أكد ذلك بقوله: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) قال ابن الجوزي : وفيه أربعة أقوال:

أحدها: أن الإعادة أهون عليه من البداية، وكلُّ هيئٍ عليه، قاله مجاهد، وأبو العالية.

والثاني: أن «أهون» بمعنى «هيئ»، فالمعنى: وهو هيئٍ عليه، وقد يوضع «أفعل» في موضع «فاعل»، ومثله قولهم في الأذان: الله أكبر، أي: الله كبير.

قال الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

وقال معن بن أوس المزني:

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لِأَوْجَلُ عَلَى أَتِنَا تَغْدُوا الْمَيِّتَةَ أَوَّلُ

أي: وإِنِّي لَوْجَل.

وقال غيره:

تَمَّتْ رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ

أي: لَسْتُ فِيهَا بِوَاحِدٍ، هذا قول أبي عبيدة، وهو مروى عن الحسن، وقتادة.

والثالث: أنه خاطب العباد بما يعقلون، فأعلمهم أنه يجب أن يكون عندهم البعث أسهل من الابتداء في تقديرهم وحُكمهم، فمن قَدَرَ على الإنشاء كان البعث أهونَ عليه، هذا اختيار الفراء، والمبرد، والزجاج، وهو قول مقاتل.

وعلى هذه الأقوال الثلاثة تكون الهاء في «عليه» عائدة إلى الله تعالى.

والرابع: أن الهاء تعود على المخلوق، لأنه خلقه نطفة ثم علقه ثم مضغه، ويوم القيامة يقول له كن فيكون، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وهو اختيار قطرب.

معنى قوله تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى): أي الصفة العليا وهي لا إله إلا الله. وقد تقدم تفصيل القول فيها عند تفسير الآية السابقة.

معنى قوله تعالى: (في السموات والأرض) أي كان استحقاقه المثل الأعلى مستقرّاً في السموات والأرض، أي في كائنات السموات والأرض، فالمراد: أهلها، على حدّ (واسأل

القرية) [يوسف: 82]، أي هو موصوف بأشرف الصفات وأعظم الشؤون على ألسنة العقلاء وهي الملائكة والبشر المعتد بعقولهم ولا اعتداد بالمعطلين منهم لسخافة عقولهم وفي دلائل الأدلة الكائنة في السماوات وفي الأرض، فكل تلك الأدلة شاهدة بأن الله المثل الأعلى.

ومن جملة المثل الأعلى أو الوصف الأعلى (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أي عزته وحكمته تعالى؛ فخصًا بالذكر هنا لأنهما الصفتان اللتان تظهر آثارهما في الغرض المتحدث عنه وهو بدء الخلق وإعادته؛ فالعزة تقتضي الغنى المطلق فهي تقتضي تمام القدرة. والحكمة تقتضي عموم العلم. ومن آثار القدرة والحكمة أنه يعيد الخلق بقدرته وأن الغاية من ذلك الجزاء وهو من حكمته. كذا قال ابن عاشور.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين

الأولى : جاء في التفسير الوسيط :

فإن قيل: كيف جاء هنا (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) مع قوله تعالى: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ)؟

فالجواب: أنَّ المثل الذي يضربه الله حقٌّ وصدقٌ، والذي يذكره غيره باطل.

وقال القرطبي في الجواب: إن قوله تعالى: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ)، أي: الأمثال التي توجب الأشباه، والتَّقَائِصَ، أي: لا تضربوا لله مثلاً يقتضي نقصاً وتشبهاً بالخلق، والمثل الأعلى: وصفه بما لا شبيه له ولا نظير".

الثانية : قال في التحرير والتنوير:(الأعلى): معناه الأعظم البالغ نهاية حقيقة العظمة والقوة.

قال حجة الإسلام في الإحياء : « لا طاقة للبشر أن ينفذوا غَوْرَ الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضَوْءَ الشمس ولكنهم ينالون منها ما تحيا به أبصارهم وقد تأنق بعضهم في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام المجيد إلى فهم الإنسان لعلو درجة الكلام المجيد وقصور رتبة الأفهام البشرية فإن الناس إذا أرادوا أن يفهموا الدواب ما يريدون من تقديمها وتأخيرها ونحوه ورأوها تقصر عن فهم الكلام الصادر عن العقول مع حسنه وترتيبه نزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إليها بأصواتٍ يضعونها لاثقة بها من الصفير ونحوه من الأصوات القريبة من أصواتها» اهـ.

الثالثة : ذكر ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) حديثاً : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم : **(يقول الله تعالى: كذبي ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقلوله: لن يعيدني كما بدأني،**

وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي، فقلوله: اتخذ الله ولداً، وأنا
الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد) ثم قال : انفراد بإخراجه
البخاري.

الرابعة : قال ابن كثير : وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) لبعض أهل المعارف:

إذا سكنَ الغديرُ على صفاءٍ وجُنِبَ أن يحركهُ النسيمُ
تَرى فيه السَّمَاءَ بلا امتراءٍ كذاك الشمسُ تبدو والنجومُ
كذاك قلوبُ أربابِ التَّجَلِّي يُرى في صفوها الله العظيمُ

الخامسة : قال السعدي : (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وهو كل صفة كمال،
والكمال من تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكر الجليل
والعبادة منهم. فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في
المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في
المخلوق ينزه عنه فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

السادسة : قال الألوسي : قوله تعالى: (وَلَهُ) تعالى شأنه خاصة (الْمَثَلُ) أي الوصف العجيب
الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال (الْأَعْلَى) الذي ليس لغيره ما
يدانيه فضلاً عما يساويه فكأنه قيل هذا لتفهم العقول القاصرة إذ صفاته تعالى عجيبة وقدرته
جل شأنه عامة وحكمته سبحانه تامة فكل شيء بدأ وإعادة وإيجاداً وإعداماً على حد سواء
ولا مثل له تعالى ولا ند.

السابعة : قال الشعراوي : يقول سبحانه: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الروم:

27] له المثل الأعلى يعني: أن الله تعالى لا مثيل له، فإن شابهه سبحانه شيء من خلقه في صفة من الصفات فخذها في إطار التقريب للمعنى، وفي إطار (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى: 11] فلك وجود والله تعالى وجود، لكن وجودك ليس كوجود الله، أنت حيٌّ والله حيٌّ، لكن حياتك ليست كحياته عز وجل .. وهكذا.

وقوله (الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) [الروم: 27] نقول: عالٍ وأعلى، فهي أفعَل تفضيل بمعنى: الذي لا يُشابه ولا يُضاهي .

وطريقة العرب في الأداء في مسألة المشابهة يقولون: زيد مثل الأسد في الشجاعة، فأنت تريد أن تعطيني صورة لشجاعة زيد، فذكرت أوضح شيء لهذه الصفة وهو الأسد، فهو مُشَبَّه به. إذن: فالأسد أقوى من زيد في هذه الصفة، وإلا لما جعلت المشبَّه به توضيحاً لما لا تعلم. وانظر إلى جمال الحق سبحانه حين يُجَلِّي للخلق مثلاً في دنياهم، ويجعل من ذاته - سبحانه وتعالى - المماثلة، يقول تعالى لِيُقَرَّبَ لِفَهْمَانَا كَيْفِيَّةَ نَوْرِهِ: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ) [النور: 35].

فإن الله سبحانه وتعالى يضرب المثل لنوره بالمشكاة، السطحيون يظنون أن المشكاة هي المصباح، لكن الله يقول (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) [النور: 35] **والمشكاة** تجويف في الحائط، مثل الطاقة غير نافذة، فإن كانت نافذة نسميها شباكاً، وكانوا في الماضي يضعون المصباح في هذه الفجوة ليضيء الحجرة، والفجوة هذه أو المشكاة تجمع الضوء وتُقَوِّيه؛ لذلك يكون الضوء فيها أقوى من ضوء الحجرة، أو: أن المصباح يستوعب المشكاة أكثر من استيعابه للحجرة كلها.

وبتأمل هذا المعنى نرى أن الحق سبحانه لا يضرب لنا مثلاً لنوره إنما لتنويره، فتنوير الله تعالى مثل المشكاة التي فيها المصباح، والمصباح يدلُّ على الرقي في وسائل الإضاءة، فدونه مثلاً

الشعلة، وهو فتيل يُوقَد في الهواء ويكون له دخان أسود، أما المصباح فله زجاجة تحجز عنه الهواء إلا بقدر ما يكفي لاحتراق الفتيل، فيأتي الضوء منه صافياً.

ثم هو فضلاً عن ذلك في زجاجة ليست عادية، (إِنَّمَا كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) أي: مثل الدرة التي تضيء بذاتها، هذا المصباح يُوقَد من شجرة زيتونة معتدلة المزاج (لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ) فتصوّر هذا المصباح في مكان ضيق لا في الحجرة كلها، إنما في المشكاة كيف يكون ضوءه؟

كذلك تنوير الله - سبحانه وتعالى - للسموات والأرض على سعتهما، فنوره تعالى يستوعبهما، لا يترك منهما مكاناً مظلماً كالطاقة بالنسبة لهذا المصباح الذي وصفنا.

ولهذا المثل قصة شهيرة في الأدب العربي، فقد فطن إليها أبو تمام في مدحه أحد الخلفاء، وحين أراد أن يجمع له ملكات العرب ومواهبهم من الجود والشجاعة والحلم والذكاء، قال مادحاً:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ وَفِي حِلْمِ أَحْنَفٍ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ

وقد اشتهر عمرو بن معدي كرب **بالشجاعة والإقدام**، واشتهر حاتم الطائي **بالكرم**، وأحنف بن قيس **بالحلم حتى قيل (أحلم العرب)** فلا يُغضبه شيء أبداً، ولا يُخرجه عن حلمه. أما إياس بن معاوية فكان مَضْرَبُ المثل **في الذكاء**، وهكذا جمع أبو تمام لممدوحه خلاصة ما تعرفه العرب من مواهب.

وهنا قام له واحد من خصومه وقال: أَتَشَبَّهُ الخليفة بأجلاف العرب، فَمَنْ يكون هؤلاء إذا ما قُورِنوا بأُمير المؤمنين؟

وهذا الاعتراض مأخوذ من قول الشاعر:

وَشَبَّهَهُ المَدَّاحُ فِي البَّاسِ والنَّدَى بَمَنْ لَوْ رَأَاهُ كَانَ أَصْغَرَ خَادِمٍ
فَفِي جيشه حَمْسُونَ ألفاً كَعَنْتِرٍ وَأَمْضَى وَفِي خُدَّامِهِ ألفُ حَاتِمٍ

فلما قيل لأيي تمام: كيف تشبه الخليفة بأجلاف العرب أحجم هنيهة ثم رفع رأسه، وقال:

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُّودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ

فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِثَوْرِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

ومع دِقَّة الاستشهاد وطرافته إلا أن خصومه اتهموه بأن ذلك ليس ارتجالاً لوقته، إنما هو مُعَدُّ لهذا الموقف سلفاً، وبعض الدارسين للأدب يقول بذلك وقاله لنا مدرس الأدب، لكن يُروى أنهم لما أخذوا الورقة التي مع أبي تمام لم يجدوا فيها هذه الأبيات، ثم على فرض أن الرجل أعدها قبل هذا الموقف فإنها تُحسب له لا عليه، وتضيف إليه ذكاءً آخر؛ لأنه استدرك على ما يمكن أن يُقال فاستعد له.

المبحث الثالث

تعظيم الله تعالى بالقلب واللسان والجوارح

مما تشير إليه الآيتين المذكورين أن الواجب على المسلم أن يكون على قدر كبير من تعظيم اله تعالى لأنه له المثل الأعلى وهو الصفات العظمى والأسماء الحسنى ومن هنا ذكر طرفا مما قاله العلماء والباحثون في وجوب تعظيم الله تعالى، فأقول ومن الله تعالى أرجو السداد والقبول⁵⁰ :

أمر سبحانه بتعظيمه فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74].

العظمة الكاملة المطلقة لله جل وعلا، من نازعه فيها ألبسه لباس الذل والعار في الدنيا وألقاه يوم القيامة في نار جهنم، ففي الحديث القدسي : **(الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، من نازعني واحداً منهما ألقيته في النار).**

عظيم سبحانه في ذاته، عظيم في أسمائه وصفاته، عظيم في ملكه وسلطانه، رفع السماوات بغير عمد وهو ممسكها وحافظها، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾** [فاطر: 41] وقال سبحانه: **﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾** [البقرة: 255].

عظيم في خلقه وأمره، يقول سبحانه: **﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْسٍ وَاحِدَةً﴾** [لقمان: 28].

⁵⁰ - ملخصا من مقالين : تعظيم الله تعالى - الكاتب: أديب بن محمد المحيذيف - مجلة البيان - إسلام ويب ومقال : تعظيم الله تعالى - د. عبد الرحمن بن سعيد الحازمي - شبكة الألوكة.

عظيم في علمه وكلماته، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: 27].

عظيم في دينه وشريعته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87].

تأمل أدعية النبي صلى الله عليه وسلم والأذكار، تجد التعظيم والإجلال والإكبار، ففي دعاء الكرب يعظم ربه داعيا فيقول: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

وعظ نبي الله نوح قومه حين أشركوا مع الله غيره قائلا: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13] أي: مالكم لا تعظمون الله، مالكم لا تقدرونه حق قدره.

وصدق الله إذ قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67].

تكاد الجمادات تتصدع مما نسب إليه المشركون تعظيما وإجلالا، يقول تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90، 91].

ذلت لعظمته وخضعت لجبروته الكائنات، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 18].

علم الملائكة عظمتته فخافوه وعظموه، يقول الله عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50] وقال أيضا: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٍ يَعْمَلُونَ﴾ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 27، 28].

خاطب عباده بعظمتته في الحديث القدسي فقال: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) رواه مسلم.

ولعل من أعظم أسباب عدم تعظيم الله ما يلي :

1 - الوقوع في المعاصي ، وهذه هي المعضلة ، وهي السبب في كل بلاء ومحنة وبعد عن الله تعالى .

قال ابن القيم رحمه الله : (وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته ، ويهون عليه حقه ، ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخف به).

وقال بشر بن الحارث رحمه الله : لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوا الله .

2 - التساهل في أوامر الله ؛ فتجد كثيراً من الناس لا يؤدّون العبادات على الوجه المطلوب ؛ فلو كانوا يعظمون الله حق التعظيم لعظموا أمره كذلك .

3 - عدم تدبر القرآن حال قراءته ، وعدم الوقوف عند وعده ووعيده ، وأصبح همّ القارئ آخر السورة فحسب دون اعتبار للهدف الذي أنزل من أجله القرآن . قال تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (سورة ص : 29) .

4 - الغفلة عن ذكر الله فتجد أحداً في المستشفيات أو في إحدى الدوائر الحكومية جالساً على كرسي الانتظار زمناً طويلاً وهو لا يذكر الله ولا يسبحه ولا يكبره ؛ حتى وإن سبح وكبر فهو لا يعي معنى هذا التسبيح وهذا التكبير ، وهذه مشكلة لا بد أن نعالجها في نفوسنا .

5 - النظر فيما حرم الله تعالى ؛ فالنظر الحرام يولد في القلب القسوة والجفاء ، وهذا لا يتأتى مع التعظيم ؛ لأن التعظيم لا يكون إلا من قلب خاضع خاشع لين مقبل على الله بكلية .

ولهذا فلا عجب أن يكون السلف الصالح رضوان الله عليهم من أشد الناس تعظيماً لله ؛ لأنهم أحرص الناس على طاعته وأبعدهم عن معصيته .

قال القنوجي : وهم أي السلف الصالح أشد تعظيماً لله وتنزيهاً له عما لا يليق بحاله .

وقال ابن منده في كتاب الإيمان : والعباد يتفاضلون في الإيمان على قدر تعظيم الله في القلوب والإجلال له ، والمراقبة لله في السر والعلانية .

الأمور المعينة على تعظيم الله تعالى ، منها :

1 - تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى ؛ فالعبد كلما تقرب إلى ربه بأنواع العبادات وأصناف القربات عظم في قلبه أمر الله ؛ فتراه مسارعاً لفعل الطاعات مبتعداً عن المعاصي والسيئات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته.

2 - التدبر الدقيق للقرآن الكريم وما فيه من حكم وأحكام ، والنظر فيما فيه من الدروس والعبر ، وأن نتدبر في الآيات التي تتحدث عن خلق الله وبديع صنعته ، والآيات التي تتحدث عن عقوبته وشديد بطشه ، وآيات الوعد والوعيد ، فإن تدبر القرآن يؤثر في القلب ولا شك ، ويُذكي فيه عظمة الخالق والخوف منه . قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم صاحب حاشية الروض رحمه الله : بل قراءة آية بتدبر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة الإيمان ، وهكذا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم والسلف من بعده ، حتى إنه ليردد الآية إلى الصباح ، وهذا هو أصل صلاح القلب ، ومن مكائد الشيطان تنفير عباد الله من تدبر القرآن لعلمه أن الهدى واقع في التدبر .

3 - التفكير في خلق السماوات والأرض ؛ فإن الناظر فيها ليدersh من بديع صنعها وعظيم خلقها واتساعها ؛ ومع هذا فهو لا يرى فيها شقوقاً ولا فطوراً قال تعالى : (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) [الملك : 3-4] .

ولهذا أثنى الله على عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ؛ قال تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران: 190-191) .

ومن الأحاديث الدالة على عظمة السماوات ما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال الرسول صلى الله عليه وسلم : **(ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة).**

فهذا الحديث يبين عظمة السماوات وعظمة الكرسي والعرش ؛ ونحن بني آدم لا نسوي شيئاً أمام هذه المخلوقات العظيمة ، ومع ذلك يقول الله تعالى في السماء والأرض **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)** (فصلت : 11)

قال الشوكاني رحمه الله تعالى : أي أتينا أمرك منقادين ؛ فيا سبحان الله ! كيف بالإنسان هذا الضعيف الدليل يتكبر ويتبجح ويقارع جبار السماوات والأرض بالمعاصي والآثام ؟ ! نسأل الله السلامة والعافية.

4 - النظر في حال من غبر ؛ فلقد عاش على هذه الأرض أقوام وشعوب أعطاهم الله بسطة في الجسم وقوة في البدن لم يعطها أمة من الأمم ولكنها كفرت بالله وكذبت بالرسول ؛ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ودمرهم تدميراً ؛ فيها هم قوم عاد الذين قالوا : من أشد منا قوة ؟ ! أهلكهم الله **(بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)** (الحاقة : 6-7) ، وها هم ثمود الذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين أهلكهم الله بالصيحة **(فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)** (هود : 67) ، فالله سبحانه لم يتكلف في عذاب هذه الأمم ولم يكن له سبحانه أن يتكلف ؛ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ؛ فما بالنا نحن الأضعف والأقل قوة وبطشاً لا نخشى أن يصيبنا مثل ما أصاب أولئك ؟ .

5 - الدعاء : وهو أنفع الأدوية وأقوى الأسباب متى ما حضر القلب وصدقت النية ؛
فإن الله لا يخيّب من رجاه قال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة: 186) .

من تعظيم الله جل وعلا: تقديم محبته على محبة ما سواه.

من تعظيم الله تعالى: كثرة ذكره وحمده وشكره واستغفاره.

من تعظيم الله تعالى: تعظيم شريعته، والوقوف عند حدوده.

فاللهم إنا نسألك تعظيمك والخوف منك ، وأن تمن علينا بتوبة صادقة تعيننا على طاعتك
واجتناب معصيتك .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الفصل التاسع عشر

لا إله إلا الله هي كلمة الصدق

جاء هذا اللقب في موضع واحد ، وهو: قول الله تعالى: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) [الزمر: 33-34].

وسيدور الحديث حول الآية في ثلاثة مباحث: المعنى الإجمالي للآية الكريمة ، والوقفات التدريبية في الآية الكريمة ، ثم أهمية الصدق في المجتمع.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)

معنى قوله تعالى: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ): فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: عن ابن عباس: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ) قال: من جاء بلا إله إلا الله ، (وصدق به) يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم .

القول الثاني: عن الربيع بن أنس أنه قرأ - قراءة تفسيرية - : (الذين جاءوا بالصدق) يعني: الأنبياء ، (وصدقوا به) يعني: الأتباع .

القول الثالث: عن مجاهد: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة ، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا ، فعملنا فيه بما أمرتمونا .

القول الرابع: قال علي رضي الله عنه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم (وصدق به) المسلمون. (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) قال ابن عباس: اتقوا الشرك .

وقد جمع الطبري بين هذه الأقوال بقوله : كل من دعا إلى توحيد الله، وتصديق رسله، والعمل بما ابتعث به رسوله من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به: المؤمنون بالقرآن، من جميع خلق الله كائناً من كان من نبي الله وأتباعه. وكذا قال القاسمي .

معنى قوله تعالى : (أولئك هم المتقون) أي: الموصوفون بالتقوى التي هي أجل الرغائب . ولذا كان جزاؤهم أن يقيهم الله ما يكرهون.

وقيل : بنور الصدق يرون الحق والباطل فيتقون بالحق عن الباطل.

معنى قوله تعالى : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) أي من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرام عندي؛ أي ينالك مني ذلك. (ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) الثناء في الدنيا والثواب في الآخرة.

قال الشعراوي : قوله: (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ) أي: متوفر لهم كل ما يشاءون، لكن عند مَنْ؟ (عِنْدَ رَبِّهِمْ) حين تكون لا عندية إلا لله وحده، هذه العندية هي معنى قوله تعالى: (لِمَنْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ) [غافر: 16].

فالعندية تكون للناس في الدنيا، فهذا موظف عند هذا، وهذا خادم عند هذا، أما في الآخرة فالعندية لله وحده، وفي هذه العندية ينال المؤمن ما اشتهاه في الدنيا ولم يحصل عليه في الآخرة يقول الله (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) ولم يقل لهم ما يشاءون، بل ما يشاءون عندي أنا. أي: بلا أسباب، لأن الأسباب كانت في الدنيا، وما تريده بالأسباب قد لا يتحقق لك، وإن كان في يدك لأن الله يزاول سلطانه بواسطة خلفائه في الأرض، فيجعل هذا سبباً في رزق هذا، وهذا يعين هذا، والأسباب قد تتخلف أما في الآخرة فلا أسباب، بل هو عطاء الله المباشر بلا سبب.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : قال الرازي : واعلم أنه تعالى أثبت للذي جاء بالصدق وصدق به أحكاما كثيرة : أهمها قوله (أولئك هم المتقون) ، وتقديره أن التوحيد والشرك ضدان ، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل ، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء ، والآتي بأحد الضدين يكون تاركا للضد الثاني ، فالآتي بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركا للشرك الذي هو أخس الأشياء وأرذلها ، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين .

الثانية : قال ابن عاشور : وجملة (أولئك هم المتقون) جيء باسم الإشارة للعناية بتمييزهم أكمل تمييز، وضمير الفصل في قوله (هم المتقون) يفيد قصر جنس المتقين على (الذي جاء بالصدق وصدق به) لأنه لا متقي يومئذٍ غير الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكلهم متقون لأن المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم لما أشرقت على نفوسهم أنوار الرسول صلى الله عليه وسلم تطهرت ضمائرهم من كل سيئة فكانوا محفوظين من الله بالتقوى قال تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) [آل عمران:110].

والمعنى : أولئك هم الذين تحقق فيهم ما أريد من إنزال القرآن الذي أشير إليه في قوله: (لعلهم يتقون) [الزمر: 28].

الثالثة : قال الشعراوي : (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ) وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي تلقى عن ربه وبلغ أمته، وقد أكد الله تعالى صدق رسوله في مواضع كثيرة، منها: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) [الحاقة: 44-47].

إذن: مسألة الكذب على الله مسألة لا يُحايي فيها أحد حتى الرسل، لذلك جاء بلاغه صلى الله عليه وسلم عن ربه دقيقاً، فتراه لا يبلغ مضمون المقولات، إنما يبلغ المقولات ذاتها، وقرأ قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) [الإخلاص: 1] فكان بإمكانه صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: الله أحد. وبذلك يكون قد بلغ المراد من الآية إنما قال كما جاءه من ربه (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فذكر الأمر بأن يقول (قل).

والعجيب أن يطلع علينا مَنْ يقول بحذف مثل هذه الكلمة بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى، ونقول: هذا ليس كلامَ بشر، بل هو كلام الله وقرآنه، وقد حفظه الله بنفسه وبلغه رسوله كما تلقاه عن ربه.

أرأيت لو أرسلت ابنك ليبلغ عنك قضية مثلاً وقلت له: اذهب إلى فلان وقل له كذا وكذا، وبإمكان الولد أن يبلغ مضمون القضية، لكنه حين يقول: أبي قال لي قل لفلان كذا وكذا، فهذا يعني أنه يؤكد الكلام ويهتّم بالرسالة كما تلقاها، إذن: لو حُذِفَتْ كلمة (قُلْ) فقد حُذِفَتْ كلمة من القرآن، لا كلمة زائدة عليه.

الرابعة: قال الشعراوي : وقوله: (وَصَدَّقَ بِهِ) أي: صدّق بالصدق الذي جاء به، صدّق هو أولاً ولم ينتظر منا أن نُصدّق نحن أو نشهد بذلك، لقد أخذ الرسول عن ربه أنه إله واحد لا شريك له فشهد بذلك أولاً وصدّق، كذلك الحق سبحانه لم ينتظر شهادة العباد بوحدانيته إنما شهد بها لنفسه أولاً، فقال سبحانه: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ) [آل عمران: 18] وبعد أن شهد الله لنفسه بالوحدانية وجب على الرسول أيضاً أن يشهد بأن محمداً رسول الله.

إذن: جاء بالصدق وصدّق هو به وقال هو عن نفسه: أشهد أن محمداً رسول الله. كذلك شهد الملائكة بهذه الوحدانية، وشهد بها أولو العلم شهادة الحجة والدليل والبرهان.

الخامسة : وقد ورد لفظ **(الصدق)** في القرآن الكريم في ثلاثة وخمسين ومائة (153) موضع، جاء في واحد وثلاثين (31) بصيغة الفعل، نحو قوله تعالى: **(ولقد صدقكم الله وعده)** (آل عمران:152).

وجاء في اثنين وعشرين ومائة (122) موضع بصيغة الاسم، من ذلك قوله سبحانه: **(والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)** (الزمر:33). وأكثر ما ورد لفظ **(الصدق)** بصيغة جمع المذكر السالم المنصوب أو المجرور، حيث جاء في خمسين موضعاً (50)، من ذلك قوله عز وجل: **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)** (التوبة:119).

السادسة : أكثر ما ورد لفظ **(الصدق)** باشتقاقاته المختلفة وصفاً للمؤمنين، أو فعلاً من أفعال عباده الصالحين.

الصادقون بمعنى الموحدين و**الصدق** بمعنى التوحيد، جاء على هذا المعنى قوله عز وجل: **(هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم)** (المائدة:119)، قال ابن عباس: يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ويحمل على هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: **(وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)** (الزمر:33).

الصادقون بمعنى لزوم الصدق، جاء على هذا قوله عز وجل: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)** (التوبة:119)، قال ابن كثير: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجاً. وأكثر ما جاء لفظ **(الصدق)** في القرآن على هذا المعنى.

الصادقون بمعنى العباد المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، و**الصدق** بمعنى العهد، من ذلك قوله تعالى: **(ليجزي الله الصادقين بصدقهم)** (الأحزاب:24)، قال الطبري: ليشيب الله أهل الصدق بصدقهم الله بما عاهدوه عليه، ووفائهم له به. ومن هذا القبيل قوله عز وجل:

{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه} (الأحزاب: 23)، أي: حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم.

السابعة: قد أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) (الإسراء: 80).

وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أن يجعل له (لسان صدق في الآخرين) (الشعراء: 84).

وبشر عباده أن لهم قدم صدق، فقال: (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) (يونس: 2).

وبشرهم أيضاً أنهم (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) (القمر: 55). فهذه خمسة أشياء: مُدخل الصدق، ومُخرج الصدق، ولسان الصدق، ومقعد الصدق، وقدم الصدق.

أما (مُدخل الصدق) و(مُخرجه) فقد تعددت الأقوال في المراد منهما، ورجح الطبري أن المراد: أدخلني (المدينة) (مدخل صدق)، وأخرجني من مكة (مخرج صدق)، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من التابعين.

وأما (لسان الصدق) فهو الثناء الحسن من سائر الأمم بالصدق ليس بالكذب. قال ابن كثير: أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي، أذكر به، ويُقتدى بي في الخير.

و(قدم الصدق) ذكر الطبري في المراد منه أقوالاً، ورجح أن المراد أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب. قال: وذلك أنه محكي عن العرب: "هؤلاء أهل القدم في الإسلام"، أي: هؤلاء الذين قدموا فيه خيراً، فكان لهم فيه تقديم. ويقال: له عندي قدم صدق، وقدم سوء، وذلك ما قدم إليه من خير أو شر.

و(مقعد الصدق) هو الجنة عند ربهم تبارك وتعالى، قال ابن كثير : أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه.

نخلص مما تقدم، أن لفظ **(الصدق)** من الألفاظ المحورية التي تواتر ذكرها في القرآن الكريم باشتقاقات مختلفة وتصريفات متعددة، وقد ورد هذا اللفظ -في الأغلب- وصفاً للمؤمنين بالله حق الإيمان، مع الإشارة إلى أن ألفاظ **(الصدقة)**، و**(التصدق)**، و**(المتصدقين)**، ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل تحت لفظ **(الصدق)**، قد جاءت في مواضع عديدة من القرآن الكريم تفيد معنى البذل والعطاء.

المبحث الثالث

أهمية الصدق في المجتمع

يسأل الكثير من الناس عن أهمية الصدق وآثاره على الفرد والمجتمع فأجاب الشيخ محمد صالح المنجد رحمه الله فقال :

الصدق هو: قول الحق الذي يواطئ فيه اللسان القلب، وهو أيضاً: القول المطابق للواقع والحقيقة من حيث اللغة.

ولما كان الصدق ضرورة من ضرورات المجتمع الإنساني، وفضيلة من فضائل السلوك البشري ذات النفع العظيم، وكان الكذب عنصر إفساد كبير للمجتمعات الإنسانية، وسبب لهدم أبنيتها، وتقطيع روابطها وصلاتها، ورذيلة من رذائل السلوك ذات الضرر البالغ؛ أمر الإسلام بالصدق ونهى عن الكذب. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:119]، قال ابن كثير رحمه الله: أي: "اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً" أ.هـ .

وقال سبحانه: {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} [محمد:21]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا» (رواه مسلم 4721).

فدل هذا الحديث على أن الصدق يهدي إلى البر، والبر كلمة جامعة تدل على كل وجوه الخير، ومختلف الأعمال الصالحات، والفجور في أصله الميل والانحراف عن الحق، والفاجر هو المائل عن طريق الهداية، والفجور والبر ضدان متقابلان. وعن الحسن بن علي بن أبي طالب

رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريك إلى ما لا يريك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة» (رواه الترمذي 2520 والنسائي 327/8 وأحمد 200/1).

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما) رواه البخاري ومسلم.

والصدق يشمل الصدق مع الله بإخلاص العبادة لله والصدق مع النفس بإقامتها على شرع الله والصدق مع الناس في الكلام والوعد والمعاملات من البيع والشراء والنكاح فلا تدليس ولا غش ولا تزوير ولا إخفاء للمعلومات وهكذا حتى يكون ظاهر الإنسان كباطنه وسره كعلانيته. أما بالنسبة للكذب فإنه محرم عظيم ويتفاوت في القبح والإثم وأشنع صورته الكذب على الله والرسول لأنه افتراء في الدين، وتجروء عظيم على الله، ولذلك كان من صفات النبي صلى الله عليه وسلم صفة الصدق في تبليغ ما أمره الله بتبليغه، ولهذا قال تعالى: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الأنعام:144].

وفي مقال آخر⁵¹: تبدو لنا حاجة المجتمع الإنساني إلى خلق الصدق، حينما نلاحظ أن شطراً كبيراً من العلاقات الاجتماعية، والمعاملات الإنسانية، تعتمد على شرف الكلمة، فإذا لم تكن الكلمة معبرة تعبيراً صادقاً عما في نفس قائلها، لم نجد وسيلة أخرى كافية نعرف فيها إرادات الناس، ونعرف فيها حاجاتهم ونعرف فيها حقيقة أخبارهم.

لولا الثقة بشرف الكلمة وصدقها لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس، ويكفي أن نتصور مجتمعاً قائماً على الكذب؛ لندرك مبلغ تفككه وانعدام صور التعاون بين أفراد.

⁵¹ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - موقع الدرر السنية.

كيف يكون مجتمع ما كيان متماسك، وأفراده لا يتعاملون فيما بينهم بالصدق؟! وكيف يكون
لمثل هذا المجتمع رصيد من ثقافة، أو تاريخ، أو حضارة؟!

كيف يوثق بنقل المعارف والعلوم إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها
بناء المجتمع الإنساني؟!

كيف يوثق بنقل الأخبار والتواريخ إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التي يقوم عليها
بناء المجتمع؟!

كيف يوثق بالوعود والعهود ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس؟!
كيف يوثق بالدعاوى والشهادات ودلائل الإثبات القولية ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل
بين الناس؟!

يقول ابن القيم في الصدق إنه: (منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين،
والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل
الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه، الذي ما وُضع على شيء
إلا قطعته، ولا واجهه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تردّ صولته، ومن نطق به علت على
الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب
الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط
اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة، التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات:
تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد
متصل ومعين، وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المنعم عليهم
بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا
مَعَ الصَّادِقِينَ) [التوبة: 119].

وقال أبو حاتم: (إنَّ اللهَ جلَّ وعلا فضَّلَ اللسانَ على سائرِ الجوارحِ، ورفعَ درجته، وأبان فضيلته، بأنَّ أنطقه من بين سائرِ الجوارحِ بتوحيده، فلا يجب للعاقل أن يعود آلةَ خلقها الله للنطق بتوحيده بالكذب، بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصدق، وما يعود عليه نفعه في داريه؛ لأنَّ اللسانَ يقتضي ما عُوِّد؛ إن صدقًا فصدقًا، وإن كذبًا فكذبًا).

الفصل العشرون

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي كلمة التوحيد

جاء هذا اللقب في مواضع كثيرة بألفاظ متنوعة وهي :

- وَصِفَ اللَّهُ سبحانه وتعالى بأنه **أحد** وذلك موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1].
- كما جاء وصفه بأنه **واحد** وذلك في موضع كثيرة منها : قوله تعالى : ﴿وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : 163]⁵².

⁵² - وإليك جميع المواضع وعددها عشرون :

- 1/ ﴿وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣ البقرة).
- 2/ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣ المائدة).
- 3/ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩ الأنعام).
- 4/ ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢ إبراهيم).
- 5/ ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢ النحل).
- 6/ ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٥١ النحل).
- 7/ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠ الكهف).
- 8/ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨ الأنبياء).
- 9/ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٣٤ الحج).

- كما جاءت لفظة **وحده** مراداً بها الله تعالى كما في قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتَ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) وذلك في سبعة مواضع⁵³ .

10/ (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) ﴿٤٦﴾ العنكبوت.

11/ (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) ﴿٦﴾ فصلت.

12/ (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) ﴿١٣٣﴾ البقرة.

13/ (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) ﴿١٦﴾ غافر.

14/ (اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُءُوبَانَهُمْ أَزْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ﴿٣١﴾ التوبة.

15/ (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ﴿٣٩﴾ يوسف.

16/ (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ﴿١٦﴾ الرعد.

17/ (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) ﴿٤٨﴾ إبراهيم.

18/ (إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ) ﴿٤﴾ الصافات.

19/ (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ﴿٦٥﴾ ص.

20/ (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ﴿٤﴾ الزمر.

⁵³ - وهي: 1/ (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) ﴿٤٥﴾ الزمر.

2/ (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتَ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) ﴿٤٦﴾ الإسراء.

ونحن نكتفي بالوقوف مع الثلاثة المذكورة آنفاً : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1].

وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : 163].

وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) [الإسراء:46].

وسيدور الحديث حول الآية في أربعة مباحث : سبب نزول آيتي الإخلاص والبقرة، المعنى الإجمالي للآيات الكريمات، ووقفات تدبرية في الآيات الكريمات، ومقتطفات من حديث القرآن عن كلمة التوحيد.

3/ (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ سِوَانِ يُشْرِكُ بِهِ تُؤْمِنُوا: فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) ﴿12 غافر﴾.

4/ (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) ﴿84 غافر﴾.

6/ (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)... ﴿٤ الممتحنة﴾.

7/ (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ﴿70 الأعراف﴾.

المبحث الأول

سببا نزول سورة الإخلاص وآية البقرة (وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

أولاً : سببا نزول سورة الإخلاص : قال البغوي رحمه الله تعالى : قال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: صف لنا ربك يا محمد لعلنا نؤمن بك ، فإن الله أنزل نعتة في التوراة ، فأخبرنا من أي شيء هو ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ فأنزل الله هذه السورة⁵⁴.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عزيزاً ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }.

54 - قال ابن الجوزي : في سبب نزولها ثلاثة أقوال.

أحدها: أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة، قاله أبي بن كعب.

والثاني: أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إلام تدعوننا يا محمد؟ قال: إلى الله عز وجل. قال: صفه لي، أمن ذهب هو، أو من فضة، أو من حديد، فنزلت هذه السورة، قاله ابن عباس.

والثالث: أن الذين قالوا هذا، قوم من أحبار اليهود قالوا: من أي جنس هو، وممن ورث الدنيا، ولئن يورثها؟ فنزلت هذه السورة، قاله قتادة، والضحاك.

وجاء في موقع الإسلام سؤال وجواب : ولأجل تعدد طرقه ، وكثرة مخارجه : حسنه الحافظ ابن حجر - كما تقدم - وكذا حسنه السيوطي في " الدر المنثور " (669/8) ، وكذا الألباني في " صحيح الترمذي " . وهو حديث مشهور متداول في كتب أئمة السنة ، ويورده شيخ الإسلام ابن تيمية كثيرا . والله تعالى أعلم .

ثانياً : : سببا نزول آية البقرة (وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) : قال البغوي رحمه الله تعالى : سبب
نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا يا محمد - صلى الله عليه وسلم - صف لنا ربك
وانسبه فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص.

المبحث الثاني

المعنى الإجمالي للآيات الكريمة

أولاً : معنى قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني: هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير، ولا نديد ولا شبيه ولا عدل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

ثانياً : تفسير قوله تعالى : ﴿وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

قال ابن جزي : قوله تعالى: (وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) الواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى: أحدها: أنه لا ثاني له فهو نفي للعدد. والآخر: أنه لا شريك له.

والثالث: أنه لا يتبعض ولا ينقسم، وقد فسر المراد به هنا في قوله؛ لا إله إلا هو.

قال الماوردي : قوله تعالى: (وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أراد بذلك أمرين:

أحدهما: أن إله جميع الخلق واحد، لا كما ذهبت إليه عبدة الأصنام من العرب وغيرهم أن لكل قوم إلهاً غير إله من سواهم.

والثاني: أن الإله وإن كان إلهاً لجميع الخلق فهو واحد لا ثاني له ولا مثل له. ثم أكد ذلك بقوله تعالى: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)، ثم وصف فقال: (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) ترغيباً في عبادته وحثاً على طاعته.

قال أبو حيان : قوله تعالى (الرحمن الرحيم): ذكر هاتين الصفتين منبهاً بهما على استحقاق العبادة له، لأن من ابتدأك بالرحمة إنشاء بشراً سوياً عاقلاً وتربية في دار الدنيا موعوداً

الوعد الصدق بحسن العاقبة في الآخرة، جدير بعبادتك له والوقوف عند أمره ونهيهِ، وأطمعك بهاتين الصفتين في سعة رحمته.

عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) و (آلَمْ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم) [آل عمران: 1 - 2]⁵⁵.

قال ابن عاشور : قوله تعالى (الرحمن الرحيم): وصفان للضمير، أي المنعم بجلال النعم ودقائقها وهما وصفان للمدح وفيهما تلميح لدليل الألوهية والانفراد بها لأنه منعم، وغيره ليس بمنعم وليس في الصفتين دلالة على الحصر ولكنهما تعريض به هنا لأن الكلام مسوق لإبطال ألوهية غيره فكان ما يذكر من الأوصاف المقتضية للألوهية هو في معنى قصرها عليه تعالى، وفي الجمع بين وصفي **(الرحمن الرحيم)** أن في ذكر صفة الرحمن إغاطة للمشركين فإنهم أبوا وصف الله بالرحمن كما حكى الله عنهم بقوله: (قالوا وما الرحمن) [الفرقان: 60].

قال الصاوي في حاشته على تفسير الجلالين رحمه الله تعالى: واعلم أن هذه الآية يأخذ منها عقائد التوحيد، وذلك لأن الله تعالى علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد، ومن كان وجوده واجباً، لزم اتصافه بسائر الكمالات، كالقدرة والإدارة والعلم والحياة، وقوله: **(أَحَدٌ)** يدل على الصفات السلبية وهي: القدم والبقاء والغنى المطلق والتزهد عن الشبيه والنظير والمثيل في الذات والصفات والأفعال.

ثالثاً : تفسير قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) [الإسراء: 46].

⁵⁵ - أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وأبو مسلم الكجي في السنن وابن الضريس وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان - نقلا عن الدر المنثور .

معنى قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) أي فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم . وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون ، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون ، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم . والأكنة الأغشية جمع كنان مثل الأسنة والسنان ، والأعنة والعنان . كنت الشيء في كنهه إذا صنته فيه ؛ وأكننت الشيء أخفيته .

وقوله تعالى: (أَنْ يَفْقَهُوهُ) أي يفهموه ، المعنى كراهية أن يفهموه ، أو لئلا يفهموه ، أي أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني . وهذا رد على القدرية .

وقوله تعالى: (وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) أي صمما وثقلا . وفي الكلام إضمار ، أي أن يسمعه . أي جعل ، في آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير ، وهو مقدار ما يطيق أن يحمل ، والوقر الحمل ؛ يقال منه : نخلة موقر وموقرة إذا كانت ذات ثمر كثير .

قال أبو زهرة : (فالأكنة تمنع أن يفقهوه لأن غلافا وضع بينها وبين النور، فلم تفقه أي لم تدرك وتتدبر في بلاغته، ومعانيه، وقصصه، وعبره، وما فيه من نور الحق فلا تراه، وجعلنا في آذانهم وقرا عن سماع القرآن وتذوق ألفاظه ونغمه، وجمال عباراته ونسق بيانه).

قوله تعالى: (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ) يعني: قلت: لا إله إلا الله، وأنت تتلو القرآن.

قوله تعالى: (وَلَوْ أَعْلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) قال أبو عبيدة: أي: على أعقابهم، **نفورا** : وهو: جمع نافر، بمنزلة قاعد وقعود، وجالس وجلوس .

وفي المشار إليهم بقوله (وَلَوْ أَعْلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا): أحدهما: أنهم الشياطين، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، قال أبو الجوزاء أوس بن عبد الله : **ليس شيء أطرده للشياطين من القلب من قول لا إله إلا الله ،** ثم تلا (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) .

والثاني: أنهم المشركون، وهذا مذهب ابن زيد .

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآيات الكرمات

الأولى : قال الرازي في تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ : أحد : يدل على مجامع صفات الجلال كما دل الله على جميع صفات الكمال إذا الواحد الحقيقي ما يكون منزّه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد، وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية.

الثانية : قال الخازن في تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ : يعني الذي سألتهموني عنه هو الله الواحد في الألوهية، والرّبوبية الموصوف بصفات الكمال والعظمة المنفرد عن الشبه، والمثل والنظير، وقيل لا يوصف أحد بالأحادية غير الله تعالى فلا يقال رجل أحد، ودرهم أحد بل أحد صفة من صفات الله تعالى؛ فقد استأثر بها فلا يشركه فيها أحد.

الثالثة : ما الفرق بين أحد وواحد: هذا السؤال قد يتبادر للقارئ الكلام وقد أجاب عنه أحد الباحثين بما ملخصه⁵⁶:

(أحد) هو اسم أكمل من (الواحد)، ألا ترى أنك إذا قلت "فلان لا يقوم له واحد" جاز في المعنى أن تستدرك، وتقول: بل يقوم له اثنان فأكثر، بخلاف قولك "لا يقوم له أحد"، فلا يصح بعدها أن تقول "بل اثنان"، إذ عندها يكون في الجملة تناقض.

واحد اسم لمفتتح العدد، فيقال: واحد واثنان وثلاثة؛ أما **أحد** فينقطع معه العدد فلا يقال: أحد اثنان ثلاثة.

⁵⁶ - مقال بعنوان : أحد، وواحد والفرق بينهما - بقلم فاروق مواسي - موقع ديوان العرب - باختصار.

في **الأحد** خصوصية ليست في **الواحد**، تقول "ليس في الدار واحد"، فيجوز في المعنى أن يكون من الدواب والطيور والوحش والإنس فيعم الناس وغيرهم، بخلاف "ليس في الدار أحد" فإنه مخصوص بالآدميين دون غيرهم .

أحد يستوي فيه المذكر والمؤنث قال تعالى (يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ) [الأحزاب: 32]، بخلاف "الواحد" فلا يقال: كواحد من النساء بل كواحدة.

قال الأزهري: لا يوصف شيء بالأحادية غير الله تعالى، **فلا يقال: رجل أحد، ولا درهم أحد.** بل يقال: **رجل واحد ودرهم واحد.** وقيل: **أحد** صفة من صفات الله تعالى استأثر بها، فلا يشركه فيها شيء.

الرابعة : قال البقاعي في تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: لما كان المقصود من القرآن دعوة العباد إلى المعبود، وكان المدعو إلى شيء أحوج ما يكون إلى معرفته، وكان التعريف تارة للذات وتارة للصفات وتارة للأفعال، وكانت هذه الأمة – أشرف الأمم لأن نبيها أعلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان هي الختام، أشبع الكلام في تعريفه سبحانه في القرآن، وأنهى البيان في ذلك إلى حد لا مزيد عليه ولم يقاربه في ذلك كتاب من الكتب السالفة، فقال آمراً لنبيه صلى الله عليه وسلم ليكون أول كلمة فيها دالة على رسالته رداً على من كذبه في خاصة نفسه وعلى البراهمة القائلين: إن في العقل غنى عن الرسل. ويكون البيان جارياً على لسانه صلى الله عليه وسلم ليكون إلى فهم الخلق عنه لتلك الصفات العلى أقرب لما لهم به من المجانسة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾... إلخ السورة.

الخامسة : قال البقاعي أيضاً في تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: (الله) أي الموجود الذي لا موجود في الحقيقة سواه! هو المسمى بهذا الاسم، واختير هذا الاسم للإخبار عنه لدلالته على جميع صفات الكمال: الجلال والجمال ولأنه اسم جامع لجميع معاني الأسماء الحسنى.

السادسة : قال البقاعي أيضاً : تفسير قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ : قال الحرالي : (في مجموع هذه الآية أعظمية من غيب الإلهية إلى تمام اختصاص الرحيمية، فلذلك كانت هذه الآية مع آية الإحاطة في أول آل عمران الجامعة لمقابلة ما في هذه الآية من خصوص الرحيمية مع خصوص مقابليها من وصف الانتقام الظاهر عن وصف العزة الذي أبداه قوله سبحانه وتعالى: (والله عزيز ذو انتقام) [آل عمران: 4] فكانت هذه الآية لذلك مع (الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم) [آل عمران: 1-2] اسم الله الأعظم المحيط بالغيب والشهادة جمعاً للرحمة والنقمة في الظاهر وإحاطة عظيمة في الباطن، فكان هذا الحد من علو الخطاب ابتداءً رفع الخلق إلى التعلق باسم الله الأعظم الذي يرفعهم عن سفلى تقيدهم بأنفسهم المحقرة إظهاراً لمبدأ العناية بهذه الأمة الخاتمة) انتهى.

السابعة : قال الرازي في تفسير قوله: (وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ) : معناه أنه واحد في الإلهية، لأن ورود لفظ الواحد بعد لفظ الإله يدل على أن تلك الوحدة معتبرة في الإلهية لا في غيرها، فهو بمنزلة وصف الرجل بأنه سيد واحد، وبأنه عالم واحد، ولما قال: (وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول: هب أن إلهنا واحد، فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا، فلا جرم أزال هذا الوهم ببيان التوحيد المطلق، فقال: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وذلك لأن قولنا: لا رجل يقتضي نفى هذه الماهية، ومتى انتفت هذه الماهية انتفى جميع أفرادها، إذ لو حصل فرد من أفراد تلك الماهية فمتى حصل ذلك الفرد، فقد حصلت الماهية، وذلك يناقض ما دل اللفظ عليه من انتفاء الماهية: فثبت أن قولنا: لا رجل يقتضي النفي العام الشامل، فإذا قيل بعد: إلا زيداً، أفاد التوحيد التام المحقق

الثامنة : قال القرطبي : في تفسير قوله تعالى: (وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ) فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: (وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمان أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان؛ وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع؛ ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء.

الثانية: قوله تعالى: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) نفى وإثبات. أولها كفر وآخرها إيمان، ومعناه لا معبود إلا الله.

وحكي عن الشبلي رحمه الله أنه كان يقول: الله؛ ولا يقول: لا إله؛ فسئل عن ذلك فقال أخشى أن آخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار.

قلت (القرطبي): وهذا من علومهم الدقيقة، التي ليست لها حقيقة؛ فإن الله جلّ اسمه ذكر هذا المعنى في كتابه نفياً وإثباتاً وكرره، ووعد بالثواب الجزيل لقائله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم؛ خرّجه الموطأ والبخاري ومسلم وغيرهم. وقال صلى الله عليه وسلم: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة". خرّجه مسلم. والمقصود القلب لا اللسان؛ فلو قال: لا إله ومات ومعتقده وضميره الوجدانية وما يجب له من الصفات لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السنة.

التاسعة: قال ابن جزري: قوله تعالى: (وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ): اعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على ثلاث درجات:

الأولى: توحيد عامة المسلمين: وهو الذي يعصم النفس من الهلك في الدنيا، وينجي من الخلود في النار في الآخرة، وهو نفي الشركاء والأنداد، والصاحبة والأولاد، والأشباه والأضداد.

الدرجة الثانية: توحيد الخاصة، وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ويشاهد ذلك بطريق المكاشفة لا بطريق الاستدلال الحاصل لكل مؤمن، وإنما مقام الخاص في التوحيد يغني في القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل، وثمرة هذا العلم الانقطاع إلى الله والتوكل عليه وحده

واطراح جميع الخلق، فلا يرجو إلا الله، ولا يخاف أحداً سواه إذ ليس يرى فاعلاً إلا إياه ويرى جميع الخلق في قبضة القهر ليس بيدهم شيء من الأمر، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب.

والدرجة الثالثة: ألا يرى في الوجود إلا الله وحده فيغيب عن النظر إلى المخلوقات، حتى كأنها عنده معدومة. وهذا الذي تسميه الصوفية مقام الفناء بمعنى الغيبة عن الخلق حتى أنه قد يفنى عن نفسه، وعن توحيده: أي يغيب عن ذلك باستغراقه في مشاهدة الله.

قال ابن عجيبة معلقاً على كلام ابن جزي: قلت: وفي التحقيق أنهما أنهما مقامان؛ مقام أهل الدليل والبرهان، وهو المذكور في الآية، لأنه هو الذي يطيقه جميع العباد، ومقام أهل الشهود والعيان، وهو خاص بالأفراد الذين بذلوا مهجهم في طلب الله، باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، فعوّضهم الله في الدنيا جنة المعارف، وزادهم في الآخرة جنة الزخارف. قلت (أحمد خضر) : المراد بالمشاهدة قوة اليقين وليس المشاهدة القلبية ؛ وجاء التعبير بها أخذاً من حديث **(الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)** والله أعلم.

العاشرة : جاء في التفسير الوسيط في تفسير قوله تعالى: (وَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) الآية :

وأتى - سبحانه - بهذين اللفظين في ختام الآية، لأن ذكر الإلهية والوحدانية يحضر في ذهن السامع معنى القهر والغلبة وسعة المقدرة وعزة السلطان، وذلك مما يجعل القلب في هيبة وخشية، فناسب أن يورد عقب ذلك ما يدل على أنه مع هذه العظمة والسلطان، مصدر الإحسان ومولى النعم، فقال: **(الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)** وهذه طريقة القرآن في الترويح على القلوب بالتبشير بعد ما يثير الخشية، حتى لا يعتريها اليأس أو القنوط.

الحادية عشرة : قال أبو زهرة : (وإذا ذكرت ربك) الذي خلقك وخلقهم وربهم (وحده) من غير ذكر آلهتهم على أنه المتفرد وحده بالألوهية اعترأهم إعراض أشد، فأعرضوا سائرهم على

أدبارهم نافرين من الحق كما يفر ذو الرمد من ضوء الشمس، أي يسارعون بالتولي والإعراض نافرين مدبرين، سائرين بظهورهم لا بإقبالهم.

وهذا النص يصور شخصا رأى شيئا فهاله ما رأى فولى مدبرا، رجع مدبرا نافرا كأنه رأى شيئا مخيفا، اقشعر له بدنه، وهذا يصور مقدار نفورهم من التوحيد الحق، وإقبالهم على الوثنية الباطلة، فالأوهام التي استكنت في نفوسهم صورت لهم الحق مخوفا مرهوبا، والباطل طيبا حسبوا فيه السلامة وما وراءه إلا الحسرة والندامة وساء ما كانوا يصنعون.

الحادية عشرة : قال الشعراوي : قوله تعالى: (وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُاْ عَلَىٰ

أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) لماذا ولو على أدبارهم نفورا؟ لأنك أتيت لهم بما يُخَوِّفُهُمْ وَيُزَعِّجُهُمْ، وبالله لو أن قضية الإيمان ليست فطرية موجودة في الذات وفي ذرات التكوين، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله؟ فَمِمَّا يَخَافُونَ وهم لا يؤمنون بالله، ولا يعترفون بوجوده تعالى؟

إذن: ما هذا الخوف منهم إلا لانقهار الطبع، وانقهار الفطرة التي يعترىها غفلة، فإذا ذُكِرَ الله تعالى أمامهم، فإذا بهم يُؤَلُّون مدبرين في حَوْفٍ وَنُفُورٍ.

المبحث الرابع

مقتطفات من حديث القرآن عن كلمة التوحيد⁵⁷

بادئ ذي بدء، أشير إلى أن التوحيد ليس موضوعاً كباقي الموضوعات التي عاجلتها بعض آيات القرآن أو سوره، بل القرآن كله من ألفه إلى يائه كتاب توحيد؛ فأياته كلها وسوره تتحدث عن موضوع التوحيد، وأما التقسيم الذي قال به بعض أهل العلم من أن القرآن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد وأخبار وأحكام، فهذه الأقسام عند التحقيق كلها تعود إلى التوحيد.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يُعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر أو نهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يُكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحلُّ بهم في العقبي من العذاب، فهو خبرٌ عمن خرج عن حكم التوحيد؛ فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم)⁵⁸.

فالتوحيد : هو الغاية من خلق الخلق، ومن أجله خلقت الجنة والنار، ومن أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وبه ينقسم الناس إلى أبرار وفجّار، وبه يختلف مصيرهم في دار القرار، فريق في نعيمٍ مقيم، وآخر يصلى نار الجحيم.

⁵⁷ - مقال التوحيد في القرآن الكريم (2/1) - للكاتب ناصر عبد الغفور - شبكة الألوكة - باختصار.

58 - مدارج السالكين: (450/3).

ولما كان التوحيد بهذا الشأن فقد أفاض القرآن الكريم في مناقشة موضوع التوحيد من وجوه شتى، وجوانب عدة، وهذا ما سنبيّنه - إن شاء الله تعالى - بشيء من التفصيل:

أولاً: بيان القرآن أن الغاية من خَلْق الخَلْق هي توحيد سبحانه :

قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وهذا أسلوب من أقوى أساليب الحصر والقصر، وهو النفي مع الاستثناء، واللام للتعليل؛ فالغاية من خلق الثقلين هي عبادته - سبحانه، وأُسُّ العبادة التوحيد والاعتقاد الصحيح، لا سيما أن بعض السلف فسروا قوله -تعالى-: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: إلا ليوحدون.

فالله تعالى لم يخلُقنا عبثاً ولا سدى، ولم يتركنا هملأً؛ كما قال -تعالى-: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، بل خلقنا لأمرٍ جليل، وغاية عظيمة، ووظيفة جسيمة، وهي توحيد - سبحانه.

ثانياً : بيان القرآن للميثاق العظيم الذي أخذه الله تعالى على عباده وهم في عالم الذرّ
لتوحيده جل في علاه : قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172، 173]، وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذا الميثاق:

فمنهم من فسّره بالفطرة، وهو ما جنّح إليه الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسيره، والشيخ محمد رشيد رضا في مناره.

ومنهم من فسّره بأنه ميثاق حقيقي، وأن الله تعالى مسح فعلاً ظهر آدم واستخرج ذريته، وأشهدهم على ألوهيته وتوحيده، فشهدوا على ذلك مُقرّين، وهذا هو الراجح؛ لظاهر الآية الكريمة، وللأحاديث الثابتة في ذلك.

قال الحافظ ابن كثير: وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صُلب آدم عليه السلام - وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهادُ عليهم بأنه ربهـم. ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **(يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أَرَأَيْتَ لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منك أهونَ من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً، فأبَيْتَ إلا أن تُشركَ بي).**

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب الروح ما خلاصته: (إن الله سبحانه استخرج صورَ البشر وأمثالهم، فمَيَّزَ شَقِيَّهم وسَعِيدَهم، ومعافاهم من مبتليهم، والآثار متظاهرة به مرفوعة، وإن الله أقام عليهم الحجة حينئذ، وأشهدهم بربوبيته، واستشهد عليهم ملائكتُه، كما تدلُّ على ذلك الآية).

ثالثاً : بيان القرآن لوظيفة الرسل وأنها الدعوة إلى التوحيد:

تعتبر الدعوة إلى التوحيد زبدة رسالات الأنبياء والرسل من لدن نوح عليه السلام إلى خاتمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فما من أحدٍ منهم إلا أرسل أولاً قبل كل شيء بالدعوة إلى توحيد الله؛ كما قال جل وعلا : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، بل كل واحد منهم كان يفتتح دعوتَه بالتوحيد؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45]، وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: 108].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : (فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد).

فالتوحيد كان أساس دعوة الرسل، وهو رأس الوحي، وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له)**. رواه الترمذي.

رابعاً : ذِكْرُ الْقُرْآنِ لِحُجَّةِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ فِي الدَّارَيْنِ :

وهذا كثير جداً في القرآن، لكن لا بأس أن نذكر بعض الآيات على سبيل المثال لا الحصر؛ فقد وعد الله تعالى أهل التوحيد والإيمان وعوداً عظيمة في هذه الدار قبل دار القرار، فوعدهم في الدنيا بالتمكين والاستيلاء في الأرض، والثبات والأمن والاستقرار، والمحبة في قلوب الخلق، والفرقان الذي يميزون به بين الحق والباطل، والنافع والضار، والرشاد والغي، ومغفرة الذنوب.

فمن عاقبة أهل التوحيد في هذه الدنيا ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]، وقال تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29]، ولا ريب أن التوحيد أسُّ التقوى وأصله، فكيف يتقي الله من لم يوحد؟

أما بالتسبة لجزائهم الأخروي، فكثيرة هي الآيات التي وردت في وصف ما أعدّه الله لأهل توحيده من النعيم المقيم، والرضوان العظيم، يقول تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: 40 - 49]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: 11].

وقد جمع الله لهم بين الحسنين - الجزاء الديني والأخروي - في عدة آيات؛ كقوله جل جلاله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62 - 64].

وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: 13، 14].

أما أهل الشرك والضلال، الذين استكبروا عن توحيد ذي الجلال، فقد تعرّضوا لأنواع من النكال؛ جرّمهم وقبح ما أتوه من الأفعال؛ قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40].

وأما عذابهم الأخروي، فهو أشدّ وأبقى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: 74]، ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ

وَرَأَاهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٥﴾ [إبراهيم: 15 - 17]، ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا
السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: 28، 29].

الفصل الحادي والعشرون

لا إله إلا الله هي كلمة الإخلاص

جاء هذا اللقب في مواضع كثيرة نكتفي بالوقوف مع اثنين منها ، وهما :

قول الله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) [الزمر: 1-2].

وقوله تعالى : (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [غافر: 14].

وسيدور الحديث حول الآية في أربعة محاور : المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين ، والوقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين ، ومعاني الإخلاص في القرآن الكريم ، ثم أهمية الإخلاص ومراتبه والوسائل المعينة على تحصيله وعلامات المخلصين.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

أولاً تفسير : قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) [الزمر: 1-2].

قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) : أى : هذا الكتاب هو تنزيل من عند الله - تعالى - الغالب على كل شئ . والحكيم فى أقواله وأفعاله . وقد أنزله - سبحانه - عليك - يا محمد - تنزيلاً ملتبساً بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، أو ما يشبه الباطل (لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) [فصلت : 42] . وذلك يوجب قبوله والعمل بكل ما فيه .

قوله تعالى : (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والعبادة : أقصى درجات التذلل والخضوع للمعبود عز وجل.

قوله تعالى : (مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) في مفهوم الإخلاص قولان :

القول الأول : عدم الشرك به في عبادته أي توحيدہ ؛ قال ابن كثير : فاعبد الله وحده لا شريك له ، وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عدیل ولا نديد. **وقال القرطبي :** موحدًا لا تشرك به شيئًا.

القول الثاني : المراد بالإخلاص : إرادة وجه الله تعالى بالأعمال الأخروية.

قال السعدي : (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

وقال ابن عاشور : الإخلاص : الإتحاض وعدم الشوب بمغاير ، وهو يشمل الأفراد . وسميت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص ، أي أفراد الله بالإلهية . وأوثر الإخلاص هنا لإفادة التوحيد وأخص منه وهو أن تكون عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ربه غير مشوبة بحظ دنيوي كما قال تعالى : (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) [ص : 86] .

ثانياً : تفسير الآية الثانية: (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ):

قال ابن كثير : وقوله عز وجل: (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم. **وقال أكثر المفسرين (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أي موحدين .**

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دبر كل صلاة: (أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ المكتوبات:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين

الأولى : قال ابن عاشور : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) وهذا إيماء إلى أن إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول صلى الله عليه وسلم بالشكر بإفراده بالعبادة، وإيماء إلى أن إشراك المشركين بالله غيره في العبادة كفر لنعمه التي أنعم بها ، فإن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات : 56] .

فالمقصود من الأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإخلاص من قوله (مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) ، فالمأمور به عبادة خاصة ، ولذلك لم يكن الأمر بالعبادة مستعملاً في معنى الأمر بالادوام عليها .

الثانية : قال ابن عاشور : قوله تعالى : (مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) والدين : المعاملة . والمراد به هنا معاملة المخلوق ربّه وهي عبادته . فالمعنى : مخلصاً له العبادة غير خالط بعبادته عبادة غيره .

الثالثة : قال الرازي : قوله تعالى : (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ):

أما العبادة: فهي فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله.

وأما الإخلاص: فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال، فإن حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر أو معادلاً له أو مرجوحاً. وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط.

وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله راجحاً على الجانب الآخر فقد اختلفوا في أنه هل يفيد أم لا؟

الجواب : لفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص، لأن قوله: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا) صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [البينة: 5].

الرابعة : قال الشوكاني : وفي الآية دليل على وجوب النية ، وإخلاصها من الشوائب لأن الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب ، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية ، كما في حديث : (إنما الأعمال بالنيات) وحديث : (لا قول ولا عمل إلا بنية).

الخامسة : قال الشعراوي: وفي هذه الآية (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) حثُّ لنا على كيد الكافرين وإغاثتهم بإظهار الذلة لله والخضوع له سبحانه، فهذه المسألة تكيدهم، لأنها تظهر لهم عزَّ الربوبية والكبرياء لله تعالى الذي كفروا به، وتعالوا على طاعته، وتكبروا عليه سبحانه، لذلك داوموا على الدعاء أمامهم وأروهم من أنفسكم منتهى الذلة لله جل وعلا.

المبحث الثالث

معاني الإخلاص في القرآن الكريم⁵⁹

ولفظ (خلص) ولفظ (خلص) بتصريفاته النحوية والصرفية ورد في القرآن الكريم في أحد وثلاثين موضعاً على أربعة معان:

المعنى الأول: بمعنى التوحيد وعدم الإشراك بالله تعالى، وأكثر ما جاء في القرآن الكريم وفق هذا المعنى، من ذلك قوله عز وجل: {ونحن له مخلصون} (البقرة: 139) أي: ونحن لله مخلصو العبادة والطاعة، لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد غيره أحداً، كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان، وأصحاب العجل معه العجل.

وعلى وفق هذا المعنى أيضاً قوله عز من قائل: {وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين} (الأعراف: 29) أي: وحدوه ولا تشركوا به. ومن هذا القبيل أيضاً قوله تبارك وتعالى: {قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين} (الزمر: 11) أي: لا أشرك في طاعته وعبادته أحداً غيره سبحانه، على حد قوله تعالى: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له} (الأنعام: 162).

ونحو ذلك قوله تعالى: {فادعوا الله مخلصين له الدين} (غافر: 14)، وقوله سبحانه: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} (البينة: 5)، وقوله عز وجل: {ادعوا الله مخلصين له الدين} (يونس: 10) أي: دعوه وحده، وتركوا ما كانوا يعبدون من دونه.

المعنى الثاني: بمعنى الاصطفاء والاختيار من دون الناس، جاء بحسب هذا المعنى قوله عز وجل: {إلا عبادك منهم المخلصين} (الحجر: 40) قرئ (المخلصين) -بفتح اللام- على

⁵⁹ - لفظ (خلص) في القرآن - اسم الكاتب: إسلام ويب - موقع إسلام ويب - بتصرف.

معنى: الذين أخلصتهم واصطفيتهم وطهرتهم. وقرئ بكسر اللام، أي الذين أخلصوا لك في العمل. والقراءتان متواترتان.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه في حق النبي موسى عليه السلام: (إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا) (مريم: 51) أي: اصطفيناه، فجعلناه مختاراً، كقوله تعالى: (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) (الأعراف: 144).

ومنه أيضاً قوله سبحانه على لسان عزيز مصر في حق يوسف عليه السلام: {وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي} (يوسف: 54) أي: أصطفيه لنفسي دون غيره، وأفوض إليه أمر مملكتي.

ومن ذلك كذلك قوله عز من قائل: {إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار} (ص: 46) أي: خصصناهم بخالصة (ذكر الدار) واصطفيناهم من دون الناس، بأن يذكر الدار الآخرة، ويتأهبوا لها، ويرغبوا فيها، ويرغبوا الناس فيها... والمعنى: أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار، أي: تذكير الدار الآخرة. و(الخالصة) مصدر بمعنى الخلو، أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وهي الدار الآخرة.

المعنى الثالث: بمعنى الانفراد عن الغير، جاء بحسب هذا المعنى قوله تعالى واصفاً حال إخوة يوسف عليه السلام: {فلما استئأسوا منه خلصوا نجيا} (يوسف: 80) {خلصوا} أي: انفردوا بأنفسهم، وليس يوسف معهم. وبحسب هذا المعنى فُسِّرَ قوله عز وجل: {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة} (الأعراف: 32) أي: إن زينة الله التي أخرج لعباده، وطيبات رزقه، للذين صدقوا الله ورسوله، وقد شركهم في ذلك فيها من كفر بالله ورسوله وخالف، وهي للذين آمنوا بالله ورسوله خالصة يوم القيامة، لا يشركهم في ذلك يومئذ أحد كفر بالله ورسوله، وخالف أمر ربه.

ومنه أيضاً قوله تبارك وتعالى: (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من) (البقرة: 94) أي: إن كان نعيم الدار الآخرة ولذا تم لكم يا معشر اليهود عند الله (من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يتأول قوله: {خالصة}: خاصة.

ومنه كذلك قول الباري سبحانه: {وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا} (الأنعام: 139) أي: قال المشركون: ما في بطون تلك الأنعام من لبن وجنين حلّ لذكورهم دون إناثهم، وإنهم كانوا يؤثرون بذلك رجالهم، إلا أن يكون الذي في بطونها من الأجنة ميتاً، فيشترك حينئذ في أكله الرجال والنساء. فنهى الله عن ذلك.

ومنه أيضاً قوله تعالى مختصاً به رسوله صلى الله عليه وسلم: {وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين} (الأحزاب: 50) أي: لا يحل لأحد من المسلمين أن يقرب امرأة وهبت نفسها له، وإنما ذلك لك يا محمد، أخلصت لك ذلك من دون سائر أمتك.

المعنى الرابع: بمعنى الأمر الذي لا يشوبه شيء، من ذلك قوله تعالى: (ألا لله الدين الخالص) (الزمر: 3) أي: لله سبحانه الدين الذي لا يشوبه شيء. وعلى هذا قوله سبحانه: (نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا) (النحل: 66) أي: خلص من مخالطة الدم والفرث، فلم يختلطاً به.

فأما قوله تعالى: (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) (الصفافات: 168-169) فقد قال الطبري في تفسيره: (لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ) الذين أخلصهم لعبادته، واصطفاهم لجنته. وقال القرطبي: "أي: لو جاءنا ذكر كما جاء الأولين، لأخلصنا العبادة لله".

وقال ابن عاشور: "أي: لكنا عباد الله دون غيرنا"؛ فالطبري فسر الآية على معنى الاصطفاء والاختيار، والقرطبي فسرهما على معنى إخلاص العبادة لله تعالى، وابن عاشور فسرهما على معنى الانفراد بالأمر دون الغير.

وبالنظر فيما تقدم يتبين أن لفظ (خلص) على اختلاف اشتقاقاته أكثر ما جاء في القرآن الكريم بمعنى التوحيد، وعدم الإشراك بالله تعالى، وجاء ثانياً بمعنى الاصطفاء والاختيار، وجاء ثالثاً بمعنى الانفراد بالشيء، وجاء أخيراً بمعنى التصفية من الشوب والأخلاق، وهذا المعنى الأخير جاء على وفاق الأصل اللغوي لمادة (خلص).

المبحث الرابع

أهمية الإخلاص ومراتبه والوسائل المعينة على تحصيله وعلامات المخلصين⁶⁰

أولاً : أهمية الإخلاص:

يقول عبد الله بن أبي جمرة: وددت لو أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يُعَلِّمَ الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أُتِيَ على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

كل هذه الأهمية للإخلاص لأن أعمال القلوب هي الأساس الذي تقوم عليه الأعمال كلها، يقول -صلى الله عليه وآله وسلم-: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى).

إن القلب ملك الجوارح، وهي له تبع، فإن صلح القلب صلحت الجوارح كلها، وإن فسد القلب فسدت الجوارح كلها. ومن أجل أعمال القلوب الإخلاص لله -عز وجل- الذي هو من أشق الأمور على النفوس؛ ولهذا قال سفيان الثوري -رحمه الله-: ما عالجت شيئاً عليّ أشد من نيتي؛ إنها تتقلب عليّ؛ فالقلوب كثيرة التقلب والتحول في قصودها ونياتها.

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول: (لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ تَقَلُّباً مِنَ الْقَدَرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلِيَانَا).

ثانياً : مفهوم الإخلاص اصطلاحاً: تعددت عبارات العلماء في بيان الإخلاص ، وإليك بعضها:

قال العز بن عبد السلام: (الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده، لا يريد بها تعظيماً من الناس ولا توقيراً، ولا جلب نفع ديني، ولا دفع ضرر دنيوي).

⁶⁰ - ملخصاً من خطبة بعنوان: الإخلاص -الشيخ محمد كامل السيد رباح - شبكة الألوكة الشرعية.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: (الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة).

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى معرّفًا للإخلاص: (الإخلاص أفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنعٍ لمخلوق أو اكتسابٍ مَحْمَدَةٍ عند الناس أو محبة مدحٍ لمخلوق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى. وقال: ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين) ⁶¹.

وقال الفضيل: (أحسن عملاً): أخلصه وأصوبه. وقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

ثالثاً : الإخلاص في القرآن الكريم:

1- قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: 5].

2- قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: 29].

3- قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 2].

4- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 11].

5- قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14].

⁶¹ - هذه الأقوال نقلا عن - الرسالة القشيرية- ص 95- 96.

6- قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 14].

رابعاً : من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في الإخلاص:

1- عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -، يَقُولُ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

2- وعن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : (يَغْزُو جَيْشُ الْكُفَّةِ إِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ). قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَأُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟! قَالَ: (يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ) [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَ هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ].

3- وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَنْ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

4- عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من طلب الشهادة صادقا أعطيها ولو لم تصبه) رواه مسلم .

خامساً : السلف والإخلاص:

حرص سلفنا الصالح على إخفاء أعمالهم فلا تكاد تعرف عن أحدهم عبادةً، ولكنهم في السر من فرسان العبادة. ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: كانوا يكرهون إذا اجتمعوا أن يخرج أحدهم أحسن ما عنده.

وقال سفيان الثوري رحمه الله: إبراهيم بن أدهم رحمه الله لو كان في الصحابة لكان رجلاً فاضلاً، له سرائر، وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا غيره، وكان رحمه الله يقول أعربنا في القول وأخطأنا في العمل.

وورد: صلى أبو أمانة الباهلي - رضي الله تعالى - عنه صلى يوماً في المسجد، والمسجد مليء فقام رجل يصلي ركعتين فسجد واشتد بكاءه، بكاء هذا الرجل فلما انتهى من صلاته وجعل يمسح دمه بطرف عمامته قال له أبو أمانة رضي الله عنه: "ما أحسن بكاءك لو كان في بيتك".

وهذا التابعي الجليل أيوب السخيتاني يحدث عنه حماد بن زيد رحمهما الله يقول: كان أيوب يحدثنا ربما يحدث بالحديث فيرق فيلتفت ويمتخط، ويقول: ما أشد الزكام!! يظهر أنه مزكوم لإخفاء بكائه.

وقال محمد بن واسع رحمه الله: أدركت رجلاً كان الرجل منهم يكون رأسه مع امرأته على وسادة واحدة، قد بل ما تحته من الدموع لا تشعر به زوجته، ولقد أدركت رجلاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي بجانبه.

وكان أيوب السخيتاني يقوم الليل كله فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.

ولما مات علي بن الحسن رضي الله عنهما وجدوه يعول مائة بيت في المدينة، علموا ذلك بفقدهم المعيل حيث كان يلقي إليهم المال قبيل الفجر من وراء الباب .

وقال رجل التميمي الداري رضي الله عنه: "ما صلاتك بالليل؟ فغضب غضباً شديداً ثم قال: والله لركعة أصليها في جوف الليل في سر أحب إلى من أن أصلي الليل كله، ثم أقصّه

يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: وددت أن الناس تعلموا هذا العلم يعني كتبه على أن إلا ينسب إلى منه شيء". **وقال:** "ما ناظرت أحدا قط على الغلبة، وددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه".

وقال رحمه الله تعالى: "ما كلمت أحدا إلا وددت أن يسدّد ويعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظه".

سادسا : من علامات المخلصين :

من علامات المخلصين: الجدية في العمل وحسن الإنتاج، وأن يستوي عند العامل شهود الناس لعمله أو غفلتهم عنه.

ومن علامات المخلصين : أنهم لا يرغبون في مدحهم ولو عملوا، بعكس غيرهم ممن يُحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا. المخلصون يخشون الله بالغيب ويراقبونه في حال السرّ، كما يخشونه في الشهادة، ويراقبونه في حال العلانية، شأن المخلصين وهدفهم رضا الله، وليس هدفهم أن يرضى الناس عنهم ولو سخط الله!.

ومن علامات المخلصين : أنهم لا يأنفون أو يتضايقون إذا رموا بما ليس فيهم، فقد يكون أحدهم جواداً ويُرْمى بالبخل، أو عالماً وداعيةً ويرمى بالجهل والإفساد -وهو ليس كذلك في ظاهره وباطنه-؛ بل ربما أزرى المخلصون بأنفسهم وحمدوا المتّهمين لهم بما ليس فيهم.

ومن روائع مواقف السلف أن رجلاً زاحم سالم بن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهم- في منى، فالتفت الرجل إلى سالم -وهو لا يعرفه- فقال له: إنني لأظنّك رجل سوء! فأجابه سالم -وهو من خيار التابعين- بقوله: ما عرفني إلا أنت!.

ومن علامات المخلصين : أنهم تهون عليهم أنفسهم فلا ينتقمون لها، وتعظم في صدورهم حرماث الله فيغضبون لانتهاكها، ويقومون بما أوجب الله عليهم حيال المنتهكين لها.

ومن علامات المخلصين : أنهم يهتمون بإخلاص العمل وموافقته للصواب والسنة وديمومته - وإن قل عملهم-، وغير المخلصين يهتمون بكثرة العمل، حتى وإن خالطه الرياء، وأفسدته الخرافات والبدع.

سابعاً: الوسائل المعينه على الاخلاص: واعلم أن من أعظم الوسائل المعنية على تحقيق الإخلاص:

أولاً: أن تعرف: ما الإخلاص؟ وكيف تصل إلى شيء لا تعرفه؟ فكم نتحدث عن الإخلاص، ونسأل الله الإخلاص، ونحن قد لا نعرف مفهوم الإخلاص!.

فالإخلاص: أن يكون العمل لله لا ترى فيه نفسك ولا حظوظها، ولا ترى فيه الخلق. وقيل: الإخلاص هو الخلاص عن رؤية الأشخاص.

ثانياً: معرفة الله وعظمته وقدرته وفضله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21]، فهل ينظر للخلق من عرف الله بحق؟.

ثالثاً: معرفة النفس، وأنها جاهلة ظالمة طبعها الكسل وحب الشهوات، وحب التصدر والظهور، فرحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من الناس، ابن آدم! إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتُبعث وحدك، وتحاسب وحدك.

رابعاً: اعلم أنك عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجراً، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه وإنعام عليه، لا معاوضة ولا مقايضة، فكل خير في العبد هو من فضل الله ومنته وإحسانه ونعمته عليه، فهل للعبد أن يرى عمله بعد هذا؟!.

خامساً: أكثر من الاستعانة بالله، وألح عليه بالدعاء أن يرزقك الاخلاص قبل العمل وأثناء العمل وبعد العمل، واستعذ بالله من شر نفسك ومن الرياء، فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أيها الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل"، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: "قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه".

ثامناً: قصة غاية في العجب في الإخلاص:

قصة رائعة ذات معان رائعة وردت عن أحد الزاهدين "أحمد بن مسكين" وكان من التابعين، قال: في البلدة رجل يدعى أبا نصر الصياد، يعيش مع زوجته وابنه في فقر شديد - مشى في الطريق ذات يوم مهموماً مغموماً ، يسأل الله تعالى الفرج والرزق الحلال فزوجته وابنه يتضوران جوعاً.

مر على شيخه أحمد بن مسكين يقول له أنا متعب يا سيدي.. وقرأ التابعي في وجه تلميذه ما يعانيه، فقال له اتبعني إلى البحر فانطلقا إليه، وقال له الشيخ - راعباً في لجوء مريده إلى الله تعالى: " صلّ ركعتين على نية التيسير " واسأل الله تعالى الرزق الحلال الطيب... فصلى، ثم قال له: "سم الله"، - فكل شيئ بأمر الله.. فقالها... ثم رمى الشبكة، فخرجت بسمكة عظيمة.... قال له: بعها واشتر بثمنها طعاماً لأهلك".

فانطلق إلى السوق يبيعها، واشترى فطيرتين إحداها باللحم والأخرى بالحلوى وقرر أن يعود إلى الشيخ فيقدم إحداها له اعترافاً بصنيعه..

رد الشيخ الفطيرة قائلاً: هي لك ولعيلك، ثم أردف: " لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة ".

وفي الطريق إلى بيته قابل امرأة تبكي من الجوع ومعها طفلها، فنظرا إلى الفطيرتين في يده وقال في نفسه هذه المرأة وابنها مثل زوجتي وابني يتضوران جوعاً فماذا افعل؟ ونظر إلى عيني المرأة فلم يحتمل رؤية الدموع فيهما، فقدمهما لها قائلاً: الفطيرتان لكما.. ظهر الفرح والسرور على محياها، وسعد ابنها سعادة رقصت لها أسارير وجهه.. وعاد أبو نصر يفكر بولده وزوجته.

ما إن سار حتى سمع رجلاً ينادي من يدل على أبي نصر الصياد؟ فدلّه الناس على الرجل.. فقال له إن أباك كان قد أقرضني مالاً منذ عشرين سنة ثم مات، خذ يا بني هذه الثلاثين ألف درهم فهو مال أبيك.

يقول أبو نصر الصياد: وتحولت غنياً بإذن الله تعالى وكثر مالي، و ملكت البيوت وفاضت تجارتي، وصرت أتصدق بالآلف درهم في المرة الواحدة في شكر الله تعالى..

ومرت الأيام، وأنا أكثر من الصدقات حتى أعجبتني نفسي!! وفي ليلة من الليالي رأيت في المنام أن الميزان قد وضع ونادى مناد: أبا نصر الصياد هلم لوزن حسناتك وسيئاتك، فوضعت حسناتي ووضعت سيئاتي، فرجحت السيئات.. فقلت أين الأموال التي تصدقت بها؟ فوضعت الأموال، فإذا تحت كل ألف درهم شهوة نفس أو إعجاب بصنيع كأنه لفافة من القطن لا تساوي شيئاً، ورجحت السيئات وبكى.. بكيت حتى كادت نفسي تذهب وأحشائي تنقطع. وقلت ما النجاة؟

وسمعت المنادي يقول: هل بقي له من شيء؟ فأسمع الملك يقول: نعم بقيت له رفاقتان... وتوضع الرفاقتان (الفطيرتان) في كفة الحسنات، فتهبط كفة الحسنات حتى تساوت مع كفة السيئات.

فبقيت خائفاً.. وأسمع المنادي مرة أخرى يقول: هل بقي له من شيء؟ فأسمع الملك يقول:
بقي له شيء قلت: ما هو؟... قيل له: دموع المرأة حين أعطيتها الرقاقتين؛ فوزنت الدموع،
فإذا بها كالحجر الصقيل وزناً. فثقلت كفة الحسنات، ففرحت فرحاً شديداً.

وأسمع المنادي كرة أخرى يقول: هل بقي له من شيء؟ فقول: نعم ابتسامة الطفل الصغير
حين أعطيت أمه الرقاقتان... وترجح كفة الحسنات... وترجح... وترجح.

وأسمع المنادي يقول: لقد نجا... لقد نجا فاستيقظت من النوم فزعا أقول ما قاله لي أحمد
بن مسكين حين رد إليّ إحدى الفطيرتين: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة.

اللهم اجعل أعمالنا خالصة لوجهك، صواباً على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني والعشرون

لا إله إلا الله هي شهادة الحق

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد : وهو قوله تعالى : (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [الزخرف: 86].

وستتناول الحديث عن هذه الآية في ثلاثة محاور: سبب نزولها والمعنى الإجمالي لها والفوائد المستنبطة منها.

المبحث الأول

سبب نزوله الآية الكريمة : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)⁶²

قال القرطبي : وقيل: إِنَّهَا نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنَّ النَّضَرَ بْنَ الْحَارِثِ وَنَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَنَحْنُ نَتَوَلَّى الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ أَحَقُّ بِالشَّفَاعَةِ لَنَا مِنْهُ.

62- تفسير القرطبي والرازي والماوردي وابن الجوزي.

المبحث الثاني

المعنى الإجمالي للآية الكرمة

أولاً : في تفسير قوله تعالى (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ) قولان :

القول الأول : أنه أراد بالذين يدعون من دونه: آلهتهم، ثم استثنى عيسى وعزيرا والملائكة، فقال: (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم، وهذا مذهب الأكثرين، منهم قتادة يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَدَّاهُمْ.

القول الثاني: أن المراد بالذين يدعون من دونه: عيسى وعزير والملائكة الذين عبدتهم المشركون بالله لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد إلا من شهد أي: (إِلَّا) ل (مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهي **كلمة الإخلاص** وهم يعلمون أن الله عز وجل خلق عيسى وعزيرا والملائكة، وهذا مذهب قوم، منهم مجاهد .

وفي الآية دليل على أن شرط جميع الشهادات أن يكون الشاهد عالماً بما يشهد به.

ثانياً : تفسير قوله تعالى (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) قولان⁶³ :

أحدهما: يعني أن الشهادة بالحق إنما هي لمن شهد في الدنيا بالحق وهم يعلمون أنه الحق فتشفع لهم الملائكة ، قاله الحسن .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) أَيُّ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: أن الملائكة لا تشفع إلا لمن شهد أن لا إله إلا الله وهم يعلمون أن الله ربهم.

⁶³ - تفسير الماوردي .

قال الطبري رحمه الله تعالى : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله - تعالى ذكره - أخبر أنه لا يملك الذين يعبدهم المشركون من دون الله الشفاعة عنده لأحد ، إلا من شهد بالحق ، وشهادته بالحق : **هو إقراره بتوحيد الله .**

يعني بذلك : إلا من آمن بالله ، وهم يعلمون حقيقة توحيده ، ولم يخص بآن الذي لا يملك ملك الشفاعة منهم بعض من كان يعبد من دون الله ، فذلك على جميع من كان تعبد قريش من دون الله يوم نزلت هذه الآية وغيرهم ، وقد كان فيهم من يعبد من دون الله الآلهة ، وكان فيهم من يعبد من دونه الملائكة وغيرهم ، فجميع أولئك داخلون في قوله : ولا يملك الذين يدعوا قريش وسائر العرب من دون الله الشفاعة عند الله . ثم استثنى - جل ثناؤه - بقوله : **(إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)** وهم الذين يشهدون شهادة الحق فيوحدون الله ، ويخلصون له الوجدانية ، على علم منهم ويقين بذلك أنهم يملكون الشفاعة عنده بإذنه لهم بها ، كما قال جل ثناؤه : **(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)** سورة الأنبياء (28) فأثبت - جل ثناؤه - للملائكة وعيسى وعزير ملكهم من الشفاعة ما نفاه عن الآلهة والأوثان باستثنائه الذي استثناه .

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآية الكرمة⁶⁴

الأولى : مما يشير إليه قوله تعالى : (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ) أن كل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى.

الثانية : يؤخذ من قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) أي: نطق بلسانه، مقرا بقلبه، علما بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه.

الثالثة : لما كان التوحيد مركزا حتى في فطر الكفار فلا يفرعون في وقت الشدائد إلا إلى الله، ولكنهم لا يلبثون أن يعملوا من الإشراك بما يخالف ذلك، فكأنه لا علم لهم قال: أن من **شهد بالحق يعلمون** أي على بصيرة مما شهدوا به، فلذلك لا يعملون بخلاف ما شهدوا إلا جهلا منهم بتحقيق معنى التوحيد، فلذلك يظنون أنهم لم يخرجوا عنه وإن أشركوا.

الرابعة : أفرد كلمة (شهد) أولا إشارة إلى أن التوحيد فرض عين على كل أحد بخصوصه وإن خالفه كل غير، وجمع (يعلمون) ثانيا إيدانا بالأمر بالمعروف ليجتمع الكل على العلم والتوحيد هو الأساس الذي لا تصح عبادة إلا به، وتحقيقه هو العلم الذي لا علم يعدله.

⁶⁴ - ملخص من تفسير الرازي والبقاعي وابن عجيبة والكياء الهراسي والسعدي.

الخامسة : قال الرازي في اللوامع: وجميع الفرق إنما ضلوا حيث لم يعرفوا معنى الواحد على الوجه الذي ينبغي إذ الواحد قد يكون مبدأ العدد، وقد يكون مخالطاً للعدد، وقد يكون ملازماً للعدد، والله تعالى منزّه عن هذه الواحدات.

السادسة : يؤخذ من قوله تعالى (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أن هذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لا تفيد البتة ، واحتج القائلون بأن إيمان المقلد لا ينفع البتة بهذه الآية ، فقالوا : بين الله تعالى أن الشهادة لا تنفع إلا إذا حصل معها العلم ، والعلم عبارة عن اليقين الذي لو شكك صاحبه فيه لم يتشكك ، وهذا لم يحصل إلا عند الدليل ، فثبت أن إيمان المقلد لا ينفع البتة .

السابعة : قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) يدل على معنيين :

أحدهما : أن الشهادة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، فإن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة.

والثاني : أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها، أن يكون الشاهد عالماً بها، ونحوه ما روي أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لرجل: ترى الشَّمْسَ؟ قال: نعم. قال: (على مثلها فاشهد، أو دُع)⁶⁵.

⁶⁵ - أخرجه الحاكم (7045) بنحوه، وأبو نعيم في حلية الأولياء - (4/18)، والبيهقي في شعب الإيمان، وقال ابن عثيمين في شرح بلوغ المرام: ضعيف لكن متنه صحيح.

الفصل الثالث والعشرون

لا إله إلا الله هي القول الصواب

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضع واحد ، وهو قوله تعالى : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) [النبا: 38].

وستناول هذه الآية في محورين: المعنى الإجمالي لها والفوائد المستنبطة منها.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة: (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) ⁶⁶

أولاً : معنى قوله تعالى : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) :

يوم القيامة يقوم جبريل عليه السلام بين يدي خالقه قيام تذلل وخضوع، ويقوم الملائكة - أيضا - قياما كله أدب وخشوع، وهم في صفوف منتظمة.

وكون المراد بالروح جبريل عليه السلام - وهو الرأي الراجح - لأن القرآن الكريم قد وصفه بذلك في آيات منها قوله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) وهناك أقوال أخرى في المراد به، منها أنه ملك من الملائكة، ومنها أرواح بني آدم.

والصف : مصدر في الأصل لا يثنى ولا يجمع غالباً فلهذا جاز أن يكون المراد أنهم يقومون **صفا** من الروح وحده ومن الملائكة بأسرهم **صفا**، وجاز أن يكون المراد يقوم الكل صفاً واحداً أو يقومون صفوفاً لقوله تعالى : (وَجَاءَ رُتُكُ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر: 22] .

⁶⁶ - تفسير الطبري وابن كثير والقرطبي والماوردي والرازي.

ثانياً : معنى قوله تعالى : (لَا يَتَكَلَّمُونَ):

لا يتكلمون يعني الملائكة والروح الذين قاموا صفا ، لا يتكلمون هيبة وإجلالا ، ولا بكلمة واحدة مطلقا سواء أكان الكلام في أمر عظيم أو لا ، ولا يكلمون له سبحانه ولا لغيره أصلا ولا أحد منهم، ويجوز أن يكون هذا حالا لهؤلاء الخواص فيكون الضمير لهم فغيرهم بطريق الأولى.

إلا من أذن له الرحمن في الشفاعة وهم قد قالوا صوابا ، وأنهم يوحدون الله تعالى ويسبحونه.

ثالثاً : معنى قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ): أي : أن من يريد التكلم لا يستطيعه أو تعثره رهبة فلا يقدم على الكلام حتى يستأذن الله فيأذن له، وإنما يستأذنه إذا ألهمه الله للاستئذان فإذا ألقى الله في النفس أن يستأذن : استأذن ، فيأذن الله له .

بين أنهم مع جلالة قدرهم لا يتكلمون إلا بشرطين:

أحدهما : الإذن من الله، والضمير في (له) إما للشافع أو للمشفوع.

والثاني : أن يقول (صواباً) والضمير في (قال) أيضاً إما للشافع فالمراد أنهم لا ينطقون إلا بعد ورود الإذن في الكلام، ثم بعد الإذن يجتهدون حتى لا يتكلمون إلا بما هو حق وصواب. وإما للمشفوع.

كما ورد في حديث الشفاعة من إحجام الأنبياء عن الاستشفاع للناس حتى يأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث المتفق عليه : (فَانْطَلِقُ، فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَارْفَعْ رَأْسِي، فَأَقُولُ:

يا رَبِّ، أُمِّتِي أُمِّتِي، فيقال: يا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ أُمِّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ
الْأَيْمَنِ مِنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيْما سِوى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ).

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ
مُشْفِقُونَ) الأنبياء (28) أي : لمن علموا أن الله ارتضى قبول الشفاعة فيه وهم يعلمون ذلك
بإلهام هو من قبيل الوحي ، لأن الإلهام في ذلك العالم لا يعتره الخطأ.

رابعاً : معنى قوله تعالى : (وَقَالَ صَوَابًا) أصل الصواب: السداد من القول والفعل ، وهو
من أصاب يصيب إصابة كالجواب من أجاب يجيب إجابة.

قال الماوردي رحمه الله تعالى : وقال صوابا فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني حقا ، قاله الضحاك .

الثاني : قول لا إله إلا الله ، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى وهو الشهادة بالتوحيد عند
أكثر المفسرين.

الثالث : أن الروح يقول يوم القيامة : لا تدخل الجنة إلا بالرحمة ، ولا النار إلا بالعمل ،
قاله الحسن البصري .

ويحتمل قولاً رابعاً : أنه سؤال الطالب وجواب المطلوب ، لأن كلام الخلق في القيامة
مقصود على السؤال والجواب.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة⁶⁷

الأولى : المقصود من الآية الكريمة، بيان أن الخلائق جميعا يكونون في هذا اليوم، في قبضة الرحمن وتحت تصرفه، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا بإذنه تعالى.

الثانية: يؤخذ من قوله تعالى: (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) :

أن الله تعالى ذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته وتحويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من مطلع السورة الى خاتمتها.

الثالثة : قال الرازي : قد يسأل سائل : لما أذن له الرحمن في ذلك القول علم أن ذلك القول صواب لا محالة، فما الفائدة في قوله : (وقال صوابا) ؟

والجواب من وجهين :

الأول : أن الرحمن أذن له في مطلق القول ، ثم إنهم عند حصول ذلك الإذن لا يتكلمون إلا بالصواب، فكأنه قيل إنهم لا ينطقون إلا بعد ورود الإذن في الكلام، ثم بعد ورود ذلك الإذن يجتهدون، ولا يتكلمون إلا بالكلام الذي يعلمون أنه صدق وصواب، وهذا مبالغة في وصفهم بالطاعة والعبودية.

وثانيهما: أن التقدير: لا يتكلمون إلا في محضر إذن الرحمن في شفاعته والمشفوع له ممن قال صواباً، وهو قول لا إله إلا الله.

⁶⁷ - تفسير الألوسي والرازي والقرطبي وإسماعيل حقي.

والمعنى: أن يُراد بالصواب: استعمال الأدب في الخطاب، بمراعاة التعظيم، كما هو شأن الكلام مع الملوك.

الفائدة الرابعة: إطلاق صفة الرحمن على مقام الجلالة إيماء إلى أن إذن الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته ، لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعته أو استغفار

الفائدة الخامسة: قال بعضهم إنما تظهر الهيبة على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم واما الخواص واصحاب الحضور فهم ابدا بمشهد العز بنعت الهيبة وفيه اشارة الا ان الاسرار والقلوب وقواهم الكائنين بين سموات الارواح وبين ارض النفوس لا يملكون أن يخاطبوا الحق في شفاعته النفس الامارة والهوى المتبع بسبب لحمه النسب الواقع بينهم اذ الكل اولاد الروح والقلب كما لم يملك نوح عليه السلام أن يخاطب الحق في حق ابنه كنعان بمعنى انه لم يقدر على انجائه اذ جاء الخطاب بقوله (فلا تسألن ما ليس لك به علم) .

الفصل الرابع والعشرون

لا إله إلا الله هي العروة الوثقى

ورد هذا اللقب للكلمة العظيمة في موضعين :

الأول: قوله الله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 256].

الثاني : قوله تعالى : (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [لقمان : 22].

وستتناول الكلام على هاتين الآيتين في خمسة محاور: سبب نزول الآية الأولى ثم المعنى الإجمالي لكل من الآيتين وفوائدهما.

المبحث الأول

سبب نزول الآية الكريمة: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ⁶⁸

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : قال محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس قوله : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) قال : (نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له : الحصيني كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلا مسلما، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ؟ فأنزل الله فيه ذلك) رواه ابن جرير وروى السدي نحو ذلك وزاد : وكانا قد تنصرا على يدي تجار قدموا من الشام يحملون زيتا فلما عزما على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرهما ، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث في آثارهما ، فنزلت هذه الآية.

68- انظر تفسير الطبري وابن كثير القرطبي والرازي والماوردي وابن الجوزي.

المبحث الثاني

المعنى الإجمالي لآية البقرة: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

أولاً : معنى قوله تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) أي : لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يُكره أحدٌ على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً.

إذ الإكراه في الحقيقة هو: إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً، ولكن أي تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة.

(قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) أي : تميز الحق من الباطل والإيمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الحجج والآيات الدالة .

ثانياً : معنى قوله تعالى : (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ):

أي : من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووجد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو ؛ و (الطاغوت) : فعلوت من الطغيان، وأصله: طغيوت وهو كل ما عُبد من دون الله راضياً بذلك⁶⁹.

⁶⁹ - ذكر المفسرون في معنى الطاغوت خمسة أقوال :

الأول : قال عمرو ومجاهد وقتادة : هو الشيطان .

الثاني : قال سعيد بن جبير: الكاهن .

الثالث : قال أبو العالية : هو الساحر .

الرابع : قال بعضهم : الأصنام .

الخامس : أنه مرده الجن والإنس وكل ما يطغى .

والتحقيق أنه لما حصل الطغيان عند الاتصال بهذه الأشياء جعلت هذه الأشياء أسباباً للطغيان كما في قوله : (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) [إبراهيم : 36] .

ثالثاً : معنى قوله تعالى : (فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) : قال الشيخ محمد متولي

الشعراوي رحمه الله تعالى : كلمة (اسْتَمْسَكَ) غير كلمة **مسك**. لأن (اسْتَمْسَكَ) تدل على أن فيه مجاهدة في المسك، والذي يتدين يحتاج إلى مجاهدة في التدين؛ لأن الشيطان لن يتركه، فلا يكفي أن تمسك، بل عليك أن تستمسك، كلما وسوس الشيطان لك بأمر فعليك أن تستمسك بالتدين، هذا يدل على أن هناك مجاهدة وأخذاً ورداً.

(بِالْعُرْوَةِ) والعروة هي العلاقة، مثلما نقول: عروة الدلو ، التي تمسكها منه، وهذه عادة ما تكون مصنوعة من الحبل الملفوف المتين.

(الْوُثْقَى) هي تأنيث " الأوثق " أي أمر موثوق به، قد يكون تشبيها بعروة الدلو لأن الإنسان يستخدم الدلو ليأتي بالماء، وبالماء حياة البدن، وبالدن حياة القيم.

(بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) كأنه ساعة جاء بكلمة **عروة** يأتي بالدلو في بال الإنسان، والدلو تأتي بالماء، والماء به حياة البدن، إذن فهذه تعطينا إichاءات التصور واضحة.

وما دامت "عروة وثقى" التي هي الدين والإيمان بالله، وما دامت هي الدين وحبل الله فهذه وثقى، وما دامت " وثقى " فلا انفصام لها، وعلينا أن نعرف أن فيه انفصاماً. وفيه انفصام الأول بالفاء والثاني بالقاف.

وقيل : العروة الوثقى : السبب الذي يوصل إلى رضا الله تعالى.

وقيل : العروة الوثقى: الإيمان ؛ وقال السدي : الإسلام . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ، لا إله إلا الله.

وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها لأنها ترجع إلى معنى واحد.

وقال بعضهم : (فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم ؛ وتمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين.

وقال بعضهم : معني (فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) مثّل حال المسلم المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق جبل، فاحتاط لنفسه، بأن استمسك بأوثق عروة من جبل متين، مأمونٍ انقطاعه. قال الهروي: أي: تمسك بالعقد الوثيق.

وقال بعضهم : وإنما سميت (الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى) لأن من أراد إمساك شيء يتعلق بعروته ، فكذا ههنا من أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة عليه ، ولما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها ، لا جرم وصفها بأنها العروة الوثقى.

ثالثاً : معنى قوله تعالى : (لَا أَنْفِصَامَ لَهَا): الانفصام : الانكسار من غير بينونة . **والقصم :** كسر بينونة ، وفي الحديث عن قالت عائشة رضي الله عنها : **(ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً)** متفق عليه؛ أي يقلع .

قال الجوهري رحمه الله تعالى: فصم الشيء كسره من غير أن يبين ، تقول : فصمته فانفصم ، مثلما تنكسر اليد لكنها تظل معلقة، **والانقصام:** أن يذهب كل جزء بعيداً عن الآخر أي فيه بينونة.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه في قوله تعالى : (لا انفصام لها) أي : لا انقطاع لها دون دخول الجنة.

رابعاً : معنى قوله تعالى : (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) أي لأقوال مدعي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله بالسننهم.(عليهم) بما تكنه قلوبهم مما يصدق ذلك أو يكذبه ، فهو يجزيهم وصفهم؛ فمن شهد بقوة إيمانه جميع الأسباب والسنن الكونية مسخرة بحكمة الله تعالى مسيرة بقدرته ، وأنه لا تأثير لسواها إلا لواضعها والفاعل بها ؛فهو المؤمن حقا ، وله جزاء المستمسك بالعروة الوثقى ، ومن

كان منظويا على شيء من نزغات الوثنية ، ناحلا ما جهل سره من عجائب الخلق قوة غير طبيعية ، يتقرب إليها أو يتقرب بها إلى الله زلفى ، فهو غير معتصم بالعروة الوثقى ، وله جزاء الكافرين الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين .

المبحث الثالث

وقفات تدبرية في الآية الكريمة : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

الأولى : يؤخذ من قوله تعالى (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) : أنه لقد دلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غي يوصل إلى الشقاوة السرمدية. والعقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء.

فمن سبقت له السعادة قيض الله سبحانه وتعالى له من الأسباب ما يخرج به من الظلمات إلى النور، ومن غلبت عليه الشقاوة سلط عليه الشياطين فأخرجته من نور الفطرة إلى ظلمات الكفر والحيرة. فعلم من هذا أنه لم يبق عائق عن الدخول في هذا الدين إلا القضاء والقدر.

الثانية : يستفاد من قوله تعالى : (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ) أن الكفر بالطاغوت متقدم على الإيمان بالله ؛ لأن الكفر بها هو رفضها ورفض عبادتها ، ولم يكتف بالجملة الأولى ؛ لأنها لا تستلزم الجملة الثانية ، إذ قد يرفض عبادتها ولا يؤمن بالله ، لكن الإيمان يستلزم الكفر بالطاغوت ، ولكنه نبه بذكر الكفر بالطاغوت على الانسلاخ بالكلية ، مما كان مشتبهاً به ، سابقاً له قبل الإيمان.

الثالثة : يؤخذ من قوله تعالى : (وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ) : فيه إشارة إلى أنه لا بد للكافر من أن يتوب أولاً عن الكفر ، ثم يؤمن بعد ذلك .

الرابعة : التعبير بالاستمسك يدل على أن من لم يكفر بجميع مناشئ الطغيان ، ويعتصم بالحق اليقين من أصول الإيمان ، فهو لا يعد مستمسكاً بالعروة الوثقى وإن انتمى في الظاهر إلى أهلها ، أو إلى ما بها إمام الممسك بها ، فالعبرة بالاعتصام والاستمسك الحقيقي ، لا بمجرد الأخذ الضعيف الصوري ، والانتماء القولي والتقليدي.

الخامسة : والاستمسك بالعروة الوثقى : شَبَّهَتْ هيئة المؤمن في ثباته على الإيمان بهيئة من أمسك بعروة وثقى من حبل ، وهو راكب على صعب أو في سفينة في هول البحر ، وهي هيئة معقولة شَبَّهَتْ بهيئة محسوسة ، ولذلك قال في الكشف : وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر بالمشاهد ، لأنها مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ، فالمعنى أن المؤمن ثابت اليقين سالم من اضطراب القلب في الدنيا ، وهو ناج من مهاوي السقوط في الآخرة ، كحال من تمسك بعروة حبل متين لا ينفصم .

السادسة : قال ابن عطاء الله رحمه الله - في الحِكم - : (لا يُخاف عليك أن تلتبس الطرق، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك) .

وقال أحمد بن خضرويه : الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أَسْمَعَ، ما التحير بعد هذا إلا من العمى. هـ. فطريق أسير واضحة لمن سبقت له العناية، باقية إلى يوم القيامة، وكل ما سوى الله طاغوت، فمن أعرض عن السَّوَى، وعلق قلبه بمحبة المولى، فقد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها على طول المدى. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

السابعة : قال السعدي : ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص آخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء.

الثامنة : قال السعدي : يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالموفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد

فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح،
فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه
صحيحاً.

المبحث الرابع

المعنى الإجمالي للآية الكريمة: (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

وهي قوله تعالى : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) لقمان (22) .

أولاً : معنى قوله تعالى : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ):

قال ابن عرفة رحمه الله تعالى : لما ذكر حال الكافر المجادل ذكر حال المسلم، وعدّاه هنا بـإلى (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) ، وفي قوله: (بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) ، باللام لأنه لما كان المجادل غير مُعين، ولم يخص له واحداً بعينه، عقّبه بحال من حصل منه مطلق الاستسلام، ومدّحه يتناول مدح مَنْ اتصف بأخص الاستسلام. أو: في الآية الأخرى أتى به خاصاً، لما رتب عليه من الثواب الجزيل بقوله: فَلَهُ أَجْرُهُ ... إلخ، الذي لم يذكر هنا إلا بعضه، فإن اللام تقتضي الاختصاص والقصد إلى الشيء. و «إلى» : لا تقتضي ذلك.

ثانياً : معنى قوله تعالى : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ): أي: ينقاد إليه بكلّيته، وينقطع إليه بجميع شراشره، بأن فوض أمره إليه، وأقبل بكليّته عليه.

قال القشيري رحمه الله تعالى : (من أَسْلَمَ نَفْسَهُ، وأخلص في الله قَصْدَهُ، فقد استمسك بالعروة الوثقى). هـ.

وقيل : أي يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى .

وقيل : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه. { وَهُوَ مُحْسِنٌ } في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعاً، قد اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقيل : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) ، بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها، بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه.

وقيل : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) ، بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم. وهذه المعاني ليست مختلفة بل هي متلازمة.

ثانياً: معنى قوله تعالى : (وَهُوَ مُحْسِنٌ) لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع ، نظيره : (مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) [الكهف:88]. وفي حديث جبريل قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) .

ثالثاً: معنى قوله تعالى : (فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لا إله إلا الله)؛ وهو إشارة لكون التوحيد سبباً واصلاً بالله تعالى، والآخذُ به، مُتَّصِلاً بالله، لا يخشى انقطاعاً ولا هلاكاً، بخلاف الشرك، فإنه على الضد، كما يرشد إليه قوله تعالى: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ) الآية. وقوله تعالى: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ) .

رابعاً : معنى قوله تعالى (وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) أي: رجوعها وموئلتها ومنتهأها، فيحكم في عباده، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

المبحث الخامس

وقفات تدبرية في الآية الكريمة : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

الأولى : من يَنْقُذْ بكليته إلى مولاه، وغاب عن كل ما سواه، وهو من أهل مقام الإحسان، بأن أشرقت عليه شمس العيان، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها أبداً.

ومن أمارات الانقياد: ترك التدبير والاختيار، والرضا والتسليم لكل ما يبرز من عنصر الاقتدار، وترك الشكوى بأحكام الواحد القهار.

الثانية : قال الرازي : وقوله: (فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) أي تمسك بجبل لا انقطاع له وترقى بسببه إلى أعلى المقامات ، وقد قال ههنا: (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) أي يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا، ويمكن أن يزداد عليه ويقال من أسلم **لله** أعلى درجة ممن يسلم **إلى الله**، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص، يقول القائل أسلمت وجهي إليك أي توجهت نحوك وينبىء هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول وقوله أسلمت وجهي لك يفيد الاختصاص ولا ينبىء عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول.

إذا عُلِمَ هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى: (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا) فقال الله ردّاً عليهم: (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) [البقرة: 111] ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) [البقرة: 112] أي أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمناً قليلاً تدخلون النار ومن كان بكليته لله لا يدخلها، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقص بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر إلا الله وقال: أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها، ثم بين كذبهم وقال: بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله: (فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ).

وأما ههنا - آية لقمان - أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة.

الثانية : وخص سبحانه الوجه بالذكر، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة، فإذا خضع الوجه الذى هو أكرم الأعضاء، فغيره أكثر خضوعا. وقوله (وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) أى وإلى الله - تعالى - وحده تصير الأمور، وترجع إليه، وتخضع لحكمه وإرادته.

الثالثة : (وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) فيوصل من يشاء برحمته، ويقطع من يشاء بعدله.

الرابعة : قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى : مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ مِنَ الجدل بغير علم، وبغير هدى، وبغير كتاب منير، فعليه أَنْ يُسَلِّمَ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [ص: 82] ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْهُمْ (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ) [الحجر: 40]. وقال سبحانه: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) [الإسراء: 65].

الخامسة : قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى : ومعنى (يُسَلِّمُ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) [لقمان: 22] أخلص وجهه في عبادته لله وحده، وبذلك يكون في معية الله، وَمَنْ كَانَ فِي مَعِيَةِ رَبِّهِ فَلَا يَجْرُو الشَّيْطَانُ عَلَى غَوَايَتِهِ، وَلَا يُضَيِّعُ وَقْتَهُ مَعَهُ، إِنَّمَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ إِلَى غَافِلٍ يَسْتَطِيعُ الدَّخُولَ إِلَيْهِ، فَالَّذِي يَنْجِيكَ مِنَ الشَّيْطَانِ أَنْ تُسَلِّمَ وَجْهَكَ لِلَّهِ. وقد ضربنا لذلك مثلاً بالولد الصغير حينما يسير في صحبة أبيه فلا يجروا أحد من الصبيان أن يعتدي عليه، أما إن سار بمفرده فهو عُرضة لذلك، لَا يَسْلَمُ مِنْهُ بِحَالٍ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ إِنْ انْفَلَتَ مِنْ يَدِ اللَّهِ وَمَعِيَتِهِ.

ومن إسلام الوجه لله قَوْلُ مَلَكَةِ سَبَأَ: (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [النمل: 44] الكلام هنا كلام ملكة، فلم تقل: أسلمتُ لسليمان، لكن مع سليمان لله، فلا غضاضة إذن.

السادسة : قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى : إسلام الوجه لله، أو إخلاص العمل لله تعالى عملية دقيقة تحتاج من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة لأن النفس لا تخلو من هفوة، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله، لكن سرعان ما تتدخل النفس بما لها من حب الصَّيت والسمعة، فيخالط العمل شيء من الرياء ولو كان يسيراً.

القسم الثاني

آيات القرآن التي ضربت الأمثال للكلمة العظيمة

الفصل الأول : لا إله إلا الله هي الكلمة الطيبة.

الفصل حث الثاني : لا إله إلا الله هي دعوة الحق .

الفصل الأول

لا إله إلا الله هي الكلمة الطيبة

قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) سورة إبراهيم(24-25).

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً)

قال القرطبي : في قوله (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً) [إبراهيم: 24] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **شهادة أن لا إله إلا الله { كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ }** وهو المؤمن: {أَصْلُهَا ثَابِتٌ}، يقول لا إله إلا الله ثابت في قلب المؤمن {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: 24] يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

قال ابن عجيبة : يقول الحق جلّ جلاله: (أَلَمْ تَرَ) يا محمد صلى الله عليه وسلم، أو أيها السامع، (كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) لأهل لا إله إلا الله، وهم: أهل التوحيد، الذين رسخ التوحيد في قلوبهم، وعبروا عنه بألسنتهم.

فمثال الكلمة الطيبة التي نطقوا بها، ورسخ معناها في قلوبهم (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ): كالنخلة مثلاً، أَصْلُهَا ثَابِتٌ في الأرض، غائص بعروقه فيها، (وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) أي: أعلاها. أو يريد الجنس، أي: فروعها وأفنانها في السماء.

(تُؤْتِي أَكْلَهَا): تُعْطَى مَا يُؤْكَل مِنْ ثَمَرِهَا كُلِّ حِينٍ وَقَتَهُ اللَّهُ لِإِثْمَارِهَا، فَقِيلَ: سَنَةٌ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ وَالْفُقَهَاءِ، وَاسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى مَنْ حَلَفَ لَا يُكَلِّمُ أَخَاهُ حِينَئِذٍ لَزِمَهُ سَنَةٌ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضاً وَالضَّحَّاكَ وَغَيْرِهِمَا:

(كُلَّ حِينٍ) أَي: غَدَوَةٌ وَعَشِيَّةٌ، وَمَتَى أُرِيدَ جَنَاهَا. قُلْتُ: وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ.

وَاخْتَلَفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ الطَّيْبَةِ، الَّتِي ضَرَبَ اللَّهُ بِهَا الْمَثَلَ لِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ:

فَقِيلَ: غَيْرُ مَعِينَةٍ، وَقِيلَ: النَّخْلَةُ، وَبِهِ قَالَ الْجُمْهُورُ.

قَالَ الشَّطِيبِيُّ: وَقِيلَ: جَوْزَةُ الْهِنْدِ، فَإِنَّمَا ثَابِتَةُ الْأَصْلِ، مُتَّصِلَةُ النِّفْعِ، يَكُونُ طَعْمُهَا أَوَّلًا لِبَنَاءِ، ثُمَّ عَسَلًا، ثُمَّ تَتَعَقَّدُ طَعَامًا، وَيَصْنَعُ بَلْبِنَهَا مَا يَصْنَعُ بَلْبَنُ الْمَوَاشِيِّ، ثُمَّ يَكُونُ كَالْخُلِّ، ثُمَّ كَالْخَمْرِ، ثُمَّ كَالزَّيْتِ، كُلُّ هَذَا قَبْلَ عَقْدِ الطَّعْمِ.

وَأَمَّا النَّخْلَةُ فَهِيَ: سِتَّةُ أَشْهُرٍ طَلَعَ رِخْصٌ، وَسِتَّةُ أَشْهُرٍ رَطَبٌ طَيِّبٌ، فَنَفْعُهُ مُتَّصِلٌ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: إِنَّهُ بِيَلَادِ الْيَمَنِ نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ، يُقَالُ لَهُ: الْبَاهِينَ، يَطْعَمُ السَّنَةَ كُلَّهَا. هـ.

قُلْتُ: وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ مَقْشَبٍ جَوْزَةَ الْهِنْدِ، وَوَصَفَهَا كَمَا قَالَ الشَّطِيبِيُّ، وَقَوْلُهُ: «فِي النَّخْلَةِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ..» الْخ، فِيهِ نَظَرٌ، وَصَوَابُهُ: ثَلَاثَةٌ، فَإِنَّ الْمَعَايِنَةَ تَرُدُّهُ.

وَالْمُشَبَّهُ بِهَذِهِ الشَّجَرَةِ: الْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ الدَّائِمُ نَفْعُهُ، الْمُتَّصِلُ عِلْمُهُ، أَوْقَاتُهُ مَعْمُورَةٌ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَوْ تَذْكِيرِ عِبَادِ اللَّهِ، وَحَرَكَاتُهُ وَسَكَنَاتُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، حَيْثُ أَرَادَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَكُلُّ حِينٍ وَسَاعَةٌ يَصْعَدُ مِنْهُ عَمَلٌ إِلَى اللَّهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) لِأَنَّهُ فِي ضَرْبِهَا زِيَادَةٌ إِيضَاحٌ وَإِفْهَامٌ وَتَذْكِيرٌ فَإِنَّهُ تَصْوِيرٌ لِلْمَعَانِي وَتَقْرِيْبُهُ مِنَ الْحَسَنِ، لِنَفْهَمِهِ سَرِيعًا.

ثُمَّ ذَكَرَ ضِدَّهَا فَقَالَ: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ) كَلِمَةُ الْكُفْرِ (كَشَجَرَةٍ) كَمَثَلِ شَجَرَةِ خَبِيثَةٍ، كَالْحَنْظَلَةِ مَثَلًا، اجْتُنِبَتْ: اسْتَوْصِلَتْ، وَأَخَذَتْ جِثَّتَهَا، وَقَلَعَتْ بِالْكَلِيَّةِ (مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ)،

أي: قطعت من فوق الأرض لأن عروقها قريبة منه، ما لها مِنْ قَرَارٍ: استقرار. وهذا في مقابلة قوله: أَصْلُهَا ثَابِتٌ.

وقال البيضاوي: واختلف في الكلمة والشجرة: فُفسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد- أي: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ، ودعوة الإسلام والقرآن. والكلمة الخبيثة بالإشراك بالله تعالى، والدعاء إلى الكفر، وتكذيب الحق.

ولعل المراد بهما ما يعم ذلك:

فالكلمة الطيبة: ما أعرب عن حق، أو دعا الى صلاح، **والكلمة الخبيثة:** ما كان على خلاف ذلك.

وفُسرَت الشجرة الطيبة بالنخلة، ورُوي ذلك مرفوعاً، وبشجرة في الجنة، والخبيثة بالخنزلة، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعم ذلك. هـ.

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) وهو: **لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**، أو كل ما يثبت في القلب، ويتمكن فيه من الحق، بالحجة الواضحة في الحياة الدنيا مدة حياتهم، فلا يزلون إذا افتتنوا في حياتهم، أو عند موتهم، وهي حسن الخاتمة، وفي الآخرة عند السؤال، فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدتهم في القبر، وعند الموقف، فلا تدهشهم أهوال القيامة. قال الحبيب صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال: **(ثُمَّ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ، وَمَا دِينُكَ، وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم. فينادي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي. فذلك قوله تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)** ⁷⁰ . قلت: والقدرة صالحة لهذا كله. قال الغزالي: هو أشبه شيء بحال النائم.

70- أخرجه بنحوه مطولاً أبو داود في (السنة، باب المسألة في القبر) والحاكم في المستدرک (1/ 37) وصححه من حديث البراء بن عازب. وأصل الحديث في الصحيحين.

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

هذه الآية تبين لنا فوائد عظيمة ل (لا إله إلا الله)، ومنها ⁷¹:

الأولى : قوله تعالى (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) هذه شجرة موصوفة بأربع صفات :

الصفة الأولى : كونها طيبة ، وذلك يحتمل أموراً :

أحدها : كونها طيبة المنظر والصورة والشكل .

وثانيها : كونها طيبة الرائحة .

وثالثها : كونها طيبة الثمرة يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة .

ورابعها : كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها ، ويجب حمل قوله : شجرة طيبة ، على مجموع هذه الوجوه ؛ لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب.

الصفة الثانية : أَصْلُهَا ثَابِتٌ : أى : ضارب بعروقه فى باطن الأرض فصارت بذلك راسخة الأركان ثابتة البنيان .

فهو آمن من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء؛ وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء ، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه .

71- ملخصة من تفسير الفخر الرازي للآية الكريمة .

أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجوده ويكمل السرور بسبب الفوز به .

والصفة الثالثة : وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ : وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين:

الأول : أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق.

والثاني : أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب .

والصفة الرابعة : تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا : والمراد : أن ثمرتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات ، ولا تكون مثل الأشجار التي يكون ثمارها حاضرا في بعض الأوقات دون بعض ، فهذا شرح هذه الشجرة التي ذكرها الله تعالى في هذا الكتاب الكريم .

ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة في تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة ، وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لا يجوز له أن يتغافل عنها أو يتساهل في الفوز بها.

الثانية : معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته ، تشبه هذه الشجرة في هذه الصفات الأربع ، وبيانها كالتالي :

أما الصفة الأولى : وهي كونها طيبة فهي حاصلة : بل نقول : لا طيب ولا لذيق في الحقيقة إلا هذه المعرفة - معرفة التوحيد - ؛ وذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة إنما حصلت لأن إدراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن ، فلأجل حصول تلك الملاءمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة ، وههنا الملائم لجوهر النفس والروح ليس إلا معرفة

الله تعالى ومحبه والاستغراق في الابتهاج به ، فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيدة جدا ، بل نقول : اللذة الحاصلة من إدراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالا من اللذة الحاصلة بسبب إشراق جوهر النفس بمعرفة الله .

الصفة الثانية : هذه الشجرة ثابتة الأصل : فهذه الصفة في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل ؛ وذلك لأن عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية ، وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء ، وأيضا مدد هذا الرسوخ إنما هو من تجلي جلال الله تعالى ، وهذا التجلي من لوازم كونه سبحانه في ذاته نور النور ومبدأ الظهور ، وذلك مما يمتنع عقلا زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود في جميع صفاته ، والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقه ، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هذه الشجرة .

الصفة الثالثة : الشجرة الجسمانية فرعها في السماء : اعلم أن شجرة معرفة التوحيد لها أغصان كثيرة ويجمعها أصلان عظيمان وهما: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله تعالى .

أما التعظيم لأمر الله : فيدخل فيه : التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح ، وفي عالم الأجسام ، وفي أحوال عالم الأفلاك والكواكب ، وفي أحوال العالم السفلي .

ويدخل فيه : محبة الله تعالى والشوق إلى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى ، والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى ، والاستقصاء في ذكر هذه الأقسام غير مطموح فيه لأنها أحوال غير متناهية .

وأما الشفقة على خلق الله : فيدخل فيه : الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب ، والسعي في إيصال الخير إليهم ، ودفع الشر عنهم ، ومقابلة الإساءة بالإحسان .

وهذه الأقسام أيضا غير متناهية ، وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فإن الإنسان كلما كان أكثر توغلا في معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل.

وأما الصفة الرابعة : فهي قوله تعالى : (تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) : فشجرة المعرفة أولى بهذه الصفة من الأشجار الجسمانية ؛ لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة في حصولها ، والسبب لا ينفك عن المسبب.

فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون **نظره** بالعبارة كما قال : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) [الحشر : 2] .

وأن يكون **سماعه** بالحكمة كما قال : (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) [الزمر : 18] .

ونطقه بالصدق والصواب كما قال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ) [النساء : 135] .

وهذا الإنسان العارف بالله كلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل ، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر ، وربما توغل في هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئا لاحظ الحق فيه ، وربما عظم ترقّيه فيه فيصير لا يرى شيئا إلا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله ، فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى : (تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) .

وأیضا فما ذكرناه إشارة إلى الإلهامات النفسانية والملكات الروحانية التي تحصل في جواهر الأرواح .

ثم لا يزال يصعد من تلك المعرفة في كل حين ولحظة ولحظة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل ، كثمرة هذه الشجرة .

وأما قوله : (بِإِذْنِ رَبِّهَا) ففيه دقيقة عجيبة : وذلك لأنه عند حصول هذه الأحوال السنية والدرجات العالية قد يفرح الإنسان بها من حيث هي هي ، وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هي هي ، وإنما يفرح بها من حيث إنها من المولى ، وعند ذلك فيكون فرحه في الحقيقة بالمولى لا بهذه الأحوال .

ولذلك قال بعض المحققين : مَنْ آثر العرفان للعرفان فقد قال بالفاني ، وَمَنْ آثر العرفان لا للعرفان ، بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول .

هي أجمل الكلمات قُلْهَا كلما ضَجَّ الفؤادُ وضاعت الأزمان

وقال بعضهم في تقرير هذا المثل كلاما لا بأس به فقال : إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة ، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة ، إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل قائم ، وأغصان عالية . كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : معرفة في القلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان . والله أعلم .

الثالثة : شبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : «كلمة طيبة شهادة أن لا إله إلا الله كشجرة طيبة وهو المؤمن أصلها ثابت قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء».

الرابعة : قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها.

الخامسة : حكمة تشبيه المؤمن بالشجرة : وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته.

فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطلق المشبه المشبه به **فعروقها** العلم والمعرفة واليقين **وساقها** الإخلاص **وفروعها** الأعمال **وثمرتها** ما توجهه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح المرضي .

فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور فإذا كان **العلم** صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، **والاعتقاد** مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله ، **والإخلاص** قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر ، **والسمت المرضي** مشابه لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء؛ وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميتها فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكير والتفكير على التذكر وإلا أوشك أن تيبس وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: (إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجِدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ) ⁷².

وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتما نعمة وإحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم .

ومنها : أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه فإن تعاهده ربه ونقاؤه وقلعه كمل الغرس والزرع واستوى وتم نباته وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع ويكون الحكم له أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرتة وقلته ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كثير وهو لا يشعر فالمؤمن دائما سعيه في شيئين سقي هذه الشجرة وتنقية ما حولها فبسقيها تبقى وتدوم وتنقية ما حولها تكمل وتتم والله المستعان وعليه التكلان. ⁷³

السادسة : قال ابن عجيبة : الكلمة الطيبة، هي كلمة التوحيد، والشجرة الطيبة هي شجرة الإيمان، وأصلها هو: التوحيد الثابت في القلب، وفروعها: الفرائض والواجبات، **وأغصانها:** السنن المؤكدة.

وأوراقها: المندوبات والمستحبات، **وأزهارها:** الأحوال والمقامات، **وأذواقها:** الوجدان وحلاوة المعاملات، **وانتهاء طيب أثمارها:** العلوم وكشف أسرار الذات، الذي هو مقام الإحسان،

72- قال الألباني : رجاله رجال مسلم غير عبدالرحمن بن ميسرة وهو حسن الحديث (السلسلة الصحيحة - حديث رقم (1585)).

73 - الفائدتان (4-5) ملخصتان من تفسير ابن القيم للآية - الحاوي في تفسير القرآن الكريم - موقع نداء الإيمان.

وهي معرفة الشهود والعيان. فَمَنْ لم يبلغ هذا المقام لم يَجْن ثَمرة شجرة إيمانه. ومن نقص شيئاً من هذه الفروع نقص بقدرها من شجرة إيمانه، إما من فروعها، أو من أغصانها، أو من ورقها، أو من حلاوة أذواقها، أو مِنْ عَرَف أزهارها، أو من طيب ثمرتها. ومعلوم أن الشجرة إذا نبتت بنفسها في الخلاء، ولم تُلَقَّح كانت دَكَّاره، تورق ولا تثمر، فهي شجرة إيمان مَنْ لا شيخ له يصلح للتربية، فإن الفروع والأوراق كثيرة، والثمار ضعيفة، أي ربح هاج عليها أسقطها. وراجع ما تقدم في إشارة قوله تعالى: (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) [سورة المائدة/ 35]. وبالله التوفيق.

الفصل الثاني

لا إله إلا الله هي دعوة الحق

ورد هذا اللقب في موضع واحد ، وهو قوله تعالى : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) [الرعد: 14].

وستتناول هذه الآية في محورين: المعنى الإجمالي لها والفوائد المسبطة منها.

المبحث الأول

المعنى الإجمالي للآية الكريمة: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ)⁷⁴

أولاً : معنى (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) فيها أربعة أقوال :

القول الأول : (لَهُ) الواجب الذي يجب لله تعالى من خلقه (دَعْوَةُ الْحَقِّ) وهي توحيد الله وشهادة أن لا إله إلا الله.

قال علي رضي الله عنه : "دعوة الحق التوحيد" ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "شهادة أن لا إله إلا الله" . ولا فرق بينهما من حيث المعنى.

و(الدعوة) هي (الحق) كما أضيفت الدار إلى الآخرة في قوله : (ولدار الآخرة) سورة يوسف (109). والمقصود منه الدلالة على كون هذه الدعوة مختصة بكونها حقة ، وكونها خالية عن أمارات كونه باطلا ، وهذا من باب إضافة الشيء إلى صفته.

⁷⁴ - تفسير الطبري و ابن كثير والقرطبي والماوردي والبغوي والسعدي.

القول الثاني : أنه الله تعالى هو الحق ، وعن الحسن : الحق هو الله وكل دعوة إليه تعالى فهي دعوة إلى الحق كما قال تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فصلت (33).

القول الثالث: أن الإخلاص في الدعاء هي دعوة الحق.

القول الرابع: (دَعْوَةُ الْحَقِّ) دعاؤه عند الخوف ، فإنه لا يدعى فيه إلا إياه كما قال تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ) سورة الإسراء (67).

قال الماوردي : وهو أشبه بسياق الآية ، لأنه قال بعدها : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) يعني الأصنام والأوثان .

وقد لخص السعدي رحمه الله هذه الأقوال بقوله:

(لَهُ) أي: لله وحده (دَعْوَةُ الْحَقِّ) وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والرغبة، والرغبة، والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة.

ثانياً : ضرب الله تعالى مثلاً لكلمة التوحيد : فقال تعالى (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ).

للمفسرين في معنى هذا المثل ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً ، لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

القول الثاني : أنه كالظمان الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ، قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء ، ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطا كفيه . وهو مثل ضربه خيبة الكفار .

القول الثالث : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه ، فلا يجد في كفه شيئا منه . وقد ضربت العرب مثلا لمن سعى فيما لا يدركه ، بالقبض على الماء كما قال الشاعر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء ، خائنه فروج الأصابع

قال علي رضي الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه ، كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم دعاؤها ، وهي لا تقدر على شيء .

كما قال الشاعر :

فإني وإياكم وشوقا إليكم كقابض ماء لم تسقه أنامله

وقال الآخر :

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى الكلام : أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء ، إما قابضا وإما متناولا له من بعد ، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه ، الذي جعله محلا للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره ، لا ينتفعون بهم أبدا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال : (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ).

ثالثاً : معنى قوله تعالى : (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال ، لأنها شرك .

وقيل : إلا في ضلال أي يضل عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منه سبيلا ، كما قال تعالى
(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَيَّنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا
وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) الأعراف (37).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يُسمع دعاؤهم.

قال السعدي رحمه الله تعالى: وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليلغ
فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال،
والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
الْحَيَاظِ) الأعراف (40).

المبحث الثاني

وقفات تدبرية في الآية الكريمة

الأولى : يستفاد من قوله تعالى : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) :

أن الحق هو الموجود ، والموجود قسمان : قسم يقبل العدم ، وهو حق يمكن أن يصير باطلا ، وقسم لا يقبل العدم، فلا يمكن أن يصير باطلا ، وذلك هو الحق الحقيقي ، وإذا كان **واجب الوجود لذاته** موجوداً لا يقبل العدم كان أحق الموجودات بأن يكون حقا هو هو ، وكان أحق الاعتقادات وأحق الأذكار بأن يكون حقا هو اعتقاد ثبوته وذكر وجوده ، فثبت بهذا أن وجوده هو الحق في الموجودات ، واعتقاد وجوده هو الحق في الاعتقادات ، وذكره بالثناء والإلهية والكمال هو الحق في الأذكار ، فلهذا قال : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ).

الثانية : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) : الدعاء والتضرع الثابت الواقع في محله المحاب عند وقوعه والإضافة للإيدان بملازمة الدعوة للحق واختصاصها به وكونها بمعزل من شائبة البطلان والضلال والضياع كما يقال : كلمة الحق والمراد أن إجابة ذلك له تعالى دون غيره ويؤيد ما بعد كما لا يخفى.

الثالثة : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) : إذا كانت الدعوة إلى عبادته سبحانه حقا كانت عبادته جل شأنه حقا وبالعكس وعن الحسن أن المراد من الحق هو الله تعالى.

الرابعة : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) : هذا الكلام مسوق لاختصاصه سبحانه بأن يدعى ويعبد ردا لمن يجادل في الله تعالى ويشرك به سبحانه الأنداد ولا بد من أن يكون في الإضافة إشعار بهذا الاختصاص فإن جعل الحق في مقابل الباطل فهو ظاهر وإن جعل اسما من أسمائه تعالى كان الأصل لله دعوته تأكيدا للاختصاص.

الخامسة : في قوله تعالى (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهٖ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) شبه الداعون لغير الله تعالى بمن أراد أن يغرف الماء بيديه

فبسطهما ناشرا أصابعه في أنهما لا يحصلان على طائل وجعل بعضهم وجه الشبه قلة الجدوى ولعله أراد عدمها لكنه بالغ بذكر القلة وإرادة العدم دلالة على هضم الحق وإيثار الصدق وإلشام طرف من التهكم ، أي لا يستجيب الآلهة لهؤلاء الكفرة الداعين إلا مشبهين أعني الداعين بمن بسط كفيه ولم يقبضهما وأخرجهما كذلك فلم يحصل على شيء لأن الماء يحصل بالقبض لا بالبسط.

السادسة : كل من تعلق في نوائبه بغير الله، أو ركن في حوائجه إلى غير مولاه، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليلغ فاه، وليس بواصل إليه، ولا ببالغ قصده ومناه، بل دعاؤه في تلف وخسران، وجزاؤه الخيبة والحرمان.

فالواجب على العبد أن يقتصّر حوائجه على مولاه، وينقاد إليه بكلّيته في حال الطوع والإكراه. إما أن ينقاد إليه بالإحسان، أو بسلاسل الامتحان. (عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاسل) أخرجه البخاري .

السابعة : قال الشيخ محمد متولي الشعراوي : حين يدعو الإنسان ربه؛ فهذا يعني أن أسباب العبد قد نفدت؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون ويملك كل الأسباب، ولذلك فكلُّ مَنْ يدعو الله؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد؛ ولا يُعجزه شيء.

ولكن إن دعوت مَنْ لا يستطيع؛ فهو دعوة لا تنفع العبد، وهم كانوا يدعون الأصنام؛ والأصنام لا تضر ولا تنفع؛ فالصنم من هؤلاء لا يقدر على نفسه أو لنفسه؛ فقد كان من الحجر.

المبحث الثالث

بين الدعوة إلى الحق والدعاية إليه

هذا المبحث يحتوي على نقطتين أساسيتين :

النقطة الأولى : ضرورة حمل هم الدعوة إلى الحق⁷⁵:

هذه كلمة يستلذُّ لها كل سامع، ويأنس بها كل متوحِّش نافر، وتُوزن بها المذاهب والمقالات، وينقاد لها كل منصف قصده طلب الحقيقة، ويدَّعيها كلُّ أحد محقُّ أو غير محقِّ، ولكن لكل حقٍّ حقيقة، ولكل دعوى برهان، (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: 111].

فالله هو الحقُّ، ودينه حقُّ، وكتبه المنزلة من السماء حقُّ، ورسله حقُّ، ووعدته ووعدته حقُّ، وماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟

والحق هو الشيء الصحيح الثابت، والشيء النافع، الذي له النتائج الطيبة، والثمرات الصالحة المصلحة.

الله تعالى هو الحق الذي قامت الأدلة العقلية والنقلية على وحدانيته، وعظمته، وسعة أوصافه، وكماله المطلق الذي لا غاية فوقه، الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والمجد إلا هو. ودينه هو الحق الذي دارت أخباره على الحقائق الصادقة، والعقائد النافعة، المصلحة للقلوب والأرواح، وأحكامه على العدل المتنوع في العبادات والمعاملات في أداء حقوقه، وحقوق الخلق، باختلاف أحوالهم، وحقوقهم ومراتبهم (وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) [الأنعام: 115]. صدقاً في إخبارها، عدلاً في أحكامها وأوامرها ونواهيها.

75 - مقتبسة من مقال بعنوان الدعوة إلى الحق – للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - ضمن كتاب (مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة) - نشر عام 1373هـ - جمع وترتيب: أحمد الجماز وعبد العزيز الطويل، دار أطلس الخضراء – الرياض، ط1: 1431هـ (271/1) - نقلا عن موقع الدرر السنية.

ورسله - صلوات الله وسلامه عليهم - صادقون مصدقون، قد تحلّوا بأعلى الفضائل وأكمل الصفات، وقد تحلّوا عن كلّ خلق ديني ووصف ناقص. وقد دلّت البراهين القواطع على صدقهم، وصحة ما جاءوا به، كما دلّت على بطلان ما ناقض هذه الأصول، التي تأسست عليها الحقائق.

فالدعوة إلى هذه الأصول هي الدعوة إلى الحق (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت: 33]. (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل: 125]. (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف: 108]. فالدعوة إلى الحق هي أفرض الفروض، وأكمل الفضائل، وصاحبها مبارك أينما كان على نفسه وعلى غيره، وخصوصاً إذا دعا نفسه قبل غيره، واتصف بما دعا إليه كما في الآية السابقة وهي: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت: 33]. فهذا لا أحسن قولاً منه، ولا أكمل منه؛ لأنه دعا الخلق إلى الله، وقام بما دعا إليه، وانقاد للدين والطاعة من كل وجه.

وقد أمر تعالى بالدعوة إلى سبيله، وهي طريقة الرسول ودينه الذي هو الصراط المستقيم بالحكمة أي: بكل دعوة وكل وسيلة يحصل بها المقصود كله أو بعضه، وذلك متوقف على علم الداعي، ومعرفته، وبصيرته، ولا يكفي هذا حتى يعرف كيف الطريق إلى دعاية الخلق، وكيف سلوك الوسائل التي يتوصل بها إلى إيصال الحق إلى القلوب بالعلم والرفق واللين.

النقطة الثانية: ضرورة حسن الدعاية إلى الحق⁷⁶:

الدعاية سلاح ذو حدين، ومهمة رفيعة ووضعية شريفة إذا أريد بها جلب المصالح ودرء المفاسد والدلالة على الخير، والتنبيه إلى الحسن والجمال، ووضعية إن استعملت أداة للفساد، ومطية

76 - هذه النقطة مقتسبة من مقال الدعوة إلى الحق - للكاتب: عبد الوهاب بن منصور - مجلة دعوة الحق - العدد الأول - وزارة الأوقاف المغربية.

إلى الشر، ووسيلة إلى المنكر والإثم والبهتان، والدعاة يرتقون - إذا ارتقت مقاصدها - حتى يصلوا إلى مقام الصديقين والشهداء والصالحين، ويسفلون - إذا سفلت أغراضها - حتى يحلوا درك الأبالسة المردة والشياطين، وهم على العموم ممن يشملهم قول الرسول عليه السلام: **(الدال على الخير كفاعله، والدال على الشر كفاعله).**

والدعوة إلى الحق فرض إسلامي أكيد، وركن من أركان الدين متين، إنها هي بالذات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان به المسلمون خير أمة أخرجت للناس، والذي يتجاوز الله عن غيره ولا يتجاوز عنه (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [التوبة 91] ولا نصيحة لله والرسول أعظم من الدعوة إلى الله والإشادة بدينه، وهداية الناس إلى قرآنه، وتخليقهم بفضائله، ومحاسن صفاته (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت 33].

وما كان المسلمون في الصدر الأول يقعدون عن الدعوة إلى الله والإرشاد إلى الحق والهداية إلى الصراط المستقيم، لقد كان الواحد منهم يعد نفسه جندياً معباً لنصرة الدين والتبشير به والمجادلة عنه، أسوة بإمام الدعاة، وسيد الهداة، محمد رسول الله؛ دعا أبو بكر عثمان، وأسلم عمر على يد خباب، وآمن أبو ذر بتفهيم علي، وما كان شيء من الإذاية والإرهاق ليصرفهم عن كلمة حق يقولونها، أو دعوة إلى الله يدعونها، فالدنيا في نظرهم فانية وما عند الله خير وأبقى للأبرار، **(وأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم أو مما طلعت عليه الشمس)** كما ورد في الحديث.

والتاريخ يحدثنا عن أثر الدعاية في نشر الدين وتكثير سواد المؤمنين، فكم من قبيلة اعتنقت الإسلام، وشعب انتظم في سلكه، لا بدماء مراقبة، ولا بأرواح مزهقة، ولكن باللسنة وهبها الله حسن التعبير، وجباها لطف الإبانة، فنفدت منها الألفاظ الطيبة إلى القلوب وانطلقت منها

الأقوال الصائبة إلى العقول ؟ "... فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [الروم: 30].

وما أحوج الإسلام اليوم إلى دعاة مهرة مخلصين من طراز معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، يبشرون ولا ينفرون، ويبسرون ولا يعسرون، ويدمغون الأباطيل ويدروون الشبهات فقد كثر الكائدون للإسلام وتعددت وسائلهم لتشويه محاسنه، وقلب حقائقه، وبذر الشكوك والريب في نفوس الضعفاء من أبنائه، (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [التوبة: 32].

ومن دون ريب ستكون مهمة هؤلاء الدعاة شاقة، وتكاليفهم عسيرة لأنهم سيقاثلون في ميدانين ويجادلون عدوين، عدو من الخارج بلغ به التعصب الديني والسلالي إلى الدرجة التي يرى معها محاربة الإسلام قرينة إلى الله وزلفى، وعدو من الداخل ضرره أشد، وجرحه أنكى، ولكن الإيمان والصبر يذلان كل العقاب ويمهدان كل السبل مهما حفتها المخاطر، وانبثت فيها الأشواك.

الشرط الأساسي للنجاح أن يعطي الدعاة أمثلة عالية من أنفسهم على النبل والكمال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)) [الصف: 2-3] فيعظم إيمانهم برهم، ويشتد نشاطهم في الدعوة إلى طريقه وتستقيم سيرتهم، ويتوفرون على وسائل الإقناع الحديثة، ويجتنبوا الطرق العقيمة القديمة، فما كان لإنسان القرن العشرين أن يقتنع بالمنطق اليوناني، ولا بالجدل الكلامي، وفي القرآن - والحمد لله - من وسائل الإقناع الطبيعي والفطري ما يفهم كل مري

الخاتمة

حوت هذه الكلمة العظيمة على العديد من الإشارات العظيمة ومنها⁷⁷:

1- ليس في حروفها حرف منقوط، وفيه إشارة إلى التجرد من كل معبود سوى الله، فكما أن الحرف المهمل يفتقر إلى النقاط لتمييز عن الحرف المعجم، وتجرده يدل على أصله، فكذلك ينبغي من تلفظ بهذه الكلمة أن يتجرد في النية وهو يلفظها، أو لأن كلمة التوحيد تدل على الألوهية، والألوهية من شرطها عدم الافتقار إلى الغير، كذلك كانت حروفها لا تفتقر إلى التنقيط.

2- حوت هذه **الكلمة العظيمة** على مَدِّ التَّعْظِيمِ في قوله (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: مَدُّ الْمُبَالَعَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ طَلَبٌ لِلْمُبَالَعَةِ فِي نَفْيِ إِهْيَةِ سِوَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وهذه عادة الْعَرَبِ⁷⁸.

3- هذه **الكلمة العظيمة** ذكر فيها لفظ (الألوهية) ولم تذكر الربوبية، وفيه إشارة أن من قالها أثبت الألوهية لله فضلا عن الربوبية، فالكفار أثبتوا الربوبية ونفوا الألوهية عنه جل جلاله. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:25]، فمن أتى بكلمة التوحيد فقد أثبت الألوهية والربوبية لله، والله أعلم بالصواب.

4- هذه **الكلمة العظيمة** سبقت بالأمر بالعلم، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: من الآية: 19]، ولنا وقفة مهمة، وهي أن كلمة التوحيد لا بد أن تسبق بالعلم بمعانيها وحقائقها، وكان العرب يفقهون معناها أكثر بكثير من مسلمي اليوم، فمن تلفظ بها يقينا يؤمن

⁷⁷ - مقتبس من مقال بعنوان: كلمة التوحيد فضل وإشارات - أ.د. فهد أحمد عبدالرحمن القزاز - شبكة الألوكة الشرعية.

⁷⁸ - ينظر النشر في القراءات العشر - [1/ 345].

معناها أنه لا حاكم ولا رافع ولا خافض ولا معطي ولا مانع ولا معز ولا مذل ولا مشرع إلا الله من أجل هذا قال أهل الشرك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطلب منهم أن يقولوا: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [سورة ص: 5].

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: (لَمَّا مَرَضَ أَبُو طَالِبٍ، دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ، ابْنُ أَخِيكَ يَشْتُمُ آلِهَتَنَا، يَقُولُ وَيَقُولُ، وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَاهْتُمُّ، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ، وَكَانَ قُرْبَ أَبِي طَالِبٍ مَوْضِعُ رَجُلٍ، فَخَشِيَ أَنْ دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَمِّهِ أَنْ يَكُونَ أَرْقَ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ، فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَجِدْ مَجْلِسًا إِلَّا عِنْدَ الْبَابِ فَجَلَسَ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ يَشْكُونَكَ، يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آلِهَتَهُمْ، وَتَقُولُ وَتَقُولُ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: "يَا عَمِّ إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِمَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِمَا الْعَجَمُ الْجَزِيَّةَ" قَالُوا: وَمَا هِيَ؟ نَعَمْ وَأَيُّكَ، عَشْرًا، قَالَ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" قَالَ: فَقَامُوا وَهُمْ يَنْفَضُونَ ثِيَابَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: 5] قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ [سورة ص: 8] [رواه أحمد]. فانظر رحمك الله كيف يعلمون معناها فرفضوا أن يقولها فخابوا وخسروا وخسئوا.

5- هذه **الكلمة العظيمة** تتكون من اثني عشر حرفًا، وفيه إشارة إلى عدد أشهر السنة الهجرية قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36]، والأربعة الحرم في لفظ الجلالة [الله]؛ وفيه إشارة أن من قالها مخلصا كفرت عنه ذنوب السنة.

6- هذه **الكلمة العظيمة** عدد كلماتها سبع وعدد ابواب النار سبعة، وفيه إشارة أن من قالها أغلقت دونه بابًا من أبواب النار.

7- هذه **الكلمة العظيمة** مع تكملة الشهادتين (محمد رسول الله) تتكون من أربعة وعشرين حرفاً، وفيه إشارة أنّ كل حرف منها يكفر ذنوب ساعة من ساعات الليل والنهار.

8- هذه **الكلمة العظيمة** جاءت بصيغة النفي، وفيه إشارة أنّ من قالها نفت عنه الشرك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، وتكملة الشهادتين بالإثبات، وفيها إشارة أنّ من قالهما نفى الشرك عن الله وأثبت النبوة لرسوله - صلى الله عليه وسلم - . قال ابن أبي العز في شرحه للطحاوية: (هَذِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي دَعَتْ إِلَيْهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. وَإِثْبَاتُ التَّوْحِيدِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بِاعْتِبَارِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُقْتَضِي لِلْحَصْرِ، فَإِنَّ الْإِثْبَاتَ الْمُجَرَّدَ قَدْ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْإِحْتِمَالُ. وَلِهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: 163]، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. فَإِنَّهُ قَدْ يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ خَاطِرُ شَيْطَانِيٍّ: هَبْ أَنَّ إِلَهَنَا وَاحِدٌ، فَلَعَيْنَا إِلَهٌ غَيْرُهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: 163] ⁷⁹).

9- قال العلماء لا يستحبّ الابتداء بالنفي إلا في هذه الكلمة، حتى قيل في مدح من كان هذا شأنه:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

وقال الآخر:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد لم تُسمع له لاء

10- هذه **الكلمة العظيمة** ، تقوم على قطبين اثنين: النفي والإثبات، تنفي أربعة أمور، وتثبت أربعة أمور: تنفي: الآلهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب، وتثبت لله تعالى:

⁷⁹ - شرح الطحاوية - لأبي العز الحنفي - [1/ 72].

القصد، والتعظيم، والمحبة، والخوف والرجاء⁸⁰، والإثبات في قولنا: (محمدًا رسول الله)، إذ لا تتم شهادة "أن لا إله إلا الله" إلا بشهادة "أن محمدًا رسول الله" إذ لا تتم محبة الله إلا بمحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، ولا طريق إلى معرفة ما يحبه ويكرهه إلا من جهة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - المبلغ عن الله ما يحبه ويكرهه، بإتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، فصارت محبة الله مستلزمة لمحبة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتصديقه ومتابعته؛ ولهذا قرن الله تعالى بين محبته ومحبة رسوله في مواضع كثيرة من القرآن⁸¹.

11- هذه **الكلمة العظيمة** سميت بالشهادتين وفيه إشارة إلى أن من قالها شهد بشهادة الله، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، وشهد بنوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81]، أو وصل بقولها لمرتبة الشهود، ولا شهادة إلا بيقين فهي من المشاهدة فمن قالها مخلصا وصل لهذه المرتبة العالية من العلم اليقيني.

12- أركان الاسلام خمسة ذكرت في حديث جبريل المشهور وفيه: (...وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: (الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ...) [جزء من حديث سيدنا عمر رضى الله عنه، أخرجه مسلم في صحيحه]، وهي الركن الأول في الاسلام، وأركان الاسلام

⁸⁰ - ينظر الجواهر المضية - لمحمد بن عبد الوهاب التميمي - [ص: 34].

⁸¹ - مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية - للكتور عثمان جمعة ضميرية - [ص: 257].

المذكورة منها ما هو جسدي كالصلاة والصوم، ومنها ما هو مالي كالزكاة، ومنها ما هو جسدي ومالي كالحج، والأول منها ركن لساني وهو ما يدل على سهولته ويسره وهو في متناول أي فرد من أفراد الأمة، وتقديمه على باقي الأركان في إشارة إلى أنها مفتاحها لا تصح باقي الأركان إلا بالإتيان بها.

13- الملاحظ أنّ النبي - صلى الله عليه وسلم - شبه الإسلام بالبناء، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) [رواه البخاري ومسلم] وهذا البناء يتكون من خمسة أركان لا يقوم البناء إلا بوجودها كاملاً، وعند فقد أي ركن منها لا يقوم لهذا البناء قائمة، ولكن إذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شبه الإسلام بالبناء في زمانه فلا بدّ أن يكون البناء متكوناً من أربعة أركان وليس خمسة، وهذا هو المتعارف عليه في زمانه فأين هو الركن الخامس وما هو؟ أقول: لا بناء إلا بقاعدة يستند إليها، وهذه القاعدة الرصينة التي تبنى عليها الأركان الباقية هي الشهادتان، فكانت بمثابة الأساس، أو المراد أنّ المادة الأصلية التي لا يمكن التنازل عنها في البناء هذه المواد الخمسة فالذي يباشر البناء لا يمكنه ذلك إلا بوجود الحجر (الطابوق) والرمل، والإسمنت فكذا لا يتم البناء إلا باستخدام هذه المواد وإلا لم يكن البناء أصلاً، وأنا أميل للمعنى الأول فهو أليق بالمقام، والله اعلم بالصواب.

14- من لطائف هذه **الكلمة العظيمة** أنها كلها خير فلو قرأت عكساً لكانت توحيد الكلمة وهو مقصد من مقاصد الإسلام العظيمة فلن تنهض أمة لا توحّد كلمتها.

15- ومن الإشارات المهمة في هذه **الكلمة العظيمة** في التشهد الإشارة بإصبع المصباح المسبحة- السبابة- عند قولها والتوقيت الدقيق في رفعها؛ فقال الحنفية: (وَيَرْفَعُ السَّبَابَةَ عِنْدَ النَّفْيِ وَيَضَعُهَا عِنْدَ الْإِثْبَاتِ)، وقال الشافعية: (يُسَنُّ أَنْ يُشِيرَ بِمُسَبِّحَةٍ يُمْنَاهُ فَيَرْفَعُهَا إِذَا بَلَغَ الْهُمُزَةَ

مِنْ قَوْلِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ونص الشافعي علي استِحْبَابِ الْإِشَارَةِ... وَ يَنْوِي بِالْإِشَارَةِ
الْإِخْلَاصَ وَالتَّوْحِيدَ)، وقال الحنابلة: (وَيُشِيرُ بِالسَّبَابَةِ، يَرْفَعُهَا عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي
تَشَهُدِهِ)⁸²، وفي قرن القول بالفعل إشارة على تأكيد المعنى وتقويته والله أعلم بالصواب.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

⁸² - ينظر الدر المختار وحاشية ابن عابدين [رد المحتار] [1/ 509]، والمجموع شرح المذهب [3/ 454- 455]،
والمغني لابن قدامة [1/ 383].

فهارس المراجع

القرآن الكريم .

كتب التفسير :

تفسير الطبري .

التسهيل لعلوم التنزيل – ابن جزي.

تفسير القرطبي.

تفسير البغوي.

تفسير ابن كثير.

تفسير الرازي.

تفسير الماوردي .

تفسير ابن الجوزي.

تفسير البقاعي.

تفسير أبي حيان.

تفسير ابن عجيبة.

أضواء البيان – للشنقيطي.

تفسير المنار – للسيد محمد رشيد رضا.

التفسير الوسيط – للطنطاوي .

تفسير الشعراوي.

تفسير السعدي.

تفسير محمد أبو زهرة.

كتب الحديث :

صحيح البخاري.

صحيح مسلم.

سنن الترمذي.

سنن النسائي.

سنن الدارمي.

سنن أبي داود.

مسند أحمد.

سنن ابن ماجه

مجمع الزوائد .

مجمع الزوائد - للهيتمي.

الجامع الصغير - للسيوطي.

صحيح الترغيب والترهيب - للألباني.

صحيح الترمذي - للألباني.

سلسلة الأحاديث الصحيحة- للألباني.

كتب الرقائق:

حلية الأولياء - لأبي نعيم الأصبهاني .

مدارج السالكين - لابن القيم.

الفوائد - لابن القيم.

رسالة : تحقِيقُ التَّقْوَى في الاستِمْسَاكِ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى - للؤلُف.

مواقع الإنترنت:

موقع الشبكة الإسلامية (إسلام ويب).

موقع شبكة الألوكة الشرعية.

الدرر السنية .

موقع طريق الإسلام

موقع الإسلام سؤال وجواب.

موقع ديوان العرب.

موقع التنوير.

موقع الجزيرة.

الموقع الرسمي للقرضاوي.

موقع المكتبة الشاملة.

موقع المنبر.

المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
1	المقدمة.	3
2	تمهيد : فضائل الكلمة العظيمة في السنة المطهرة.	7
3	القسم الأول : آيات القرآن المبينة لأسماء وألقاب الكلمة العظيمة.	12
4	مدخل : في بيان ورود لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ في القرآن الكريم بلفظها ومعناها.	14
5	الفصل الأول : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي كلمة التقوى.	16
6	المبحث الأول : سبب نزول الآية الكريمة (وَالَّذِينَ كَانَتْ أَقْصَىٰ عَلَىٰ الْكُفْرِ) (وَالَّذِينَ كَانَتْ أَقْصَىٰ عَلَىٰ الْكُفْرِ).	16
7	المبحث الثاني : المعنى الإجمالي للآية الكريمة.	17
8	المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	19
9	المبحث الرابع : حقيقة التقوى وشذرات من ثمراتها في الدنيا والآخرة وطائفة من صفات المتقين.	23
10	الفصل الثاني : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي كلمة الاستقامة.	32
11	المبحث الأول : سبب نزول الآية الكريمة (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا).	32
12	المبحث الثاني : المعنى الإجمالي للآية الكريمة.	33
13	المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	36
14	المبحث الثالث : حول الاستقامة وثمراتها.	40
15	الفصل الثالث : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هي القول الثابت.	46
16	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ).	46

48	المبحث الثاني : الأحاديث الواردة في معنى الآية (يُحِبُّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ).	17
49	المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	18
52	المبحث الرابع : صور من ثبات السابقين على الدين والوسائل الموصلة إليه.	19
57	الفصل الرابع : لا إله إلا الله هي الكلمة العليا.	20
57	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا).	21
59	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	22
61	المبحث الثالث : الكلمة العليا تعلو على القلوب والجوارح.	23
65	الفصل الخامس : لا إله إلا الله هي كلمة الإحسان.	24
65	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ).	25
67	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	26
70	المبحث الثالث : ثمرات الإحسان في الواقع ونماذج من التاريخ	27
75	الفصل السادس : لا إله إلا الله هي الكلمة الحسنة.	28
75	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا).	29
78	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	30
80	المبحث الثالث : الخيرات المترتبة على هذه الكلمة الحسنة في الدنيا.	31
85	الفصل السابع : لا إله إلا الله هي كلمة التزكية.	32
85	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآيات الكريمات : (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى) (وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ).	33
87	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآيات الكريمات.	34

35	المبحث الثالث : أهمية تزكية النفس وكيف يزكي المسلم نفسه.	88
36	الفصل الثامن : لا إله إلا الله هي كلمة الفلاح .	95
37	المبحث الأول : سبب نزول قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى).	95
38	المبحث الثاني : المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا).	96
39	المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا).	97
40	المبحث الرابع : أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة.	99
41	الفصل التاسع : لا إله إلا الله هي العمل الصالح.	102
42	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة : (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ).	102
43	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة : (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ).	104
44	المبحث الثالث : أمنيات الموتى من المسلمين والكافرين.	106
45	الفصل العاشر : لا إله إلا الله هي الكلم الطيب والقول الطيب.	112
46	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ).	112
47	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين.	116
48	المبحث الثالث : أهمية الكلمة الطيبة في حياة المؤمن.	120
49	الفصل الحادي عشر : لا إله إلا الله هي الكلمة الباقية.	125
50	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ).	125
51	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	127

129	الفصل الثاني عشر : لا إله إلا الله هي كلمة العدل.	52
129	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ).	53
132	المبحث الثاني : المعنى الإجمالي للآية الكريمة: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ).	54
134	المبحث الثالث :وقفات تدبرية في الآية الكريمة (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ).	55
141	الفصل الثالث عشر : لا إله إلا الله هي القول السديد.	56
141	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة (وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا).	57
143	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	58
144	المبحث الثالث :ضوابط القول السديد ودوره في إصلاح الدين والدنيا.	59
149	الفصل الرابع عشر : لا إله إلا الله هي العهد المأخوذ لقبول الشفاعة.	60
149	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا).	61
152	المبحث الثاني : أنواع الشفاعة في ضوء الكتاب والسنة المطهرة.	62
159	المبحث الثالث : الرد على منكري الشفاعة يوم القيامة.	63
168	الفصل الخامس عشر : لا إله إلا الله هي الكلمة المرضية عند الله تعالى.	64
168	المبحث الأول :المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) (إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا).	65
171	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين.	66
173	المبحث الثالث : كيفية الوصول إلى رضا الله تعالى.	67
181	الفصل السادس عشر : لا إله إلا الله هي كلمة السواء.	68
181	المبحث الأول : سبب نزول الآية الكريمة : (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ).	69

70	المبحث الثاني : المعنى الإجمالي للآية الكريمة.	182
71	المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	185
72	المبحث الرابع : بيان حكم الدعوة إلى وحدة الأديان.	188
73	الفصل السابع عشر : لا إله إلا الله هي كلمة النجاة.	195
74	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة : (وَيَقُومَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجَاةِ)	195
75	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	197
76	المبحث الثالث : مفهوم النجاة وأسبابها في القرآن الكريم.	200
77	الفصل الثامن عشر : لا إله إلا الله هي المثل الأعلى.	205
78	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى).	205
79	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين.	211
80	المبحث الثالث : تعظيم الله تعالى بالقلب واللسان والجوارح.	216
81	الفصل التاسع عشر : لا إله إلا الله هي كلمة الصدق.	223
82	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة : (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)	223
83	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	225
84	المبحث الثالث : أهمية الصدق في المجتمع.	230
85	الفصل العشرون : لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد.	234
86	المبحث الأول : سبب نزول سورة الإخلاص وآية البقرة (وَالِهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ).	237
87	المبحث الثاني : المعنى الإجمالي للآيات الكريمات.	239
88	المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآيات الكريمات.	242

248	المبحث الرابع : مقتطفات من حديث القرآن عن كلمة التوحيد.	89
254	الفصل الحادي والعشرون : لا إله إلا الله هي كلمة الإخلاص.	90
254	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآيتين الكريمتين (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ).	91
257	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآيتين الكريمتين.	92
259	المبحث الثالث : معاني الإخلاص في القرآن الاكريم.	93
263	المبحث الرابع : أهمية الإخلاص ومراتبه والوسائل المعينة على تحصيله وعلامات المخلصين.	94
272	الفصل الثاني والعشرون : لا إله إلا الله هي شهادة الحق.	95
272	المبحث الأول : سبب نزوله الآية الكريمة : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).	96
273	المبحث الثاني : المعنى الإجمالي للآية الكريمة.	97
275	المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	98
277	الفصل الثالث والعشرون : لا إله إلا الله هي القول الصواب.	99
277	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة : (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا).	100
280	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	101
282	الفصل الرابع والعشرون : لا إله إلا الله هي العروة الوثقى.	102
282	المبحث الأول : سبب نزول الآية الكريمة : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ).	103
283	المبحث الثاني : المعنى الإجمالي لآية البقرة : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ).	104
287	المبحث الثالث : وقفات تدبرية في الآية الكريمة : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).	105

106	المبحث الرابع : المعنى الإجمالي للآية الكريمة : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ).	290
107	المبحث الخامس : وقفات تدبرية في الآية الكريمة : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ).	292
108	القسم الثاني : آيات القرآن التي ضربت الأمثال للكلمة العظيمة.	295
109	الفصل الأول : لا إله إلا الله هي الكلمة الطيبة.	296
110	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً).	296
111	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	299
112	الفصل الثاني : لا إله إلا الله هي دعوة الحق.	307
113	المبحث الأول : المعنى الإجمالي للآية الكريمة : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ).	307
114	المبحث الثاني : وقفات تدبرية في الآية الكريمة.	311
115	المبحث الثالث : بين الدعوة إلى الحق والدعاية إليه	313
116	الخاتمة.	317
117	فهارس المراجع.	323
118	المحتويات	326

